روايـة من اليابان

كينزا بورو أوي

علّمنا ان نتجاوز جنوننا



ترجمة
كامل يوسف حسين

دار الآداب

علّمنا أن نتجاوز جنوننا

كينزا بورو أوي

علّمنا أن نتجاوز جنوننا!

رواية

ترجمة كامل يوسف حسين

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى
١٩٨٨

كلمة من المترجم

ليس كينزابورو أوي بالغريب على القارىء العربي؛ فقد تصدينا للتعريف به في أكثر من مناسبة، وعبر منابر عديدة، وتعرضنا لعالمه الروائي، في سلسلة من المقالات، نشرتها مجلات «الآداب» و «الأقلام» و «آفاق عربية»، ثم نشرت إحدى الدور البيروتية روايته «مسألة شخصية».

مع ذلك، يظل من حق القارىء، وهو يقف بين يدي هذا المجلد، الذي يضم أربعاً من أفضل روايات أوي، أن يتجاوز إطار التعريف الشامل والعريض هذا، لينفذ إلى الحميمي والمحتجب، من دقائق وتفاصيل العالم الروائي لهذا الكاتب، الذي قال عنه عملاق الرواية اليابانية الراحل يوكيو ميشيما: «إن ذروة الأدب الياباني، في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، تتمثل في الكاتب كينزابورو أوي».

فلنبدأ، إذن، بأن نعيد إلى الذاكرة الحقائق الأساسية المتعلقة بحياة وإبداع أوي، وننطلق منها إلى الايغال بعيداً في عالمه الروائي.

ولد أوي في عام ١٩٣٥، في قرية صغيرة بمقاطعة «إيهايمي»، في جزيرة شيكوكو، لأسرة شديدة التواضع، سرعان ما غدا الطفل الثالث من أبنائها السبعة.

في هذه القرية، أمضى أوي طفولته، التي يستحضرها باعتبارها عصراً ذهبياً، أمضاه في غابة، لا تفتأ ذكراها تعاوده، وشأن أبناء جيله، دفعه إلى المدرسة الابتدائية في عام ١٩٤١، ثم إلى المدرسة الاعدادية في عام ١٩٤٧، في ظل النظام الجديد الذي فرضته قوات الاحتلال الأميركية. وزحفاً مع هذا الجيل، الذي كان قدره أن ينطلق، فيما بعد،

معبراً باسمه، التحق بالمدرسة الثانوية في عام ١٩٥٠، وبجامعة طوكيو في عام ١٩٥٤.

ومن سنوات الدراسة المتوالية هذه، تستمد أعمال أوي الأدبية الأولى مادتها، فقد بدأ بكتابة مسرحيتين، ثم التحق في عام ١٩٥٧ بقسم الأدب الفرنسي بالجامعة، ثم ما لبث أن اقتحم عالم الشهرة الأدبية، مع قيام مجلة «بونجا كوكاي» الجامعية، في العام نفسه، بنشر قصة الموسوعة «كثيرون هم الموتى»، وتدعمت شهرته مع نشره لفيض من القصص، أبرزها قصة «الطريدة»، التي فازت بجائزة «أكوتاجاوا» الأدبية الرفيعة.

وحينما تخرج أوي من الجامعة، في عام ١٩٥٩ ـ ويلفت النظر هنا أن أطروحته الرئيسية كانت عن روايات سارتر ـ كان قد حظي بقدر هائل من الشهرة، جعله بحق الناطق بلسان جيل بكامله، جنباً إلى جنب مع كتّاب مرموقين، من أمثال شنتارو إيشيهارا، وكين كايكو، وجان إيتو.

وإذا كانت أعمال أوي الأولى هي بمثابة بحث شعري متعمق، في أغوار ذاته، الساعية إلى التكامل، ونفض الغموض عن تجلياتها، فإن أعماله التالية عكست انشغالاً متزايداً بالقضايا السياسية والاجتماعية، والتزاماً سياسياً محدداً، ما كان يمكن إلا أن يجلب عليه هجمات عنيفة، ما لبثت أن طالت كل ما يكتب.

هكذا، أصبح أوي المعبر الأول عن المثقفين المنتمين إلى اليسار الجديد، في اليابان، في الستينيات، وبصفته تلك زار الصين، ليكون أصغر كاتب ياباني يلتقي بماوتسي تونغ وشواين لاي.

وفي عام ١٩٦٠ تزوج أوي، وأصدر مجموعة قصصية ورواية طويلة، لكن مصرع إينجيرو أسانوما، رئيس الحزب الاشتراكي الياباني، على يد أحد عناصر الشباب اليميني المتطرف، أثار موجة من الحنق في نفس الكاتب الشاب، سرعان ما انعكست في مجموعته القصصية الموسومة «سبعة عشرة»، التي أصدرها في عام ١٩٦١، والتي جلبت عليه حرباً شعواء من جانب منظمات اليمين الياباني.

وانعكست الزيارات التي قام بها في هذه المرحلة لدول شرق وغربي أوروبا والاتحاد السوفياتي في مجموعتين من المقالات، أصدرهما في ١٩٦٢.

وفي ١٩٦٣، أصدر روايته المتميزة «الشاذ»، التي كانت بمثابة هجوم بالغ الضراوة على مفاسد الحياة في المدينة، أعقبها فيض من القصص القصيرة والروايات، تعرض فيه لأخلاقيات جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية، وبصفة خاصة أخلاقياته الجنسية.

غير أن هذا العام شهد أمرين، كان لهما تأثير حاسم في حياة وأعمال أوي. أولهما مولد طفله بجمجمة مشوهة، نتيجة ورم في المخ، والثاني زيارة الكاتب لهيروشيما، للتحقيق في وقائع ما بعد انفجار القنبلة النووية هناك.

تركت نتائج هذين الأمرين بصمة بالغة الصرامة على حياة وأدب أوي وخياله ورؤيته للوجود بشكل عام، ويبدو هذا واضحاً بأجلى صورة من خلال روايته «أجوى المسخ السماوي»، التي يضمها هذا المجلد، وكذلك روايته «مسألة شخصية»، التي نال عنها جائزة «سنتشو» الأدبية البارزة.

وتوالت أعمال أوي مدوية، ولعل من أبرزها رواية «علمنا أن نتجاوز جنوننا!» التي يستمد هذا المجلد عنوانه منها، وكذلك روايته «الصرخة الصامتة» التي حصلت على جائزة «جونشيرو تانيزاكي».

وفي السبعينات، انشغل أوي بالعمل السياسي، وبأخطار سياسات القوة في العصر النووي، وقضايا العالم الثالث.

أما في الثمانينيات، فقد عرف الكاتب الياباني البارز كيف يستغل إقامته في المكسيك، بصورة شبه دائمة، فأخرج للعالم طوفاناً حقيقياً من الروايات، جعلته من أبرز الكتّاب الذين تضم اللائحة القصيرة لجائزة نوبل في الآداب أسماءهم، وأبرز هذه الأعمال هي «الطوفان» و «النساء اللاتي يصغين إلى شجرة المطر» و «استيقظوا يا شباب العصر الجديد!». و «كيف تقتل شجرة» و «لعبة العصر».

هنا يبرز سؤال هام: ما هي المؤثرات التي فرضت نفسها على ابداع أوي؟

ربما كان أوي من بين كتّاب اليابان الذين تكاد الاجابة على هذا السؤال تكون مستحيلة في حالتهم. ومع ذلك، فإن دائرة معارف «كودانشا» تغامر بمحاولة الاجابة على هذا السؤال فتقول: «أبرز المؤثرات الانفعالية والتخيلية والفكرية التي خضع لها أوي هي طفولته، التي أمضاها في قرية نائية من قرى شيكوكو، أعقبها تأثير المدينة، فالحرب، ثم احتلال اليابان، ثم ما أعقب ذلك من شعور بالتقلقل الثقافي، خلال السنوات التي تشكل فيها، ثم أفكار سارتر وغيره من الكتّاب الفرنسيين والإنجليز، وعدد من التجارب في حياته الشخصية، وفي بعض الأحيان تبرهن هذه المؤثرات على تعذر التصالح معها واستيعابها، غير أنها في أحيان أخرى تمتزج بخيال سوداوي ساخر، يكتسي أحياناً بلمسة من الغرابة الشعرية، ليقدِّم أعمالاً فذة في قوتها».

ولـكن ما هي القضية الأكثـر محـورية في الأدب الـذي تم إفـرازه في ظل هذه المؤثرات؟

إن كينزابورو أوي يتصدى بنفسه للاجابة على هذا السؤال، فيقول في لقـاء مـع مراسل صحيفة «لوموند»: «بالنسبة لي ولجيل ما بعد الحرب في اليابان، كان الهدف هوية جديدة لنا، لذا اندفعنا سياسياً في التيار المنـاهض للـولايات المتحـدة، حول الاتفـاق النووي مع اليابان، انطلاقاً من مناصرتنا للناجين من هيروشيما، مشوهين، ومعاقين، لكن السياسة ليست عملنا، بل الخلق الأدبي والفني، فهو شهادتنا علـى إمـكان بلـورة عقلية جديدة».

هـذا البحـث عن هوية جديدة وتلك المحاولـة لبلـورة عقلية جديدة، في أي أرض يضربان جذورهما؟

في مقابلة مع مجلة «ماجازان ليترير»، يرد أوي على علامة الاستفهام تلك، بشكل غير مباشر، فقد طرحت عليه المجلة التساؤل التالي: «في مكان ما قلت إنك تكتب لمقاومة شيء مرعب يشبه الجنون» فيعقب أوي بقولـه: «لـديّ شيء عجيب، أرويه لكم: قرية محاطة بغابة مترامية الأطراف والكثير من آبائي وأجدادي ماتوا فيها منعزلين. كانت تلك انتحارات، فعندما يفقد القرويون وعيهم ولا يستطيعون بعـد العيش في إطـار الجماعـة ينسحبون لكي يموتوا في الغابة. كان في إمكانهم أن يعيشوا بالاعتماد كلية على التغذي بالنباتات البرية والمشمش والجذور. كانوا يعيشون على هيئة «مجانين الغابة» وقد لاقى ثلاثة من أسلافي حتفهم على هذا النحو، ومنذ طفولتي كنت أشعر بأن هذا هو قدري، وأنني سأنفصل ذات يوم عن الجماعة، لأحيا تلك الحياة. وفي الواقع حينما استقـر بي المقام في طوكيو أحسست بأنني انحرفت عن حياتي الحقيقية وأنني صرت مجنونـاً. ولا زلت حتى اليوم أشعر بأنني انفصلت عن مجتمعي الحقيقي، فأنا أكتب لكي أتحرر من هذا الشعور. لكن من جهة أخرى، لو عدت إلى الحياة في القرية، فربما تمس حاجتي إلى الهرب من تلك الحياة فوراً. إنني أعيش معلقاً، بلا أدنى شعور بالاستقرار».

هذا الرجل الذي يملك عبقرية الايضاح على هذا النحو. لماذا يجتذبنا نحن أبنـاء العالم الثالث وكأنه يكتب لنا خصيصاً، رغم أنه يؤكد أنه يكتب وعينه على القارىء الياباني؟

ربما كانت الاجابة تبدو لنا سهلة عن هذا السؤال، لكنها في الواقع أبعد غوراً مما نظن، ذلك أن أوي هو التعبير الواضح والصريح عن الثقافة، التـى تتمـرد علـى القمـع

الثقافي الصادر من «المركز» الذي يحيل كل ما عداه إلى هامش.

يعبر أوي عن هذه الفكرة في اللقاء نفسه بقوله رداً على سؤال يقول: «هل هناك فوارق ثقافية كثيرة بين القرية التي ولدت فيها وطوكيو؟» ـ بقوله: «هناك فوارق بلا حصر. فثقافة طوكيو، التي تعود إلى عصر الميجي، عمرها مئة عام من التحديث، وميشيما يمثل هذه الثقافة التي يتعايش فيها الولاء للأمبراطور والتغريب. إنها ثقافة «المركز». وبالمقابل، في قريتي لا يهتم أحد بالأمبراطور، هناك ثقافة المحيط الذي عاش فيه أسلافي، ونحن لا نحتفل بعيد ميلاد الأمبراطور مثلما يفعل الناس في طوكيو وهم يلوحون بالرايات، وإنما هناك شخصية أخرى تدعى أكوفوكو عندنا، عاش قبل عهد الميجي بزمان طويل، وقاد انتفاضة للفلاحين، وأعتقد أنه من أسلافي الأقدمين، فنحن لا نزال نحيي ذكراه عند ضريحه».

ولكن بأي معنى استقرت مأساة هيروشيما بهذا العمق في حياة أوي حتى يحسبها من يقرأ أدبه جزءاً من سيرته الشخصية؟

يقول أوي إنه لم يعلم بنبأ القصف على الفور، رغم أن قريته لا تبعد كثيراً عن المدينة المنكوبة، «لكن الآخرين عرفوا، وخاصة شقيقتي التي كانت تحب النباتات كثيراً، وكانت قد ذهبت لقطف الزهور في الجبل، ورأت على إحدى القمم بريق القنبلة، فوق هيروشيما. وهناك شهود آخرون من القرية، أما أنا فلم أع الحدث إلا فيما بعد، إثر ولادة طفلي الأول».

والروائي الياباني البارز يعرف كيف يمضي إلى قلب الأشياء، فرغم كل هذا العشق لليابان، أرضاً وسماء، وشعباً، كان هو الذي كتب نصاً شهيراً، في عام ١٩٦٥، بعنوان «حق القطيعة مع اليابان» شدد فيه على هذا الحق، الذي من خلاله وحده يجترح التواصل مع الانسان الياباني، وبمعنى ما مع الانسان في كل مكان.

فلنبدأ الرحلة، إذن، مع إبداع الكاتب، الذي وصف بأنه صوت اليابان الغاضب.

المترجم

مقدمة

التقيت كينزابورو أوي في ١٩٦٤ خلال حفل أقامه يوكيو ميشيما بمناسبة عيد الميلاد. كنت قد دعيت إلى الحفل حيث عكفت في ذلك الوقت على ترجمة أعمال ميشيما، أما أوي فقد دعي لأن ميشيما وجه الدعوة لكل من قدر له أن يحظى بالاهتمام خلال ذلك العام بدءاً من الملاكمين وانتهاء بملكات الجمال ولأن اعتداد أوي بنفسه وربما فضوله الريفي اجتذباه إلى الأضواء. رصدت مكانه على الفور، ورحت أرقبه بذهول؛ فقد كنت لتوي قد عثرت على روايته «مسألة شخصية» وبدت لي أكثر كتاب ياباني قرأته على الاطلاق تموجاً بالعاطفة وتدفقاً بالأصالة والطرافة والحزن. وقف أوي منتحياً بخير صديق له في الدنيا في تلك الأيام وهو القاص كوبو آبي، راح يتجرع الأقداح واحداً إثر الآخر، وقد بدا عليه عدم الارتياح. أدهشني مظهره، فقد كانت روايته «مسألة شخصية» شأن كل ما كتبه عملاً متدفقاً بالحياة، مندفعاً، تسوقه طاقة هائلة. أما المؤلف فكان رجلاً يشبه البومة أو الببغاء الأسترالية، يرتدي حلة قاتمة فضفاضة ويضع ربطة عنق هزيلة، بدا لي وهو جاثم في ركن القاعة بوجهه المستدير وكتفيه المتهدلين وبطنه المترهل مخلوقاً خنوعاً يحاكي حيوان الغرير الياباني.

قبل أن ينفضّ الحفل طلب مني أوي أن أعلمه «تبادل الحوار بالإنجليزية». كانت الدعوة قد وجهت إليه لشهود ندوة للكتّاب العالميين يشرف عليها دكتور هنري كيسنجر في جامعة هارفارد، وكان من المقرر أن يلقي خطاباً حول الذين قدرت لهم النجاة من قنبلة هيروشيما، وكان طبيعياً أن أوافق. هكذا أعتاد أوي طوال ثلاثة شهور أن يزورني في داري صباحاً عدة مرات كل أسبوع، فنعكف على الحديث بالإنجليزية حول كتب يختارها

بنفسه، وقد بدأنا بمجلد يضم مقالات لبولدوين، وانتقلنا إلى «مغامرات أوجي مارش» و«سكسوس». كان أوي يحظى بحصيلة وافرة من المفردات ويتمتع بموهبة فذة في إدراك المعنى الإنجليزي الخفي والظاهر، لكنه لم يكن قد تحدث قط مستخدماً الكلمات الإنجليزية التي يتفهمها أدق ما يكون الفهم، وما كان بمقدوره نطقها بشكل مفهوم، ولست أحسب أني قد ساعدته كثيراً، فحتى اليوم لايزال حديثة بالإنجليزية أبعد ما يكون عن إرضاء أسماع أولئك الذين تشكل الإنجليزية لغتهم الأم، لكنه علمني الكثير عن كيفية القراءة بلغتي، بل كان بمقدوره كذلك أن ينظم الشعر بها! كان شاعره الأثير في ذلك الوقت هو و. هـ. أودن، وأقسم أنه مضى بي في عباب عالم أودن إلى أغوار أعمق مما انطلق بي إليها أي مدرّس قابلته خلال مراحل دراستي، وفي بعض الأحيان كنت استشعر تهديداً ينبعث من قدرته الأعظم على خوض غمار ما نقرأ، فحاولت مجابهته بأشياء لم يحط بها علماً. وذات مرة ألقيت إليه بكتاب «أيها الأرنب انطلق!» بعد أن فرغت لتوي من مطالعته، فسألني عما إذا كنت قد ألقيت نظرة على قصائد أبدايك التي نظمها في كرة السلة ونشرت في صحيفة «ذا نيو يوركر» ولم يكن قد قدر لي أن أطالعها، وهكذا جلبها معه في لقائنا التالي، فقرأناها معاً.

عندما حان وقت سفره إلى هارفارد صحبته إلى المطار لأكون في وداعه، كان مضطرباً، وحينما مر عبر حواجز الجمارك وولج قاعة الانتظار الشبيهة بوعاء لتربية أسماك الزينة والتي لا رجوع عنها، اندفع إلى النافذة الزجاجية الموصدة التي تفصلنا وكتب مسرعاً سطراً في كراسة رفعها عالياً لأراها تتضمن الكلمات التالية: «جون، كم أنت سعيد الحظ لعدم اضطرارك للذهاب!» لم يكن الأمر راجعاً إلى أنه يغادر أرض الوطن؛ ففي عام ١٩٦٠ كان أصغر ياباني في وفد رسمي أرسل إلى بكين للقاء ماوتسي تونج وشو اين لاي، وفي العام التالي جاب أنحاء أوروبا، وقابل بطلاً آخر من أبطاله هو جان بول سارتر. لكن الأمر كان مختلفاً في هذه المرة، فقد كان في طريقه إلى أمريكا، أرض الرهبة الفريدة والجاذبية التي لا تقاوم، والتي كانت تتوهج في قلب خياله منذ صباه.

كان أول لقاء لأوي بأمريكا في خريف ١٩٤٥ حينما مضت سيارات الجيب التابعة لقوة الاحتلال إلى القرية الجبلية التي يقطنها. كان يتوقع، شأن الجميع في القرية، أن يبدأ الأمريكيون باغتصاب النساء وخصي الرجال، ثم وصلت سيارات الجيب، وكان ما وقع أمراً يتعذر تخيله حقاً، فبدلاً من إنزال الدمار بالقرية أمطرها جنود الاحتلال بقطع الحلوى والعلك والهليون المعلب، فتدافع الأطفال، ومعهم أوي، بالمناكب للظفر بالحلوى،

أحس بالارتياح والعرفان والغضب والهوان، وظلت هذه المشاعر الكامنة متشابكة في أعماقه، وكما قال لي بنفسه راحت تتحدى جهوده لتحليلها.

كان أوي في العاشرة من عمره في ذلك الوقت، وحدث لقاؤه الحاسم الثاني مع أمريكا عقب ذلك بنحو أربع أو خمس سنوات حينما قرأ للمرة الأولى ترجمة يابانية لرواية «هاكليبري فن» ويبدو أنه من غير المحتمل أن طالباً يابانياً لم يعرف إلا الامتداد المحدود والمحكوم للريف الياباني يمكن أن يؤثر فيه كثيراً الارتحال القدسي الذي قام به هاكليبري عبر المسيسبي الهائل، ومع ذلك فقد تأثر أوي إلى حد التوهج. كانت شجاعة هاكليبري الأخلاقية التي لا ترعوي هي التي أشعلت خياله. وبالنسبة لأوي كانت أهم لحظة في حوادث الكتاب هي لحظة اتخاذ هاكليبري لقراره المفعم بالعذاب بعدم إرسال رقعة إلى الآنسة واطسون يخبرها فيها بمكان جيم وليكن ما يكون، وقد أصبح هاكليبري فن بقراره وحزمه الباتر للابتعاد عن عصره ومجتمعه بل وإلهه نموذجاً لبطل أوي الوجودي. وفيما واصل أوي مطالعاته في الرواية الأمريكية وجد منابع للإلهام عند كتّاب آخرين، من بينهم فيليب روث، سول بيلو، كيرواك، هنري ميللر، وبصفة خاصة عند نورمان ميلر. لكن أساس إعجابه بهؤلاء الكتّاب كان تفهمه لابطالهم: بورتنوي، هولدن كولفيلد، دين مورارتي، وأوجي مارش وتجليات البطل النموذج عند ميلر من سيرجيوس أو شينسي في «حديقة الغزلان» إلى مصارع الثيران في «موعد أوانها» وصولاً إلى ميلر نفسه في «جيوش النيل» بحسبانها تجسيدات عصرية لها كليبري فن وقد بعث حياً. ويشترك أبطال الرواية الأمريكية الذين يهتم بهم أوي في أن تجربتهم مع «الحضارة» تملأهم بالاشمئزاز، وتدفعهم في غمار سعي للخلاص في شكل الحرية الشخصية التي تتجاوز تخوم الأمان والتقبل، إنهم أخوة لها كليبري فن، رجال لا خيار أمامهم إلا أن «يرحلوا متعجلين من أجل المجال».

ويساعد سخط أوي، الذي لا ينصبّ على الأمريكيين بقدر ما ينصب على أبناء جلدته، في ايضاح افتتانه بالأبطال الساخطين في الكتابات الأمريكية. في ١٥ أغسطس ١٩٤٥ أعلن الأمبراطور هيروهيتو في بيان بثته الإذاعة الاستسلام. وحرم أوي براءته، وكان حتى ذلك اليوم شأن كل الطلاب اليابانيين تغرس فيه تقوى الأمبراطور باعتباره إلهاً حياً، ومرة كل يوم يأتي عليه الدور ليستدعي أمام صفه ليطرح عليه هذا السؤال: وماذا تصنع إذا أمرك الأمبراطور بأن تموت؟ فيجيب أوي وركبتاه ترتعدان: «أموت يا سيدي، أبقر بطني، وأموت» وفي الليل على فراشه يعاني من شعور دفين بالذنب إذ يعلم، أو على الأقل

يشك بأنه ليس حريصاً حقاً على إفناء نفسه من أجل الأمبراطور، وحينما أصيب بالحمى تراءى له الأمبراطور في كابوس ليلي محلقاً عبر السماء، شأن طائر عملاق أشهب الريش، ثم انطلق صوت هيروهيتو عبر الأثير متحدثاً برنين بشري:

«تحلق الكبار حول أجهزة مذياعهم جالسين، انخرطوا في البكاء، تجمع الأطفال في الخارج بالطريق المترب، راحوا يتهامسون معربين عن دهشتهم، أدهشنا وصدمنا تماماً أن الأمبراطور تحدث بصوت بشري، بل كان بمقدور أحد أصدقائي أن يقلده بوضوح. تحلقنا حول هذا الصديق الذي كان في الثانية عشرة من عمره يرتدي سراويل قاتمة، وراح يتحدث بصوت الأمبراطور، انبعثنا ضاحكين، تردد صدى ضحكنا في هدأة الصبيحة الصيفية، تبدد نحو السماء الصافية السامقة. إن هي إلا لحظة حتى حطت الرهبة مقبلة من السماء، وأحكمت قبضتها علينا نحن الأطفال العاقين، تطلعنا أحدنا إلى الآخر صامتين... كيف يمكن أن نصدق أن حضوراً مرهوباً يحظى بقوة هائلة على هذا النحو قد أصبح كائناً بشرياً عادياً في يوم صيفي بعينه؟» (صورة جيل ما بعد الحرب).

في يوم واحد أعلنت الحقيقة التي لَقنها أوي، باعتبارها أكاذيب. انتابه الغضب، أحس بالهوان، أنصب غضبه على نفسه، لأنه صدّق وعانى، وعلى الكبار الذين خانوه، لكن غضبه في الأعماق، كان مصدراً للطاقة التي استمدها في أول الأمر حينما أصبح كاتباً.

التحق أوي في ١٩٥٤ بجامعة طوكيو، وغادر جزيرة شيكوكو للمرة الأولى ليمضي إلى المدينة الكبيرة، سجل نفسه في قسم الأدب الفرنسي وهو الدراسة التي يطرق سبيلها الطلاب الجادّون في طوكيو، حيث ساد الاعتقاد بأن الكتابات الأمريكية أدنى قيمة، وغرق في دراسة باسكال، كامو، وسارتر، الذين كانوا موضوع أطروحة تخرجه كان طالباً لامعاً لكنه كان منغلقاً على نفسه، فقد كان انطوائياً بطبيعته، يمضي وحيداً دائماً، ولانه كان يخجل من لهجته الإقليمية فقد انعكس ذلك فأفأة في حديثه. كان يقطن في دار تؤجر حجراتها للطلاب قرب الحرم الجامعي، وهنالك عكف ليلاً مبتلعاً المهدئات بالويسكي على البدء بكتابة القصص التي قدر لها أن تدعم مكانته خلال ستة شهور باعتباره لسان حال جيل بأسره من الشباب الياباني توحّد أوي مع أحزانه. ظهرت قصته الأولى المطبوعة الموسومة «وظيفة غريبة» في عدد مايو ١٩٥٧ من مجلة «الجامعة» الأدبية ودارت حول طالب جامعي حائر حصل على وظيفة لبعض الوقت تقتضيه القيام بذبح الكلاب لاستخدامها في التجارب المعملية:

«كانت هناك أنواع الكلاب جميعها على وجه التقريب، مع ذلك فقد بدت متشابهة بشكل ما، أكلُّها مهجنة وجميعها جلد على عظم؟ أم هي الطريقة التي تقف بها هنالك مشدودة الوثاق إلى الأوتاد وقد تبدد عداؤها تماماً؟ لا بد أن الأمر كذلك. ومنذا الذي يستطيع القول بأن الأمر ذاته لن يحدث لنا؟ نوثق معاً عاجزين وقد بدونا متماثلين وتبدد عداؤنا ومعه فرديتنا. . . نحن الطلاب اليابانيين الضائعين. لكني لم أكن مهتماً كثيراً بالسياسة، لم أكن أهتم كثيراً بأي شيء، كنت أصغر كثيراً وأشد تقدماً في العمر من أن أندمج في أي شيء، كنت في العشرين من عمري، وهو عمر غريب، نال مني التعب، ففقدت اهتمامي بزمرة الكلاب تلك بدورها. . .».

طرد أبطال أوي الأوائل من رحاب يقين الطفولة إلى عالم لا يربطه شيء بماضيهم. تبددت القيم التي كانت تنظم الحياة حينما شبّوا عن الطوق، فغدت شظايا مع هيروشيما ونجازاكي، وما يواجههم الآن، عالم ما بعد الحرب، هو خواء يفغر شدقيه، وهن، صمت رهيب شأن الأزل الذي يعقب الموت. وهم يدركون نتائج الخضوع للحياة في مثل هذا العالم، والأحجية التي يتعين عليهم كشف النقاب عنها ليواصلوا الحياة وليكتشفوا الحرية لأنفسهم هي كيف يحتفظون بعدائهم في مواجهة الحيرة وفي الأخير أمام اللامبالاة. يبدو الارهاب احتمالاً مفهوماً، وتراود أبطال أوي أحلام حول قذف القنابل اليدوية على سيارة الأمبراطور الفارهة أو القتال إلى جوار عبد الناصر، أو الانضمام إلى الفرقة الأجنبية التابعة للجيش الفرنسي. لكن رؤى خيالية حركية كهذه هي أكثر بعداً مما يكن أن تطاله أيديهم. ويشكل الجنس الغارق في العنف ميداناً للقتال أيسر منالاً، الجنس المناهض للروح الاجتماعية، وهو ما أسماه أحد شخوص أوي: «نيل سريع للأنثى يجلله العار». إن عاجلاً أو آجلاً يكتشف أبطال أوي أن المجال الوحيد الذي يمكنهم بلوغه فيما وراء خواء الحياة اليومية هو ما يظنه المجتمع «انحرافاً جنسياً». لنتأمل حالة ج. في رواية أوي الصادرة عام ١٩٦٣ بعنوان «الشاذ» و. ج. هنا هو فتى عابث انجرفت زوجته الأولى إلى الانتحار من جراء تلاعباته بالجنسية المثلية، يصبح ما يسميه اليابانيون بـ«منحرف قطارات الأنفاق» محققاً استحضار النشوة الجنسية إلى حد القذف عن طريق الاحتكاك بمؤخرات النسوة في القطارات ساعة بلوغ الازدحام قمته، وهو يمثل بالنسبة لنفسه الخطر الذي يستدعيه كنوع من التوبة، وفي الحقيقة فإنه شأن جميع أبطال أوي الأوائل يؤكد نفسه مندفعاً في غمار البحث عن هويته في مواجهة أمان عالمه. وربما كان ج. أكثر أبطال أوي شجاعة وواحداً من القلة المحدودة للغاية التي كللت بالنجاح من منظور الشروط التي

يضعها لنفسه. وفي نهاية الرواية يزوروقد استبد به الخوف والوحدة أباه رجل الصناعات الكبير، ويطلب منه أن يرده إلى صفوف العائلة، فيوافق الأب سعيداً، ويعده بوظيفة مرموقة، ويغادر ج. المكتب معتزماً العودة إلى دار أبيه. حينما يوشك على ركوب سيارته الجاجوار يجد نفسه وقد تحرك باتجاه الأنفاق، تتسارع خطاه، يهرع هابطاً الدرج، يلقي بنفسه في أحد القطارات، ويستحضر النشوة حتى القذف محتكاً بعجز طالبة بمدرسة ثانوية، ولا تعود إليه حواسه إلا ورجل شرطة يقوده مبتعداً عن النفق فيما تسيل على خديه «دموع الفرحة...».

في عام ١٩٦٤ ولد لأوي، الذي بلغ آنذاك عامه التاسع والعشرين، طفله الأول مصاباً بتشوه في المخ، وقدر للطفل الذي أسماه، «بوه» أن يغير حياة أبيه بالقوة التي يولدها انفجار شمسي. ولن أمضي قدماً لوصف علاقة أوي بالطفل، فقد قام هو بذلك على نحو فذ في قصة تضمها هذه المجموعة هي «علمنا أن نتجاوز جنوننا!» لنكتف بالقول إنه مع مرور الأعوام ونموّ الطفل نما قيد وحشي خانق وعازل بين الأب والأبن على نحو محموم ومؤلم، أصبح كل من أوي والطفل الهش المتوحد الشخص الأثير عند الآخر، عانق كل منهما الآخر كما لو كان يعانق قدره. وبعد وقت قصير من مولد الطفل أمر أوي ببناء قبرين حجريين جنباً إلى جنب في مقبرة القرية التي ولد بها، كان قد قال لي مرات عديدة إنه سيموت حينما يلفظ الطفل أنفاسه الأخيرة.

تمثّل إدراك أوي لقوة الطفل التدميرية، وهو الرمز الذي طرح نفسه على الكاتب باديء ذي بدء، في الانفجار النووي. وقد كتب في العام الذي شهد مولد الطفل كتابين في وقت واحد، وطلب من ناشره إصدارهما في يوم واحد. كان الأول هو رواية «مسألة شخصية» التي كانت الرواية الأولى في سلسلة من الروايات شخصيتها الرئيسية أ ب في مقتبل العمر لطفل مختلّ المخ. أما الكتاب الثاني فيضم مجموعة مقالات تدور حول الذين قدرت لهم النجاة من هيروشيما ومواصلة الحياة تحت عنوان «مذكرات هيروشيما» كان أوي يطالب بالطبع بأن يبحث القاريء أمر الكتابين معاً، في أحدهما دوّن مذكرات النجاة من قنبلة نووية فعلية، وفي الآخر سعى إلى الوصول لوسائل النجاة من حملة دمار شخصية.

يمكن بالفعل تتبع قبضة الطفل وهي تمارس حركة المد والجزر على خيال أوي في «مسألة شخصية». فالبطل «بيرد» وهو مثقف محاصر يعاني من زواج فاشل، يحلم بالانطلاق

بعيداً إلى أفريقيا من أجل «اطلالة تتجاوز أفق الحياة اليومية الخامدة والمحبطة على نحو مزمن» ليس ثمة ما هو جديد في هذا الحلم الغارق في الخيال، ومن الجلي أن «بيرد» منحدر من صلب بطل أوي النموذجي. لكن زوجة «بيرد» تضع طفلاً «أجوف الرأس»، «طفلاً مسخاً» يهدد بالقضاء على حلمه، فيرتب الأمر مع طبيب المستشفى لإضافة الماء إلى لبن الطفل، وفيما ينتظر موته ينشد ملاذاً مع «امرأة مغامرة جنسياً» تشجعه على استرداد حريته، لكن الطفل ينتعش بفضل طعامه القاتل، ويغدو واضحاً أن «بيرد» سيتعين عليه الإقدام على هجوم أكثر مباشرة على حياة الطفل، فيعقد العزم على القيام بذلك بمساعدة خليلته، فيحملان الطفل معاً من المستشفى ويمضيان به إلى طبيب سيّء الصيت يضمن لهما أن الطفل سرعان ما يلقى حتفه، وبتنحية الطفل من سبيلهما يعتزمان مغادرة البلاد معاً إلى أفريقيا. فجأة يدرك «بيرد» وعلى نحو غير مقنع تماماً أن عليه أن يكف عن «الهرب من مسئوليته» فيهجر خليلته المتشنجة في أحد المشارب عائداً إلى الطبيب محترف الإجهاض، فيحمل الطفل ويعيده إلى المستشفى بعد عدة شهور. وفي الصفحتين اللتين تنهيان الرواية، يخرج «بيرد» من المستشفى مع أسرته التي التف أعضاؤها حوله والطفل بين ذراعيه، يمضون إلى الدار، فيكون أول ما يفعله «بيرد» حينما يصلون إلى هناك أن يراجع مادة «التحمل» في معجم نقشت عليه كلمة «الأمل».

يعد «بيرد» أول بطل من أبطال أوي يهجر الحلم الخيالي الجوهري في حياته، وأول من يقبل، لأنه لا خيار أمامه، التحمل الكابي بديلاً عن الأمل، وحتى مجيء طفله الأول كان السعي وراء اكتشاف الذات بحمل أبطاله فيما وراء تخوم المجتمع إلى برية ترفع راية العصيان في مواجهة القانون. وبدءاً من «بيرد» ينأى هؤلاء الأبطال عن فتنة الخطر والمغامرة ويسعون بالمقابل وبالحدة ذاتها للوصول إلى اليقين والسكينة اللذين يتخيلون أنهم عرفوهما قبل أن يتعرضوا للخيانة مع نهاية الحرب. بدا كما لو أن أوي لم يعد لديه الحنان للانطلاق سريعاً بحثاً عن المجال، فذلك مستحيل مع وجود الطفل الأعزل الذي أصبح جزءاً منه. وبدءاً برواية «مسألة شخصية» اجتذب أوي على نحو متزايد إلى أسطورة «الأيام السعيدة» التي سبقت ذلك اليوم من أيام أغسطس ١٩٤٥ حينما تخلى هيروهيتو عن ألوهيته فانتهت البراءة على نحو بالغ الغلظة.

يقيناً أن التوق إلى وطن أسطوري كان كامناً دوماً عند أوي. ومن المحتمل أنه قد نشأ عنده جنباً إلى جنب مع الغضب حتى في غمار سماعه للأمبراطور يتحدث بصوت بشري. ويمكن بالقطع تلمسه في واحدة من قصصه الأولى وأكثرها جمالاً هي «الجزاء»

فالقرية الجبلية التي يحتجز فيها جندي أمريكي أسود أسيراً ليست موجودة في أي مكان من اليابان الواقعية؛ إذ بدلاً من المسطحات الجبلية المستزرعة هناك «حقول» وبدلاً من الخنازير والأبقار هناك «كلاب جبلية برية» وبدلاً من رائحة الروث والسماد البشري التي تحوم في هواء القرى جميعاً في اليابان نحن بإزاء عرف أوراق أشجار التوت العتيقة والقمح وأشجار المشمش، والرجل الوحيد من القرية الذي يصادفنا ليس مزارعاً وإنما هو صياد، والكلمة التي يستخدمها أوي للإشارة إلى عمدة القرية هي كلمة عتيقة تعني زعيم القبيلة، لكن أقوى دليل على أن أوي يقدم أسطورة لا واقعاً هو المشهد القريب من نهاية القصة قبل أن يتعرض الطفل الراوية للخيانة على يد الجندي الأسود حينما يقتاده أطفال القرية من يده إلى النبع الذي يستخدمونه كمسبح بدائي:

«كان الجندي الأسود بالنسبة لنا حيواناً مستأنساً عجيباً ونادراً، حيواناً عبقرياً».

«ترى كيف أستطيع وصف مدى حبنا له أو الشمس الوهاجة فوق جلدنا الغليظ المبتل في ذلك الأصيل الصيفي النائي الرائع، الظلال العميقة المرتمية على الأحجار، رائحة الأطفال والجندي الأسود، الأصوات التي حشرجها الفرح... كيف يمكنني أن أنقل زخم وإيقاع الأمر كله؟ بدا لنا أن الصيف الذي انحسر عن تلك العضلات المتألقة، الصيف الذي انبجس فجأة ودونما توقع شأن بئر نفط متمخضاً عن السعادة ومغرقاً إيانا في نفط أسود ثقيل سيستمر للأبد ولن ينتهي قط».

إن النشوة التي ضمخت هذه اللحظة، «زخمها وإيقاعها» هي النشوة المنبعثة من طقس يؤدى، والطقس هو المادة التي تتألف منها الأسطورة. هنا وللمرة الأولى والوحيدة في السرد يتعين على الراوية أن يخطو خارجاً عن الإطار الزمني الذي تقع فيه أحداث القصة وأن يعود بذاكرته إلى الوراء في محاولة لنقل اللحظة لنا، ذلك لأن الأسطورة لا توجد إلا في الذاكرة، في الزمن «البدائي» السحيق السابق للتاريخ ولا تمكن معايشتها أبداً.

في السنوات الأخيرة تضخمت هذه القرية الجبلية الأسطورية بصورة أكبر في خيال أوي فغدت مقاطعة «يوكنا باباوفا» وهي مكان يجتذب إليه أبطال أوي على نحو لا سبيل إلى اجتنابه بحثاً عن ذواتهم. في رواية أوي الأولى الطويلة عقب «مسألة شخصية» وهي «مباراة كرة قدم في العام ١٨٦٠» والتي ترجمت إلى الإنجليزية تحت عنوان «الصرخة الصامتة» يغادر الوالد الشاب لطفل معوق ذهنياً داره في طوكيو، ويعود إلى القرية التي

شهدت طفولته على أمل اكتشاف «حياة جديدة». وفي طريقه إلى القرية ماراً بالغابة يتوقف برهة عند النبع الجبلي ذاته الذي كان مصدر القداسة النائية في «الجزاء»:

«حينما انحنيت لأرتوي من ماء النبع تملكني شعور اليقين. كان النور لا يزال يضيء سطح الماء كأنما أستقر ضياء النهار الغارب هنالك فحسب، أحسست على وجه اليقين أنني قد رأيت قبل عقدين من الزمان كل حجر من الأحجار المزرقة والقرمزية والبيضاء المستقرة على القاع البراق، الرمل البديع ذاته المترامي في الماء يضببه هوناً، التموج الواهن على السطح، كل شيء، حتى دفق الماء الذي لا يتوقف كان هو ذاته الماء الذي تدفق في النبع في ذلك العهد، كان الإحساس ممتلئاً بالغموض، لكنه كان مقنعاً تماماً بالنسبة لي، أفرز في أعماقي شعوراً آخر بأن الشخص المنحني فوق النبع الآن لم يكن الطفل الذي جثا ذات يوم هنا على ركبتيه العاريتين وأن ليس ثمة استمرارية بين الذاتين وأن الذات الماثلة هنالك الآن غريبة عن ذاتي الحقة، ها هنا في الحاضر فقدت هويتي الحقيقية، وما من شيء في أعماقي أو في الخارج يدلني على طريق استردادها».

إن اليقين الذي يتملك المتحدث هو قاسم مشترك بين أبطال أوي جميعاً في المرحلة الأخيرة، ولكن اليقين لا يستبد طاغياً بأحدهم على نحو ما يفعل بالراوية في «يوم يكفكف دمعي بنفسه» وهي أطول قصة في هذه المجموعة حيث يشعر بأن الخلاص يتعين اكتشافه في صياغة أسطورية لماضيه. ويعد هذا العمل أصعب أعمال أوي حتى اليوم وأكثرها إثارة للاضطراب. يرقد الراوية في فراش بأحد المستشفيات منتظراً بلهفة أن يلقى حتفه جراء إصابة بسرطان الكبد ربما كانت من صنع خياله، يضع على عينيه نظارة مما يستخدم للوقاية تحت الماء يغطيها شريط لدائني رقيق قاتم يحول دون رؤيته للكثير، لكن ذلك لا يعنيه، ذلك أنه «كف عن الوجود في الحاضر» ويصر على أن هذه الأيام هي أيامه الأخيرة، ويتوجه وعيه كله لبعث لحظة في ماضيه قبل انتهاء الحرب مباشرة حينما صحب أباه الذي أدركه الجنون في مهمة انتحارية قصد بها إنقاذ اليابان من الهزيمة، في ١٥ أغسطس ١٩٤٥ «ذلك اليوم المثقل بالرموز في صدر حياة أوي» قاد أبوه مجموعة من الجنود الذين تركوا صفوف الجيش تاركين القرية الجبلية إلى «المدينة الكبرى في المقاطعة» التي ستغدو ساحة انتفاضتهم، وفي طريقهم إلى الممر المؤدي من الوادي إلى العالم «الحقيقي» ينشدون بالألمانية قرار أقصوصة غنائية لباخ حفظوها من حاك في الليلة الماضية «سيكفكف دمعي بنفسه» وحين يتساءل الراوية عن معنى الكلمات يوضح أبوه أن كلمة «هيلاند» التي تعني «المخلص» بالألمانية تشير إلى «سمو الأمبراطور»:

«كلمة» ترانين تعني «دمع» و «تود» تعني «يموت»، إنها كلمات ألمانية، سمو الأمبراطور يكفكف دمعي بيده، ألا أقبل أيها الموت! أنت يا أخا النعاس الشافي هلّم! فسمو الأمبراطور سيكفكف دمعي بيده، إنا لننتظر تواقين أن يكفكف سموه دمعنا».

هذا التشويه الأول من سلسلة من التشويهات العبثية يتم التصدي له، ذلك أن المتمردين يعتزمون التضحية بأنفسهم باسم الأمبراطور ويعتقدون،وأشدهم ايغالاً في ذلك وعلى نحو محموم الصبي الصغير الذي يرافقهم، أن الأمبراطور هو إله حي ولن يتقبل تضحيتهم فحسب وإنما سيضفي القداسة عليها، ويقع تتويج الحدث الذي يعيش في خيال الراوية باعتباره اللحظة الوحيدة الشامخة في حياته، حين يعرف على وجه الدقة من هو وما الذي يقبل عليه، عندما تطلق النار على أبيه «النكرة» ويتم الكشف على نحو صوفي غامض عن مؤشر يدل على أن موته قد مُجِّد حقاً وأضفيت عليه القداسة.

«كشف «النكرة» في لحظة موته قافزاً وراء قيوده كفرد عن أقحوانة ذهبية تمتد عبر ٦٧٥,٠٠٠ كيلومتر مربع يحيطها ويعلوها، أجل، فجر أرجواني يشمخ في السماء حتى ليغطي تماماً جزر اليابان، ولأن الجانب الآخر، أي الجيش المهاجم، فتح النار أولاً على شاحنتهم،فقد تعرض الجنود إلى جوار الصبي لمذبحة على الفور، وقدر له وحده أن ينجو منها. كان «النكرة» قد طلب ذلك من الآلهة في الأعالي إذ كان من الضروري أن يشاهد شخص، شخص مختار، الأقحوانة الذهبية وهي تغطي صفحة السماء ببريقها لحظة موته، والحق أن الصبي شاهد التجلي سامقاً في السماء دون أن يجلب النور مثلما تفعل سحابة وإنما مضفياً المزيد من الألق على وهج الشمس البراق في السماء الصيفية الزرقاء، الذي تكشف عن الأقحوانة الذهبية وخلفها النور الأرجواني، حينما أزال نور الزهرة وهج أيامه السعيدة».

إن النثر المقيت هنا هو في جانب منه محاكاة ساخرة، فقد كتب أوي هذا النص في ١٩٧٢ في ظل انتحار يوكيو ميشيما بطريقة الهاراكيري، وهو على مستوى من مستوياته محاكاة ساخرة مفعمة بالغضب لميشيما، تجسيد ضارٍ للتمرد المصغر الذي مكن ميشيما من أن «يبقر بطنه ويلقى حتفه» لكن هنالك في هذا ما يتجاوز الغضب، فهنالك أيضاً الحنين الذي لا يختلف كثيراً في ماهيته عن حنين ميشيما، إلى اليقين العذب النابع من إيمان بلا جدال بإله. وفيما يقوم الراوية بإعادة بناء صرح تفاصيل أيامه السعيدة فإنه يجابه بشهادة أخرى أكثر موضوعية من الشهادة التي أدلى بها تجبره في النهاية على الإقرار بأن طرحه

زائف تماماً. لكن ذلك لا يثبط همته؛ إذ أنه لم يكن يعيش تاريخاً من جديد وإنما يبعث أسطورة انتماء متألقة... أسطورة الهوية ذاتها، ولأنه يعرف، في غمار ما قد يكون أو لا يكون جنونه، أن السرطان سرعان ما يضعه بعيداً عن مطال الزمن ملتهماً «الطبقات التي لا جدوى منها للجسد والروح والتي حجبت جوهره الحق منذ ذلك اليوم من أيام أغسطس عام ١٩٤٥» يهمس «بصوت يخترق المسافة كلها من قرارة جسده إلى روحه، الآن إذن، هوذا أنت، ما من حاجة كانت تدعوك إلى أن تصبح أي شيء آخر غير هذا، دعنا نغني أغنية مرحة مرة أخرى، الأيام السعيدة أقبلت من جديد».

إن ما تنقله رواية «يوم يكفكف دمعي بنفسه» لنا من جوهر أوي يفوق ما ينقله أي عمل آخر سطرته أصابعه، وتتمثل القوة المذهلة لهذا العمل في الطاقة التي تنتقل قوساً كهربائياً بين قطبي الغضب والحنين اللذين يشكلان التناقض المحوري في رؤيته، وتعكس خصوصية العمل الهائلة ـ وهي ما جعل من المتعذر على الكثيرين من القراء اليابانيين متابعته والانتهاء من قراءته ـ تعكس الخصوصية الوحشية التي عزلت أوي وولده بصورة متزايدة عن العالم الخارجي، فقد أصبح أوي شأن راويته العاكف على بعث لحظة في الماضي لا توجد إلا في خياله، عاملاً في منجم يحفر هابطاً مباشرة إلى الألم الكامن في قلب عالمه الخاص. ومن شأن هذا في حالة كاتب أقل اقتداراً من أوي أن يشكل محدودية قاتلة، لكن أوي يملك القدرة على جعلنا نستشعر ألمه. وقد لا تكون الحياة على نحو ما نعرفها مكفهرة كما يراها، لكن التشوش والغضب وأخيراً الجنون الماثل دائماً أمام عينيه ـ كل ذلك يتربص بنا جميعاً ولا ينأى عن تجربتنا بحيث نعجز عن رؤيته وإدراكه.

جون ناثان

علِّمنا أن نتجاوز جنوننا!

في شتاء عام ـ ١٩٦ أوشك رجل بدين بصورة غريبة على أن يُلقى به إلى دب قطبي يسبح في مسبح قذر أسفله، وعاش تجربة الدنو من حافة الجنون؛ وكنتيجة لهذا تحرر من أغلال هاجس قديم، ولكن في اللحظة التي ألفى نفسه فيها حراً إصّاعدت في أعماقه وحدة بائسة جعلت روحه الهضيمة تذوي. عندئذ عقد العزم دونما سبب منطقي (استسلم لنوبات من الهياج المفاجىء) على أن يتخلص من قيد ثقيل آخر، إذ أقسم أن يحرر نفسه كلية ولتنقلب السماء على الأرض إذا ما اقتضى الأمر ذلك. وعندما أقسم قسمه هذا، وأغتلت شجاعة لا ترعوي في بدنه الذي كان لا يزال محر شفا وتفوح منه رائحة أسماك السردين العفنة من رذاذ الحجر الذي ألقي في المسبح أخيراً بداره، اتصل هاتفياً بأمه في منتصف الليل، وقال لها:

ـ أعيدي إليّ المخطوط الذي سرقته مني، فقد ضقت ذرعاً، أتسمعين! لقد عرفت كل ما أنت عاكفة عليه!

كان يعرف أن أمه واقفة عند الطرف الآخر من الخط على بعد ثمانمائة ميل، ممسكة في يدها بالسماعة العتيقة الطراز. بل لقد استنتج، بشكل غير علمي، أنه كان يستطيع أن يسمع همس تنفُسِ عند الهاتف الآخر بوضوح كسماعه لصوت تنفسه؛ إذ ليس ثمة أحد قريب من الدوائر بسبب تأخر الوقت، وحيث أن ذلك بالصدفة هو تنفس أمه فقد انقبض صدره. والحق أن ما كان يسمعه عبر السماعة التي ألصقها بأذنه هو صوت تنفسه بالذات.

وصاح بغضب متفاقم بعد أن أدرك خطأه الصغير:

ـ إذا لم تعيدي إليّ ما هو ملكي فليكن ما يكون! سأكتب سيرة حياة أخرى لأبي تكشف

المزيد من الأسرار، سأحكي للعالم كله كيف أن الرجل أصابه مس من جنون، فاعتكف طوال تلك السنين لا يبرح مكانه، ثم أطلق حشرجة ذات يوم ومات حيث جلس في مقعده. إن بمقدورك التدخل حسبما تشائين. فلن يكون ذلك لصالحك!

توقف من جديد، أصغى للاستجابة عند الطرف الآخر حريصاً هذه المرة على أن يغطي الهاتف بيده الغليظة. وعندما سمع السماعة توضع في مكانها بهدوء، ثم بمزيد من تحجر الفؤاد، علاه الشحوب مثل فتاة يافعة. وعاد مرتعشاً إلى فراشه، فالتفّ حول نفسه كالكرة، ساحباً الأغطية فوق رأسه رغم رائحة المسبح المقيتة التي جعلته يتقيأ. وانتحب غاضباً، لم يكن الأمر راجعاً إلى أمه فحسب، فقد أرعبته الوحدة النابعة من الحرية التي أحرزها في حديقة الحيوان هذا الصباح. هكذا انخرط في البكاء في الظلمة التي تزكم رائحتها الأنوف تحت الأغطية حيث يمكنه التيقن من أن أحداً لا يرقبه. وكان شعوره بالحنق والرعب والعزلة الطاغية هو الذي جعله ينخرط في البكاء، كما لو كان الدب القطبي المنغمس حتى كتفيه في ماء ثلجي عكر قد أمسك برأسه الضخم في مخالبه التي تجمد الدم في العروق. ولم ينقض وقت طويل إلا وقد بللت دموعه أغطية الفراش فيما حوله، من ثم تقلب مبتعداً، تكور حول نفسه مجدداً، وأصل النحيب. كان بمقدوره الاستمتاع بهذه الحرية الخاصة، المحدودة، ورغم ذلك لا يمكن التهوين من شأنها، لأنه كان طوال سنوات عديدة يرقد وحيداً في فراش مزدوج كانت زوجته تشاركه إياه يوماً.

فيما كان ينتحب حتى الرحيل إلى رحاب النعاس في تلك الليلة، عكفت أمه في القرية التي شهدت مولده على شحذ أسلحتها استعداداً للمعركة النهائية ضده. هكذا فلم يكن ثمة ما يدعوه للبكاء، على الأقل فيما يتعلق بشعوره بالإحباط النابع من تجاهل تحدّيه مرة أخرى. وخلال طفولته وحينما كان يشرع في سؤالها عن عزلة أبيه التي فرضها على نفسه وموته المفاجىء، كانت توصد سبيل الاتصال بينهما بالتظاهر بأنها قد جنّت. وبلغ الأمر الحد الذي كان يتظاهر معه بدوره بأنه قد جن قبل أن تتاح لأمه الفرصة، فيحطم كل ما تصل إليه يداه بل ويترنح متهاوياً عبر الحائط الحجري عند حافة الحديقة إلى المنحدر المغطى بالأغصان. ولكن حتى في أوقات كهذه كان شعوره بالفوز هزيلاً ومحبطاً بالأساس، فلم يحدث قط أن أفلح في التواصل معها. منذ ذلك الحين وطوال ما يقرب من عقدين من الزمان فرض توتر المواجهة بين مسلحين في مشهد من مشاهد الأفلام نفسه بينهما ـ من الذي سيسبق في إدعاء الجنون ومن ثم يحظى بفوز غيبي؟

لكن الموقف شرع في التبدل في وقت متأخر من تلك الليلة. في صباح اليوم التالي

ذاته مضت أم البدين، وقد عقدت العزم على فرض ضوابط جديدة للصراع، ببيان وضعت مسودته خلال الليل إلى الطابع في المدينة المجاورة. أرسلته بالبريد، بالبريد المسجل إلى أخوة البدين، وأخواته؛ وأزواج إخواته، وزوجات أخوته، وأقارب العائلة كافة. كان نص البيان الذي وصل موصى عليه إلى زوجة البدين، والذي أشير عليه بكلمة «شخصي» بالحبر الأحمر وإن كانت طبيعيّة قد أرغمتها على إطلاع زوجها عليه، كالتالي:

«إن عاهرنا المغناج قد فقد عقله، لكنه ينبغي أن يكون معلوماً أن جنونه ليس وراثياً يؤلمني أن أخطركم بأنه خلال وجوده بالخارج نالته عدوى القرحة التناسلية الصينية والمأمول لتجنب العدوى أنكم ستمتنعون عن أي اتصال به.

التوقيع

شتاء - ١٩٦

ولكن ما أشد كآبة الحديقة

حينما ترمق من مرحاض ملجأ الأيتام

في الرابعة والثلاثين من العمر!

أوشيدا هايكين

لسوء الحظ أن مغزى هذا النص كان أوضح ما يكون بالنسبة لعضو العائلة الوحيد الذي يعتمد على اللغة في كسب عيشه، أي البدين نفسه. فقد حاولت بتوريتها التي تدور حول عمره (إذ كان في الرابعة والثلاثين) أن تجلب له الشعور بالعار، بل لقد حاولت بإضافة المقطع الشعري حول مرحاض ملجأ الأيتام (لم يكن على يقين من أن هذا المقطع كان حقاً للشاعر هايكين) أن تلمّح إلى أنه لم يكن ابناً حقيقياً لها. كان البيان نتاجاً للمقت القاهر الذي تستشعره واضعته، مقت يثير الضيق، لم يكن هناك في العائلة من هو مؤهل على نحو مناسب للإحساس به أكثر من البدين نفسه. ثمة شيء واحد مؤكد، فليست رابطة الدم التي تربطهما موضع شك، فشأن البدين نفسه وكذلك ابنه كانت أمه أكثر بدانة من أن توصف بالترهل فحسب. كان البدين على يقين من أن زوجته لن تشك في أنه يحمل مرضاً جلبه للدار من الغرب، ورغم ذلك وحينما تأمل حقيقة أن الطابع قد طالع البيان وعندما صوره لنفسه يسلم لأصدقائه وأقاربه غرق في كآبة رهيبة. تمثل تأثير هذه الكآبة في أن فرضت عليه أهمية قيد الكوابح الثقيل الذي (هكذا كان يعتقد) وحده من قبل مع ابنه، ليس

للطفل على وجه الاحتمال وإنما بالنسبة له ولحالته على وجه القطع. كانت المشكلة أنه منذ تجربته المعذبة في حديقة الحيوان أصبح يتشكك في وجود هذه الكوابح ذاتـه، بل ويشك في أن رغبته في خلق هذه الكوابح والإبقاء عليها قد مضت به إلى نوبات من خداع الذات. فضلاً عن ذلك فإن حريته بدت حينما أحرزها مثل شريط دبق لا يمكن إبعاده عن يده أو قلبه.

لم يستطع العودة إلى ما كانه. فحتى ذلك اليوم الذي بدا فيه أن سيُلقى به إلى الدب القطبي فغدا على حافة الجنون كان قد دأب على التجوال والتمدد على الأرض وتناول وجباته جميعاً مع ابنه دون أن يسمح لشيء بأن يفصلهما أحدهما عن الآخر. أتاح له ذلك شعوراً مجسداً بالطفل بحسبانه قيداً ثقيلاً مضجراً دهم حياته اليومية رغم أنه أضفى عليها نظاماً. والحق أنه تمتع بالتفكير في نفسه باعتباره ضحية سلبية تحتمل في هدوء وقر قيد فرضه ابنه.

كان البدين دوماً يحب الأطفال، فنال من الجامعة ثلاثة أنواع من الشهادات التي تتيح له التدريس. ومع اقتراب موعد مولد طفله ما كان بوسعه أن يجلس في موضعه هادئاً إزاء موجات القلق والترقب التي سرت متدفقة في بدنه. فيما بعد وحينما تأمل الماضي راوده شعور بأنه كان يعتمد على مولد طفله باعتباره خطوة أولى نحو حياة جديدة لنفسه بعيداً عن ظل أبيه الراحل. ولكن حينما حلت اللحظة أخيراً وشرع بعصبية، وقد كان نحيلاً على نحو مؤلم في تلك الأيام، يسائل الطبيب الذي خرج من غرفة التوليد، قيل له بصوت متزن إن طفله قد ولد بعيب خلقي خطير.

ـ حتى إذا أجرينا له جراحة فإنني أخشى أن يموت أو أن يغدو أبله، إما هذا أو ذاك.

في هذه اللحظة تحطم شيء ما بداخله على نحو لا يمكن إصلاحه. وسرعان ما شق الوليد الذي يتعين إما أن يموت أو أن يغدو أبله طريقه وسط الحطام مثلما يلحق السرطان الدمار بالخلايا العادية ثم يحل محلها. وفي غمار اندفاع البدين للإعداد للجراحة على نحو مضطرب في تلك الأيام، وكان جسده لا يزال ناحلاً، كان يمكن أن يكون التحطم مصيره. كان نظامه العصبي يشبه عماء من الألم والحساسية البالغة، جرحاً ملتهباً شرع في البرء ولكن في مواضع محدودة، وكان يمس في خوف مواضع في ذاته فلا يستشعر ألماً على الإطلاق. وبعد لحظة، حينما يكون الارتياح قد خفف حذره، يندلع ألم حارق فيجعله يهذي.

حل الموعد النهائي لتسجيل الطفل في مكتب الرعاية، ولكن إلى اللحظة التي سألته فيها الفتاة الجالسة إلى المكتب عما سيكون اسم الوليد لم يكن قد فكر في اسم يدعو به ولده. في ذلك الوقت كانت العملية الجراحية تمضي قدماً وولده في غمار عملية تبين ما إذا كان سيلقى حتفه أو يغدو أبله. إما هذا أو ذاك: ترى هل يمكن إطلاق اسم على مثل هذا الوجود؟

رغم ذلك أمسك البدين (ليقال هنا من جديد أنه في ذلك الوقت كان مجهداً وأكثر نحافة من أي وقت مضى) بوثيقة التسجيل، استعاد في ذهنه من الألفاظ اللاتينية التي تعلمها بالجامعة كلمة كان ينبغي أن ترتبط بكل من الموت والبلاهة، سطر حروف كلمة «غابة» باللاتينية مسمياً ابنه «موري» ثم حمل الوثيقة إلى الحمام. جلس في إحدى الحجيرات، وشرع يقهقه بصورة لا سبيل إلى التحكم فيها. كان مرد هذه النوبة المرضية الشائنة من أحد الجوانب حالته العصبية. رغم ذلك فحينما كان طفلاً كان هناك شيء ما في أعماقه، شيء أساسي، يدفعه بين الحين والآخر إلى السخرية العابثة من حياته ومن حياة الآخرين. كان ذلك أمراً أضطر للاعتراف به في نفسه حينما غادر ابنه المستشفى أخيراً إلى الدار. موري! في كل مرة نادى بها الطفل بدا له أن بمقدوره أن يسمع في غور الظلمة برأسه قهقهته الخبيثة، التي لا تعرف الندم، التي يسخر بها من حياته بأسرها. لذا اقترح أن يطلق عليه اسم للتدليل وأن يستخدم الاسم في الدار وإن وجد أن من العسير إقناع زوجته بسبب ذلك، هكذا أستعار اسم القرد مبغض البشر في مؤلف «ويني النافد الصبر» وأطلق على ابنه اسم أيوري.

فضلاً عن هذا فقد توصل باقتناع متجدد إلى أن علاقته بأبيه، الذي قضى نحبه فجأة خلال طفولته من المحتم أنها مصدر تلك السمة التي يجافيها الصواب ويجافيها الإخلاص ويحيد عنها التوازن والتي اضطر للاعتراف بها في نفسه، فأخذ بشكل ما على عاتقه أن يبعث صورة الرجل بأسرها رغم أنه لا يذكره إلا على نحو غامض. وقد أفرز هذا تكراراً جديداً للصدامات مع أمه التي لم تتحدث قط عن اعتكاف أبيه وموته وتصارعت معه عبر السنوات بالتظاهر بالجنون حينما يسائلها عنه. لم ترفض التعاون فحسب، وإنما أقدمت خلال وجودها بالدار فيما كان بالخارج على سرقة مذكراته ومخطوط ناقص يضم سيرة حياة أبيه، وظلت محتفظة بهما حتى هذا اليوم وبقدر ما أتيح له أن يعرف فقد أطعمت المخطوط للنار. ولما كان مجرد التفكير في الأمر يجعله يرغب في قتلها فلم يكن أمامه إلا الإقلاع عن التفكير.

رغم ذلك فقد كان يعتمد على أمه بدرجة غير مألوفة بالنسبة لمن هم في مثل عمره، تلك حقيقة أخرى اضطر للإقرار بها. كان قد ثمل ذات ليلة من معاقرة الويسكي الذي يستخدمه كبديل للأقراص المنومة، ومضى يعبث بجرو من الصلصال جلبه من المكسيك واكتشف أن ثمة ثقباً تحت ذيل المخلوق، فنفخ فيه بشدة كما لو ينفخ في ناي. ودونما توقّع انبعثت سحابة سوداء من الغبار الناعم من الثقب وأصابت عينيه فظن أن عينيه قد عميتا، وفي غمار اضطرابه وخوفه هتف منادياً أمه: أماه، أوه، أماه، ساعديني أرجوك! ماذا يحدث لأبني إذا أصابني العمى وجننت كما حدث لأبي؟ علمينا، أماه، كيف نتجاوز جميعاً جنوننا؟

استولى عليه دون سبب معقول الشكّ في أن أمه لن تلبث أن تطعن في السن، وتلقى حتفها دون أن تكشف النقاب عن التفسير الذي أبقته طي الكتمان طوال هذه السنين، لا لاعتكاف أبيه وموته فحسب، وإنما كذلك لذلك الشيء العجيب المجهول القابع في أغوارهما، ولا بد كذلك أنه وراء عدم استقراره ووجود ابنه الأبله. وهو وجود بقدر ما يطرح نفسه في شكل ملموس يفترض أنه لن يستطيع قط أن يبعده عن نفسه.

تم وصف وحدة البدين في تلك الليلة فيما كان مضطجعاً في الفراش الضخم حتى بالنسبة لجسده المنتفخ، لكن الحق أن هناك ظرفاً آخر لا يزال من الممكن إدراجه باعتباره أسهم في هذه الوحدة. كان من المعروف لمعظم المواطنين بالحي أن البدين يمضي وقته كله بصحبة ولده البدين موري المسمى أيوري، أما ما لم يعرفه أكثرهم فضولاً فهو أنه حتى اليوم الحاسم الذي أوشك أن يُلقى به فيه إلى الدببة القطبية لم يحدث قط أنه أغفى دون أن يمد يده نحو مهد ولده الذي وضعه عند رأس فراشه. والحق أن زوجته قد هجرت الفراش وعزلت نفسها في موضع آخر من الدار لا من جراء نزاع بينهما وإنما بالأساس لرغبتها في عدم التدخل في هذه الحميمية بين الأب والأبن. كان مقصد البدين دوماً أن يتصرف وفق الدافع الأبوي السليم، فإذا ما استيقظ ابنه في جوف الليل فإن بمقدوره دائماً أن يمس يد أبيه اللحيمة في الظلمة فوق رأسه، ولكن الآن وفيما يتأمل الأمر في ضوء الانكسار الذي حدث في أعماقه حينما رفعه قطاع الطريق من رأسه وكاحليه وأرجحوه إلى الأمام وإلى الوراء كأنما يوشكون على إلقائه للدب القطبي الذي راح يرمقهم في فضول من المسبح الخفيض، لم يكن بمقدوره إلا أن يكتشف حتى في تفاصيل حياته تلك لوناً من عدم الاتساق كأنما تسربت حبات رمل قلائل إلى محجري عينيه. أليس ممكناً أنه كان يرقد ممدود اليد حتى تلاقي يده التي يمدها متلمساً في الظلمة في الحال الدفء المواسي

المنبعث من يد ابنه حينما تهدد الكوابيس بإيقاظه؟ حينما أدرك هذا الاعتراض وهو يُطرح في أعماقه كشفت تفاصيل حياتهما معاً، التي كانت تبدو بالنسبة له دائماً تجسيداً لارتباطه المقيّد بابنه، واحدة إثر الأخرى، عن وجوه جديدة فاقمت اضطرابه. ورغم ذلك فإن أبسط تفاصيل حياتهما ذاتها لم تثر اضطراره بذلك الافتقار إلى التناسق إلا نادراً، كان هذا عزاءه كلما ازداد إيغالاً وشعوراً بالوحشة يخامره في الصراع مع أمه. كانت الحقيقة حتى بعد التجربة التي خاض غمارها في حديقة الحيوان هي أنه واصل أداء طقوس يومية بعينها يتقاسمها مع ولده.

سواء أكان الجو صحواً أو مطيراً، لا على سبيل الرمز وإنما بصورة فعلية، كان البدين وولده يمضيان بالدراجة مرة كل يوم إلى المطعم الصيني، يطلبان قطعاً من رأس الخنزير في الحساء وبيبسي كولا. وقبل أن يصبح ابنه بديناً للغاية كان يجلسه على مقعد معدني خفيف ثبته على القائم المتصل بمقود الدراجة، وما أكثر ما أضطر للشجار مع رجال الشرطة الذين ذهبوا إلى القول بأن المقعد المعدني غير مسموح به قانوناً، دع جانباً أن يركب أثنان دراجة واحدة! كان يحتج بانفعال دوماً لأنه يؤمن بما يقول. الآن حينما يتطلع مستعيداً الأمر من وجهه نظرة الجديدة يتعين عليه أن يتساءل عما إذا كان يصدق ما كان يطرحه من حجج بهذا الإصرار البالغ من أن ابنه قاصر ذهنياً (كان يستخدم الكلمة ذاتها دوماً كسلاح ضد الشرطة لأنه على وجه الدقة يمقت لفظها) وأن المسرة الوحيدة المتاحة له، عزاءه الوحيد أن يصعد إلى مقعد معدني مثبت بقائم مقود الدراجة على نحو غير قانوني ويمضي على الدراجة بحثاً عن قطع لحم رأس الخنزير في الحساء وبيبسي كولا. إن عاجلاً أو آجلاً سيمل ولده الجلوس على الدراجة وسط الشارع فيشرع في الصياح مستاء، عندئذ يرفع هو صوته المتهدج على نحو يماثل الزمجرة، يزيد من احتدام المناقشة، الأمر الذي يسفر عامة عن استسلام رجل الشرطة. عندئذ يعلن، كما لو كان منذ وقت طويل ضحية لاضطهاد الشرطة بشأن موضوع شديد الأهمية، لابنه المحدق في الطريق أمامه بلا مبالاة تامة بهمس والده المحموم، قوله:

- أيوري، لقد لقنّ هذا الشرطي درساً حقاً، انتصرنا، يا ولدي! هذا هو انتصارنا الثامن عشر!

ويمضي بالدراجة مزهواً بالفوز نحو المطعم الصيني.

داخل المطعم، وفيما ينتظران قطع لحم رأس الخنزير في الحساء التي طلباها،

يشرب أيوري البيبسي كولا فيرقبه منتشياً وهو يشربها. وكان الطبق الذي يعدّ في المطعم الذي يرتادانه يتألف من بعض قطع لحم رأس الخنزير في الحساء، يجملها الفطر وبعض السبانخ وقطعة لحم من عظمة خنزير محمرة في زبد رهيف. حينما يؤتى به أخيراً إلى مائدتهما يفرغ ثلثي قطع اللحم وبعض الفطر والسبانخ في وعاء صغير يضعه أمام ابنه، يرقب بعناية الطفل وهو يلتهمها حتى يبرد الطعام، عندئذ فحسب يشرع في تناول لحم الخنزير باحثاً بلسانه عن الغضروف بين الزبد واللحم ومتخلصاً من الجسم الكروي الأبيض المقطوع نصفين بوضعه بعد فحصه بدقة في منفضة سجائر بعيداً عن متناول أيوري، وأخيراً يلتهم نصيبه من قطع لحم الرأس حريصاً على أن يتفق موعد فراغه منه مع موعد انتهاء ولده من تناول طعامه. ثم فيما هما يمضيان بالدراجة عائدين للدار، وبوجه متدفق حمرة جراء تناول قطع اللحم الساخنة ومتقد في مواجهة الريح، يسأل مراراً:

- أيوري، أكانت قطع لحم الرأس والبيبسي كولا جيدة؟

وحينما يرد ولده قائلاً:

- أيوري، كانت قطع لحم الرأس والبيبسي كولا جيدة!

يقطع بأن تواصلاً تاماً بينهما قد تحقق، فيشعر بالسعادة. وغالباً يقطع بأن ما كان يؤمن مخلصاً بأنه من بين كل الطعام الذي تناوله طوال حياته كانت قطع رأس الخنزير في ذلك اليوم الطعام الأطيب مذاقاً.

من المحقق أن من بين الأسباب الرئيسية لبدانته وولده قطع لحم الخنزير تلك في الحساء. وبين الفينة والأخرى كانت زوجته تحذره من هذا، لكنه كان يفوز في مشاحنات الدار بالمنطق ذاته الذي يستخدمه ضد الشرطة. وعندما غدا ردفا ولده بالفعل أضخم من أن يحتلا المقعد المعدني سعى للحصول على دراجة خاصة ذات قائمة أمامية طويلة على نحو مضحك. كان يسند أيوري أمامه حينما يمضيان معاً للحصول على وجبتهما اليومية.

كان قد توصل إلى القناعة بأن هذه الرحلة بالدراجة للوصول إلى قطع لحم الخنزير والبيبسي كولا هي إجراء يمكّن ولده الأبله من أن يستشعر في قرارة جسده متعة تناول الطعام. غير أنه بعد تجربته عند حافة مسبح الدببة القطبية لم يعد يحس سعادة غامرة وهو يبحث عن الغضروف في ضلع الخنزير بلسانه ويتفقد القطع نصف الدائرية اللامعة. ومتعة إرضاء شهية أيوري وهو عاكف في صمت على التهام قطع اللحم إلى جواره لم تتناه إلى قرارة بدنه إلا اهتزازة واهنة. تساءل في بعض الأحيان عما إذا لم يكن توق أيوري إلى

قطع لحم الخنزير والبيبسي كولا لا يعدو أن يكون وهماً لا أساس له من أوهامه، وعما إذا لم يكن ابنه قد ازداد بدانة على هذا النحو المحزن لأنه يلتهم بصورة آلية ما يوضع أمامه أياً كان. ذات يوم حينما قضت شكوك كهذه على شهيته، فترك المطعم دون أن ينهي ضلع خنزيره، لحق بهما الطاهي الصيني، الذي لم يكن حتى الآن قد غادر المطبخ راكباً دراجة تلتمع بالشحم، واستفسر بلكنة مؤكدة على نحو مفزع عما إذا كان هناك ما ساءهما اليوم في الطعام. وقد مرر البدين الذي كان من هبوط الهمة بحيث افتقر إلى شجاعة تجاهل الطاهي السؤال إلى أيوري، ثم شارك الرجل الصيني ارتياحه حينما ردد ولده الإجابة بالطريقة المعتادة:

- أيوري، كانت قطع اللحم في الحساء والبيبسي جيدة!

من خلال مراكمة العديد من الاجراءات من هذا النوع بينه وبين ولده شاد صرح حياة فريدة لهما. وكانت قناعته التي أبقاها طي الكتمان هي أن هذا الصرح يتطلب ارتباطه المقيد بابنه الأبله، لكنه حينما أعاد النظر في الأمر الآن وقد خلف وراءه التجربة التي عاشها عند حافة مسبح الدببة القطبية، بدأ يدرك أن الحفاظ على هذا الصرح الغريب كان محطّ رغبة بالغة العناد من ناحيته.

كان مقتنعاً، إلى أن بدأ ولده ينسلخ عن وعيه مثلما قشرة جرح، بأنه يستشعر مباشرة أي ألم عضوي يحس به ابنه. وحينما قرأ في موضع ما أن ذكر سمكة السيلاتيوس، وهي سمكة تعيش في أعماق البحر وتتوافر في المياه الدانمركية، يقضي حياته ملتصقاً مثل نتوء بارز بجسم الأنثى الأكثر ضخامة، تراءى له في حلمه أنه السمكة الأنثى تمضي في أعماق البحر وابنه مغروس في جانبه مثل ذكر السمكة الأصغر حجماً، كان ذلك حلماً بالغ العذوبة حتى أن الاستيقاظ منه كان مريراً.

في البداية لم يصدقه أحد حتى حينما رأوا الأمر يحدث وأنه يعاني الألم ذاته الذي يقاسيه ابنه، ولكن مع مرور الوقت سلمت حتى زوجته الشديدة التشكك بهذه الحقيقة. لم يبدأ الأمر في لحظة ميلاد الطفل، كانت سنوات عديدة قد انقضت حينما انتبه للأمر ذات يوم. حتى ذلك اليوم، على سبيل المثال حينما أجريت لولده جراحة في المخ عندما كان وليداً ورغم أنه دفع الأطباء إلى التساؤل بقلق عن حالته إذ ضغط عليهم لينقلوا من جسده إلى ولده كمية من الدم لم تكن كبيرة فحسب وإنما لا يمكن التفكير فيها طبياً، لم يشعر بالغيبوبة حينما خدر ابنه، لم يشاركه أي ألم جسدي. وامتدت قناة الألم على نحو لا سبيل

إلى الخطأ بإزائه بينه وبين ولده حينما أحرق أيوري قدمه في صيف عامة الثالث (أو هكذا بدا الأمر، ذلك أنه حتى في الوقت الراهن يجد من العسير تبين ما إذا كان الألم الذي أحس به ذات مرة حقيقياً أو زائفاً ودفع إلى إدراك أنه بشكل عام ما من شيء يصعب بعثه إلى حد كبير كالألم الذي يبقى كذكرى فحسب).

عندما شرع ولده يطلق لا صرخات بسيطة وإنما صيحات احتجاج مندفعة كان البدين مضطجعاً على أريكة في غرفة معيشته يقرأ إحدى المجلات، على الرغم من أنه خلف جفنيه حيث شرعت الدموع تنبثق كان بمقدوره أن يرى بوضوح سوريالي كما لو كان يشاهد فيلماً يعرض بالحركة البطيئة مشهد الآنية المليئة بالماء المغلي تنقلب، فينسكب منها الماء. إلا أنه لم ينهض، ولم يندفع إلى المطبخ لمساعدة ابنه ظل راقداً على نحو ما. كان غارقاً في إعياء يحاكي تفكك الأعضاء الذي يصحب حمى شديدة الوطأة. وردد في وقت واحد مع ابنه صيحاته بأنات غليظة ندت عنه، غير أنه في ذلك الحين لم يكن قد تملك ناصية الألم العضوي. أحكم وضع جسم ابنه المنتفض الما في عربة أطفال صدئة سحبها من السقيفة. وبشكل ما أفلح في تأمين القدم المحترقة. ورغم أنه كان يئن في تثاقل طوال الطريق إلى المستشفى البعيد وهو يدفع العربة مجتازاً الغرباء الواقفين في الشارع يرقبون مسيرته المفزعة، إلا أنه لم يكن بوسعه القول عن يقين بأنه يستشعر بالفعل بالألم الذي يخترم أيوري في لحمه هو.

غير أنه فيما كان يهدىء الاندفاع المتفجر لجسم ولده الذي يشبه قذيفة صغيرة ليتمكن الطبيب من تعرية وعلاج القدم المغطاة، التصق السؤال التالي بذهنه: أيمكن أن تكون هناك حالة من حالات الوعي مفعمة بالخوف وبالضرر مثل إدراك الألم دون سببه، إدراك الألم وحده، لأن ذهن طفل معتوه في عتمته لا يستطيع البدء في استيعاب منطق موقف يلح فيه الألم ويبدو كما لو كان سيستمر دون أن تخف حدته، وكأنما لا يكفي هذا فيتقدم غريب متطوعاً بإسداء خدماته دون أن يطلب منه أحد ذلك ليسبب له ألماً آخر فيما الأب نفسه يتعاون؟ في هذه اللحظة بدأ البدين يطلق من خلال أسنانه المطبقة صيحات ألم تحاكي صرخات ولده وتختلط بها على نحو لا يمكن تمييزه، وما كان يمكن أن تصدم الطبيب أو الممرضات. بدأت قدمه تنبض ألماً بالفعل «أعتقد ذلك» ألماً نابعاً من الاحتراق.

فى الوقت الذي ضمد فيه الجرح كان البدين الواقف إلى الجوار، جوار ولده

الشاحب المضطرب، أكثر إعياء من أن يتحدث. ومضت زوجته التي كانت تساعد بغرفة الفحص في الإمساك بالمريض إلى الدار مع أيوري في سيارة أجرة، تاركة البدين ليعود وحيداً عبر الشارع الضيق الموازي لشريط السكة الحديدية والحبل الذي استخدمه لضمان عدم سقوط ابنه مطوي في العربة الفارغة. وفيما هو ماض في طريقه راح يسائل نفسه لم أنتزعت زوجته أيوري منه ومضت بعيداً في سيارة أجرة؟ أكانت تخشى أنه إذا أعاد ابنه إلى العربة وعادا معاً عبر الشارع ذاته أن يضع نفسه والعربة معه بين الشدادات المستعملة التي وضعت حديثاً لحماية القضبان ويحاول الهرب من الألم الذي يحكم قبضته عليهما معاً بإلقاء نفسه والطفل تحت عجلات قطار الضواحي؟ ربما. فحتى إذا لم تكن صيحاته قد بلغت مسامع الطبيب والممرضات لاختلاطها بصرخات ولده فمن المحتم أنها كانت مسموعة بوضوح بالنسبة لزوجته! حيث أنها في غمار إمساكها بكتفي ابنه انحنت على المائدة تجاهه كثيراً حتى كاد رأساهما أن يتماسّا. وعلى الرغم من أنه قاد العربة الخاوية بخشونة إلا أنه شق طريقه عبر الشارع بعناية متناهية، كأنما في حرص على ألا تمس ساق عولجت من حرق لتوها، وإذا ما أضطر إلى تخطي بريكة صغيرة كانت تند عنه صيحة ألم بالغة التوجس.

منذ ذلك اليوم وعلى قدر علمه كان أي ألم يحس به ابنه ينتقل إليه عبر أيديهما المتشابكة. لم يحدث قط أنه أحسّ بهزة ألم في توحد مع ابنه. وإذا كان قد استطاع أن يضفي مغزى ايجابياً على ظاهرة الألم الذي يتم الاشتراك في الشعور به، فإن ذلك يرجع إلى أنه أفلح في تصديق أن فهمه للألم المتردد في ذاته تعاطف على سبيل المثال مع الألم النابع من نزع الجلد المغطى والمبيت عن الحرق بملاقط صغيرة سيسري عائداً كالنور عبر رأس ولده الذي يمسك به في رأسه ويخلع نظاماً معيناً على عماء الخوف والألم في ذهن الطفل المظلم المحروم من التمييز. لقد بدأ يؤدي وظيفة النافذة في ذهن ولده تسمح للنور الوافد من الخارج بالتغلغل للداخل المعتم الذي يرتجف من ألم لا يحسن فهمه.وطالما أن أيوري لم يخط قدماً ليرفض هذه الوظيفة فليس ثمة ما يدعو الدين لوضعها موضع التشكك. وبما أنه الآن أصبح بمقدوره أن يعلن لنفسه أنه يتقبل بسعادة القيد المؤلم الذي يشده إلى ولده فقد سمح له دوره الجديد بالعزاء المتمثل في الشعور بأنه مثل ضحية بريئة.

بعد عيد ميلاد أيوري الرابع بفترة قصيرة مضى به البدين ليتم فحص عينه في مستشفى جامعي بعينه. وأياً كان اخصائي العيون الذي سيقوم بفحص طفل أبله، لم يتحدث قط

اللهم إلا ليتلفظ بهذيان لا معنى وبألفاظ محدودة بصورة قاسية أو يطلق ضوضاء استجابة للألم أو اللذة، فانه سيواجه مهمة أبعد ما تكون عن السهولة. لم يكن هذا المريض الصغير بديناً وثقيلاً فحسب، وبالتالي يصعب التعامل معه، وإنما كان قوي الذراعين والساقين على نحو غير مألوف، بحيث أنه إذا ما تصاعد الخوف في أعماقه غدا من المستحيل التحكم به كأنه دابة تمكن منها الهلع.

كانت زوجة البدين قد لاحظت على الفور شيئاً غير عادي بصورة متميزة بالنسبة لإبصار أيوري. فبعد التكهن بطرق بدائية عديدة حول الصلات المحتملة بين هذا وتخلفه، سعت منذ وقت طويل كي يفحص اخصائي عينيه. ولكن في كل مستشفى زاره البدين كان الرفض حليفه. وأخيراً مضى لزيارة الجراح المتخصص في المخ الذي مكّن الطفل الذي كانت البدائل المتاحة له الموت أو العته على الأقل من النجاة بحياته، فأفلح في الحصول على خطاب توصية لدخول قسم أمراض العيون بالمستشفى الجامعي ذاته.

ذهبت العائلة إلى المستشفى مجتمعة. لكن زوجته تركته في أول الأمر في غرفة الانتظار، وصعدت الدرج وحدها مع أيوري. وعادت متعثرة بعد نصف ساعة، وقد بدا عليها الإعياء بوضوح بالغ ساحبة ولدها الثقيل الصارخ. كان الفحص بالكاد قد بدأ، وقد عم الإعياء الطبيب والممرضات بل وزوجته نفسها، فيما كان أيوري نفسه يقدم صورة لمضايقة قاسية راح المرضى الآخرون يرمقونها بامتعاض. وأدرك البدين الذي عمه السخط لدى رؤية ولده في مثل هذه الحالة السر في أن زوجته تركته في غرفة الانتظار وصعدت الدرج وحدها مع أيوري. لم يعد ثمة مجال للشك في أن إجراء فحص دقيق لعيني الطفل كان محنة مستمرة حافلة بضرب غريب وضارّ من الرعب.

كان أيوري لا يزال يصدر من مؤخرة حلقه شيئاً يحاكي صدى صرخة واهنة، وقد تهاوى البدين على ركبتيه إلى الأرض المتسخة، فاحتضن ابنه القصير اللحيم. كانت الذراع التي لفها أيوري حول عنقه مبللة بعرق الخوف مثل لبد قط خاض غمار الخطر. وأمدّ لمس كفه لكف ابنه ذهنه بجوهر التجربة التي خاضها ابنه خلال الدقائق الثلاثين الماضية (هكذا اعتقد وقتها) وأفعمت كل تجاويف جسده ونتوءاته بألم متردد عقب ثلاثين دقيقة قضاها بين المخالب المستدقة للأجهزة الطبية التي لم يسبق له أن رآها قط. لو أن أيوري لم يهدأ تدريجياً بين ذراعيه إلى حد الاكتفاء بالنهنهة لأطلق هو صرخة رهيبة وشرع في التلوي على الأرض.

لجأت زوجة البدين، التي تميزت دون كل من يظلم سقف الدار بنحافتها البالغة، إلى إجراء وقائي أملته عليها حصافتها، فتوقفت عند أسفل الدرج آملة أن تحول بينهما معاً هو وابنه، وبين التصرف على هذا النحو الجنوني.

- لا بد أنهم أخافوه.

قالها الرجل البدين متنهداً في خشونة، وواصل قائلاً:

- من يظنونه بحق الجحيم، أولئك الأوغاد!

- لقد أخافهم أيوري، استمر يركل الطبيب والممرضات بقدميه إحداهن وراء الأخرى وحطم كل الأدوات.

قالتها زوجته، ولم يكن الأمر راجعاً إلى أنها تحاول دائماً الإنصاف والتزام الموضوعية، بقدر ما كان راجعاً إلى رفضها المشاركة في جنون الاضطهاد الذي أصاب البدين. وراح يصغي الآن لها متنهداً غاضباً في حداد لما ألم بابنه العنيف، وأحس أن هجومها يشمله أيضاً.

- لا، لا بد أن هناك ما هو مجافٍ للصواب منذ البداية، وإلا لما طارت نفس أيوري شعاعاً على هذا النحو، تأملي كيف يلتزم الهدوء دوماً، وقد قلت إن الفحص كان قد بدأ لتوه فكيف عرف أيوري أن ثمة شيئاً مجافياً للصواب بصورة أساسية، أقصد فيما يتعلق بقسم أمراض العيون هنا، وقد فاتك إدراكه؟ هذا هو كل ما في الأمر.

قالها البدين مسرعاً راداً على طرح زوجته الدقيق يقيناً وشارعاً في تصديق أن ثمة خطأ في المستشفى لا لشيء إلا لاصراره على القول بذلك، بل مضى في وضع أسس تعسفيه للحكم الذي أبرمه. فقد نقل إليه ابنه، الذي انتهى من حك قفاه براحته المندّاة بالعرق وراح يئن برقة إلى جانبه عن طريق التخاطر، هذا الحكم:

- سأصحب أيوري مرة أخرى إلى هناك، قد لا يكون بمقدورنا أن نصل إلى تشخيص لحالته، لكني على الأقل سأرى الخطأ الذي يرتكبونه.

قالها البدين بصوت مهتاج وقد تحول وجهه البدري إلى حمرة غاضبة، وأضاف:

- بغير ذلك سيتكرر الأمر كله من جديد أياً كانت المرات التي تعودين فيها، وستظل تجربة أيوري هنا تطارده شأن ذكرى كابوس رهيب دون أن يملك لها تفسيراً.

- لن يستغرق نسيان الأمر من أيوري طويلاً، لقد نسي الأمر بالفعل على وجه التقريب.

ـ ذلك هراء، فلن ينسى أيوري، أتعلمين أنه كان يبكي كثيراً في جوف الليل مؤخراً؟ إنه لأمر مخيف أنه يشعر بالخوف. أيمكنك تحمل التفكير في أنه يتعرض لكوابيس لا يستطيع فهمها؟

أسكت البدين زوجته بهذا على نحو حاسم، إذ لم تكن ترقد في غرفة نوم ابنها ليلاً. ثم حمل أيوري على كتفيه بالقطع الباتر ذاته، ومضى يرقى الدرج نحو قاعة الفحص ولا يزال قذر الأرض عالقاً بمعطفه. وألهمته قدرته على أن يوضح الحقيقة على هذا النحو: إن الوجود الحيوي لابنه اللحيم لم يكن أمه وإنما هو ذاته شجاعة تقارب الاستبسال، وفي الوقت نفسه خلفه احتمال المحنة القاسية التي قد يخوضان معاً غمارها شاحباً مشوش الذهن، وفي كل خطوة يخطوها كان رأسه يتوهج بالحمرة وجسمه يهتز برعشة باردة.

ـ أيوري! علينا أن نرقب الأمر عن كثب، أنت وأنا، حتى لا يتغلبوا علينا، قالها البدين رافعاً صوته في مناشدة للحضور الدافىء الثقيل الجاثم على كتفيه الذي كان يحس به في مزيد من الحيرة وكأنه روحه الحارس أكثر منه طفله القاصر.

ـ أيوري، إذا استطعنا الانتهاء من هذا الأمر معاً فسنمضي لتناول بعض من لحم الخنزير والبيبسي كولا!

ـ أيوري كانت قطع اللحم والبيبسي كولا جيدة!

رد عليه ابنه اللحيم بها متكاسلاً مغتبطاً لاعتلائه كتف أبيه ومتحرراً، فيما يبدو، من ذكرى تجربته التي خاضها قبل قليل.

لاح ذلك وكأنه يقف برهاناً على دقة نبوءة زوجته. لو أن البدين لم يستحثه صوت ابنه لفقد شجاعته يقيناً عند مدخل غرفة الفحص ولعاد مستخذياً من حيث جاء، فلم تكن هناك فحسب ممرضة شابة تحكم غلق الباب الذي أغلقته لتوها برتاج عرضي وذلك بقصد لا يخفى هو الحيلولة دون دخول المزيد من المرضى، وإنما أعلنت دقات الساعة انتصاف النهار. وعندما التفتت ورأت الطفل معتلياً كتفي البدين علا وجهها تعبير ينم عن الذعر والاحتجاج منه، فأسرعت وراء الباب لتختبىء. وأعلن البدين معتمداً على النزعة النخبوية للمستشفى الجامعي، دون أن يطلب أحد منه ذلك، وبقدر ما استطاع من التعاظم، أنه قد حُوِّل للمستشفى عن طريق أستاذ طب معين، وأدلى باسم جراح المخ. ولم ترد عليه الممرضة مباشرة، فلم يكن من المحتمل أنها فكرت في طرد رجل بدين غرس نفسه أمام المكتب حتى دون أن ينزل الطفل عن كاهله بمفردها، وإنما تركت الباب نصف مفتوح

وانطلقت إلى الداخل عدواً من ركن معتم اسدلت عليه ستارة في نهاية الغرفة وشرعت في مناشدة ما.

تردد البدين للحظة واحدة، ثم تقدم متجاوزاً الرتاج، وواصل السير إلى خلفية الغرفة حيث ارتطم بصوت حاد يحتج صاحبه وراء الستار فيما بدا أنه غضب لا سبيل للسيطرة عليه:

ـ لا، لا، لا، بالتأكيد لا، سيتطلب الأمر الاستعانة بكل رجل في المبنى للامساك بذلك المنطاد الصغير. ما هذا؟ هوذا هنا بالفعل؟ لست آبه بما إذا كان هنا، الردّ هو لا!

كانت تلك نقطة لصالح البدين، وبهدوء أنزل أيوري إلى الأرض. ثم دفع برأسه الضخم داخل الستار واكتشف طبيباً من ضآلة الحجم بحيث بدا في رداء الجراحين الذي يلبسه وكأنه طفل يرتدي ملابس الكبار. وقد تراجع برأسه إلى الوراء في العتمة تحت بصره مباشرة فيما أعاد رأسه للاذهان بصغره شكل حشرة السرعوف الضئيلة، وهو يصيح هاتفاً بالممرضة المستاءة. وألقى البدين نظرة طويلة صفيقة، ثم قال بأدب مذهل:

ـ لقد حولني أستاذ الطب س. أيمكن أن نحاول مرة أخرى؟ ربما كان بمقدوري تقديم المساعدة.

هكذا بدأ الفحص. كيف يمكنك الرفض حينما يقاطعك والد المريض الهائل الحجم بذلك الأدب القاتل وسط صراخك بممرضتك؟ ذلك هو السؤال الذي بدا أنه يشتعل داخل رأس السرعوف وهو يبدأ الفحص متذمراً ومتجاهلاً البدين بإشعال مصباح في شكل قلم رصاص في عيني أيوري. ولزيادة كفاءة هذا المصباح الدائري الصغير أغرق نصف الغرفة في العتمة، وجثم البدين على نحو غير مريح في الفراغ الضيق الواقع وراء المقعد الدوار وذراعاه ملتفّتان حول صدر أيوري. ازدهاه أن الطفل جلس بالمقعد وذلك على الرغم من أن جسده هو الذي تراجع للخلف متوتراً وواصل الابتعاد لأنه هو الذي كان يمكث دوماً مع ابنه طوال الليل وكان يمسكه مما حول صدره. قبل نصف ساعة، ودون إدراك لخوف أيوري من الظلام الذي لا يمكن قهره إلا إذا وجه من خلال قناة الاتصال بين الأب والابن، ومن المحقق أن زوجته والطبيب والممرضات قد دفعوا بالطفل إلى رحال اليأس الذي يستشعره حيوان صغير محاصر في منصة الفحص هذه بذاتها، لكنه في هذه المرة كان بمقدوره أن يفكر باعتباط إذ لاحظ أن العتمة في هذه الغرفة لم تكن مخيفة بشكل خاص. وقد انتقل جوهر حكمه إلى أيوري من خلال ضغط يديه، فخفض واحدة وراء

الأخرى رايات الخطر الخفاقة في ذهن الطفل المعتم.

رغم ذلك فقد خاف أيوري من المصباح القلمي ذاته ورفض النظر في الاتجاه الذي ينشده الطبيب، أي النظر مباشرة إلى شعاعه الصغير. وبتطويح رأسه من جانب إلى آخر والنظر من ركن عينه، واصل تجنب المتابعة المعذبة للمصباح القلمي في يد الطبيب الضئيل الحجم. وتقدمت الممرضة الشابة في الحال لتقدم يد العون، ربما على أمل أن تحرر نفسها مع الطبيب. جاروك! جاروك! سمع البدين ضوضاء كريهة، وأحس بجسد أيوري ينقبض قلقاً، وحينما تطلع لائماً رأى ضفدعاً مطاطياً يجعل شعر الرأس يشيب خوفاً وقد طلي بطلاء فوسفوري لامع يجعله يبرق في العتمة وهو يتراقص إلى الأمام وإلى الخلف في يد الممرضة وينقّ على نحو رهيب «جاروك، جاروك!» فيما هي تحاول أن تجذب انتباه المريض. كان البدين على وشك أن يهتف بشيء ما غاضباً استجابة لاحتجاج قوي انبعث في أحشائه بأكثر مما هو رغبة في ايقاف الممرضة من أجل ولده حينما استسلم أيوري كلية للذعر، وشرع في الدوران حول محور ذراعي أبيه، وركل المصباح القلمي فألقاه أرضاً وكذلك الضفدع المطاطي في يد الممرضة وكذلك العديد من الأشياء الموضوعة على مائدة مُدّت منحرفة أمامه. رأى البدين، وهو يستسلم لأنين الغضب في جوقة خفيه مع ابنه في لمحة خاطفة، أن أيوري قد أسقط إلى الأرض بالإضافة إلى العديد من الكتب الضخمة، وعاد يضم أرزاً وسمك انقليس محمراً بدا أنه غذاء الطبيب. ومن الفحص السريع على نحو غير مألوف الذي أعقب هذا كان من المستحيل تجنب الانطباع بأن الطبيب الضئيل الحجم يستفز مريضه العنيد بفعل الغضب المستمد، في جانب منه على الأقل، من جوع لم تهدأ غائلته. وقد سمح لهما هذا، لكل منه ومن ولده، بتذوق متعة الانتقام. وفي الوقت ذاته كان الأساس الذي بني على خوف بالغ الخطورة. فها هنا طبيب متعب وجائع بعد مواعيد الصباح بكاملها والآن أتلف طعامه ومع ذلك فهو يفتقر بشجاعة الإساءة علناً إلى هذا الطفل ووالده البدين الذي يتباهى بتقديم خطاب توصية من أستاذ الطب س. فكيف للبدين أن يثق بأن الرجل الهضيم لن يوقع انتقاماً مراوغاً بعيني ولده؟ صحب هذا الرعب أسى فذوى البدين متراجعاً.

جمع الطبيب بصوت عال مساعديه جميعاً، عندما تم تمديد المريض الصغير على فراش عار من الجلد الأسود أصدر تعليماته بلهجة من أحرز فوزاً بأن يساعد الجميع في الإمساك بالطفل ملتصقاً بالفراش (أفلح البدين فحسب في أن يخصص لنفسه مهمة الإمساك برأس أيوري بين ذراعيه وتثبيت صدره تحت وقر جسده بكامله) ثم قفز إلى

المرحلة الثانية الأشد تعقيداً دونما شك في الفحص على الرغم من أنه بدا جلياً أن المرحلة الأولى لم تكتمل بعد..

وبإتمام ضمان تثبيت أيوري في إحكام إلى الفراش من قمة رأسه حتى أخمص قدمه بحيث أصبحت الحرية الوحيدة المتاحة له هي الصراخ الذي يفتح له فمه ويكشف عن أسنانه الصفراء (كان من المستحيل تدريبه على تنظيف أسنانه بالفرشاة إذ كان يخاف فتح فمه أياً كان من يحاول إجباره على ذلك، وحتى إذا ما افلحت في تحريك الفرشاة بين شفتيه المطبقتين فإنه يتصرف وكأنه قد أوذي أو تسبب له شعور بالوخز فيزداد صرامة وضعت الممرضة عند رأس فراشه قضيباً ناحلاً من الألونيوم طوى حول ماسة مستطيلة ليشكل نوعاً من الكلاب. ما أن قدر البدين أن الطرف الناحل المستدق لهذه الأداة سيدفع تحت الجفن ثم يفتح لكشف العين حتى انتشر ألم نابض كالنار من عينيه إلى العصب المركزي في فمه. تجاهله الطبيب وتجاهل معه ألمه، ووضع نوعين من القطرات في عيني أيوري اللتين رغم غلقهما بإحكام واصلت الدموع انسيابها منهما كمؤشرات لاحتجاج الطفل. جدد الطفل صراخه فارتعد البدين بعنف، عندئذٍ فحسب قال الطبيب لمجرد إحاطته علماً:

ـ ستخدر هذه العين بحيث لا يشعر بأي ألم.

عندما سمع البدين هذا انطفأ وهج الألم الغصني الممتد بين عينيه ونخاع فمه لكن أيوري واصل الأنين كما لو كان يشنق حتى الموت. وأفلح البدين الذي كان عاكفاً على مسح دموعه هو بظهر كفه في رؤية الطبيب وهو يضع الأداة الناحلة تحت جفن أيوري فيما كان أنين الطفل يتعالى ثم عرّى العين على بعد بوصات قلائل منه. كانت حقاً كتلة ضخمة، بيضة شهباء اللون، وكان إحساس البدين بها أنها الأرض، عالم الإنسان بأسره، في مركزها كانت دائرة بنية مضببة بلطف كان البؤبؤ يحدق منها في وهن وشرود وقد أناره ضوء خافت كاب. كان يعبر عن العته والخوف والألم ويكدح ليتركز حول شيء ما باذلاً جهده ليحدد ذلك الشيء الغامض المضبب الذي يواصل بقسوة جلب الألم. وتعرف البدين بعينه كل شيء، ولم يكن يتألم بسبب المخدر، وإنما كان هناك شعور مؤلم بالارتياع، بالاضطراب، في قرارة قلبه، وكان عليه أن يجالد هذا الشعور وهو يرقب عاجزاً جمهرة الوجوه المطلة عليه. بدأ على وجه التقريب يئن مع ولده، لكنه لم يستطع إلا أن يلحظ أن العتمة البنية للعين التي لا تعكس إلا العته والخوف والألم كانت تتضمن وجهه ضمن تفحصها لجمهرة معذبي أيوري المجهولين. فغر صدع خشن فاه بينه وبين ولده. ودفع إبهامه

بين أسنان أيوري المصفرة المطبقة (لم يدرك، إلى أن مر بالتجربة التي خاضها عند حافة مسبح الدببة القطبية، أنه قد فعل هذا لأنه كان يخشى هذا الصدع، يخشى أنه إذا حدق في قراره فيستعين عليه أن يواجه ما سيفصح يقيناً عن نفسه في شكله الحق هنالك أي خداع النفس الذي ولدت من رحمه معادلته الواعية: أيوري = البدين) رأى دماً مسفوحاً وقد بدأ يشخب بالقدر ذاته الذي واصلت به دموع ولده الانهمار، وسمع صوت أسنان تطحن عظماً، فأغمض عينيه في إصرار وشرع يصرخ مع ولده في جوقة واحدة.

عندما تلقى علاجاً بقسم الطوارىء وهبط قاعة الانتظار حدثته زوجته، وأيوري جالس إلى جوارها ولا يزال شاحباً ومتألماً وإن كان قد هدأ روعه من جديد، بتشخيص الطبيب الهضيم. كانت لعيني أيوري، مثلما هو الحال مع عيون الفئران، مجالات مختلفة للرؤية، وكان ـ شأن الفئران مرة أخرى ـ مصاباً بعمى الألوان، وفضلاً عن هذا فلم يكن بوسعه أن يتبين في وضوح الأشياء التي يزيد بعدها عن ثلاثة أقدام، وهو وضع يستحيل تقويمه في الوقت الراهن؛ لأن الطفل فيما ذكر الطبيب لا يرغب في رؤية الأجسام البعيدة بوضوح.

ـ لا بد أن ذلك هو السبب في أن أيوري كان يوشك أن يمس الشاشة حينما يشاهد الأفلام المعروضة في التليفزيون!

كانت زوجته تقدر الدأب على الاحتفاظ بقوة الإرادة دائماً، فراحت تتحدث بمزيد من التأكيد في غمار محاولتها إنهاضه من وهدة الكآبة التي تردى فيها. كأنما اكتشفت حتى في هذا التشخيص الباعث على اليأس تحليلاً يفيدها.

ـ هناك أطفال ذوو قدرة عادية على الإبصار يمسون شاشة التليفزيون بأنوفهم أيضاً.

قالها البدين محتجاً بحدة، وأضاف:

ـ ذلك الطبيب الهضيم لم يأت شيئاً يذكر كما تعلمين اللهم إلا إفزاع أيوري وإيذاءه ودفعه للصراخ. في أي مرحلة من الفحص يفترض أنه اكتشف تلك الكارثة كلها؟

ـ أعتقد أنه صحيح أن أيوري لا يرى الأجسام القريبة بوضوح ولا يريد أن يبصرها.

قالتها زوجة البدين بصورة شرعت تشي في أمانة بقنوطها، وأضافت:

ـ حينما أصطحبه إلى حديقة الحيوان لا يبدي أي قدر من الاكتراث بالحيوانات الحقيقية وأنت تعلم كم يحب الحيوانات المصورة في كتبه ـ إنه لا يتطلع إلا إلى قضبان الأقفاص أو الأرض

أمامه. أليست معظم أقفاص الحيوانات على بعد يزيد على ثلاثة أقدام؟

عقد البدين العزم على أن يصحب ولده إلى حديقة الحيوانات. وباستخدام عينيه كهوائيات التقاط ويديهما المتشابكتين كسلك توصيل سيذيع على ذبذبتهما الشخصية يوماً بكامله في حديقة الحيوانات من أجل أيوري.

هكذا حدث أنه ذات صباح من شتاء عام ـ ١٩٦ انطلق البدين وولده المترهل إلى حديقة الحيوانات معاً. كانت أم أيوري من جراء قلقها على حالة الربو التي يعانيها وأثر البرد عليها قد جعلته يرتدي ثياباً كثيرة حتى بداكحزمة منها، وما عاد بمقدوره أن يضيف إليها المزيد. أما البدين نفسه الذي كان يؤثر أن يرتدي كلاهما ثياباً متماثلة بقدر الإمكان، فقد ثبت على رأس الطفل وهما في طريقهما إلى المحطة قلنسوة مخروطية الشكل تحاكي تلك التي يعتمرها خلال وجوده خارج الدار، وكانت النتيجة أن الطفل بدا، حتى لعيني أبيه، كأنه طفل من الأسكيمو وصل لتوه قادماً من القطب. وكان ذلك يعني دونما شك أنه من المحتم أنهما لاحا لعيون الآخرين لا في صورة شخصين غليظين وإنما لاحق أباً وابنه بدينين قدما من بلاد الأسكيمو. دلفا إلى القطار متضخمين بالملابس كأنهما زوج من النقانق، وقد تماسكت أيديهما في إحكام والعرق يقطر من قنطرتي أنفيهما، وتمتع جلدهما بأسره تحت ملابسهما والذي اكتسب حمرة من تدفق الدم إلى وجهيهما البدريين حيث ظهر للعيان بين قبعتيهما المخروطتين وياقتي معطفيهما العاليتين، باهتزازات القطار المهدهدة.

كان أيوري يحب تلك الإثارة النابعة من الاستسلام لشعور بالحركة المهدهدة، وذلك هو السبب في ولعه بالدراجات. إن جسده الذي لم يستقر قط يحميه جسد آخر، وكان جسد الأب البدين يؤدي هذه الوظيفة بصورة مثالية. حتى حينما كانوا يستقلون سيارة أجرة، وتلك إحدى مباهج أيوري، كان الطفل يتقلقل على نحو مخيف إذا ما حاول البدين البقاء بالسيارة لدفع الأجرة بعد أن يهبط أيوري وأمه منها. ولو أنه ضل بعيداً عن أبيه في قطار لربما مسه الجنون. بالنسبة للبدين كان ركوب القطار مع ابنه«الذي يعتمد عليه بصورة بالغة في مواجهة الغرباء الذين يتحلقونها من الجوانب كافة، غبطة جلية بلا حدود، وبما أن هذه الغبطة كانت بالمقارنة بالمشاعر التي تخالجه في غمار حياته اليومية خالصة وغلابة، فقد عرف أن مصدرها لا يكمن فيه وإنما هو في الحق السعادة المنبعثة كالغمامة في ذهن ولده المرتبك المشوش تصله عبر أيديهما المتشابكة وتتجلى في وعيه. فضلاً عن هذا فإنه بتعرفه غبطته الذاتية على هذا النحو كان بدوره يدخل على أيوري سعادة جديدة، ذات بؤرة واتجاه هذه المرة ـ هكذا كان منطق البدين.

لقد أشار الطبيب إلى أن أيوري يفتقر إلى القدرة على الإبصار بوضوح عن بعد، وكان فيما يبدو محقاً؛ إذ أن أيوري خلافاً للأطفال الآخرين لم تفتنه قط مشاهد الطبيعة وهي تبدو من القطار مسرعة في ابتعادها. كان يستمد متعته بصورة خالصة من اهتزاز القطار وإسراعه، من الشعور بالحركة، وحينما يقتربون من إحدى المحطات يغدو فتح وإغلاق لباب الآلي مناط سروره. ومن الطبيعي أن أيوري كان ينبغي أن يرقب هذا من بعد يقل عن ثلاثة أقدام، لذا كان يقف مع البدين عند العمود أمام الباب حتى حينما تكون هناك مقاعد شاغرة.

أما اليوم فقد كان أيوري مهتماً جداً لانشغاله بتثبيت قبعته الجديدة، ولما كان المعيار الذي يقيس به الأمر لا يتمثل في مظهر القبعة، وإنما في ملمسها على جلده، فلم يكتشف الشعور النهائي بالاستقرار والراحة إلا بعد سلاسل طويلة من التعديلات، وأخيراً جذبها حتى أذنيه بل وحتى جفنيه. وحذا البدين حذوه وشعر حقاً بأن القبعة المخروطية لا يمكن أن تعتمر بشكل أكثر مدعاة للراحة من هذا، وعند المحطة التي يتعين عليهما أن يستقلا فيها قطاراً آخر، وفيما هما يمضيان عبر أبهاء قطار الأنفاق ويصعدان الدرج ويهبطانه، كان البدين يحس بالعيون الساخرة ترمقهما باعتبارهما ثنائياً غير مألوف، ولكن البدين كان يتوقف وهو أبعد ما يكون عن الشعور بالخجل حينما يشاهد صورتيهما الضخمتين المربعتين منعكستين على صقال واجهة معروضات في رواق قطار الأنفاق، ويهتف بحرارة كما لو كان المكان ملكاً لهما وحدهما:

- أيوري، أنظر! أب بدين وابنه من الأسكيمو، إننا نبدو أنيقين حقاً!

كانت يد أيوري تعمل عمل حائط في مواجهة الآخرين، فتحيل البدين الذي كان يتعين عليه أن يتناول المهدئات حينما يغادر الدار إلى شخص انبساطي. على هذا النحو كان الإمساك بيد ابنه يطلق سراحه ويسمح له بأن يشعر حتى في وجود جمع من الناس بأنهما معاً وحدهما وأن شاشة تحميهما.

فيما أيوري ينقل قدميه بحذر على امتداد الطريق، محدقاً فيهما كما لو كان يقرر بعينيه الكليلتين ما إذا كان نموذج رقعة الشطرنج الذي يجمل البهو مستمراً على مستوى واحد أم أنه يرقى إلى درج، كرر في تهذيب أثار ارتياح أبيه:

- أيوري نبدو أنيقين حقاً!

عبر أيديهما اللتين بللها العرق رغم أن الوقت كان ضحى يوم شتوي، كان البدين وولده

في حالة تواصل قصوى حينما بلغا حديقة الحيوانات في العاشرة والنصف، أو هكذا تصور البدين مغتبطاً بنتيجة التجربة التي لا تزال بكاملها أمامه. هكذا لم يشعر بخيبة الأمل بشكل خاص حينما اقتربا من المنطقة المسيجة المسماة بحديقة الحيوانات المخصصة للأطفال حيث تتاح مداعبة الماعز والحملان الصغيرة والخنازير الوليدة والأوزات والديكة الرومية الكهلة. ورأياها بالغة الازدحام بالأطفال الذين أقبلوا في رحلات مدرسية على نحو لا يتيح لطفل صغير بطيء الحركة مثل أيوري أن يشق طريقه للداخل. كانت زوجة البدين في المقام الأول هي التي أرادت أن يدنو أيوري إلى مسافة ثلاثة أقدام من الحيوانات ليرقبها ويمسها، لكن البدين كان يفكر في شيء مختلف، فقد اعتزم أن يتحدى تشخيص طبيب العيون بأن يؤدي وظيفة عيني أيوري، لسوف يركز على الحيوانات بحدة وهي على بعد ثم ينقل صورتها من خلل سلك التوصيل المتمثل في أيديهما المتشابكة، عندئذٍ فإن بصر ولده سيستجيب للاشارة ويبدأ تدريجياً في تبين الجسم موضع الإبصار. كان تحقيق هذا الإجراء الذي يبدو كالحلم هو الذي أحضر البدين إلى حديقة الحيوانات بناء على هذا، وبعد نظرة واحدة إلى الأطفال الملوحين بأكياس الفشار والأكواب الورقية المليئة بالحلوى وهم يضجون وقد ارتسم الانفعال في أعينهم حول الحيوانات المثيرة للرثاء الصغيرة الحجم في المنطقة الخاصة المسيجة، ابتعد البدين عن حديقة الحيوانات الخاصة بالأطفال ومضى بأيوري نحو أقفاص الحيوانات الأضخم والأكثر شراسة.

- قل لي يا أيوري منذا الذي يأتي إلى حديقة الحيوان ليشاهد حيوانات برية في وداعة الأبقار! لقد جئنا هنا لنشاهد الدببة والفيلة ولنرى الأسود بصفة خاصة. ألا توافق على هذا يا أيوري؟ جئنا لنشاهد الحيوانات الكاسرة التي يمكن أن تكون أكثر أعدائنا شراسة لو أنها لم تكن وراء القضبان.

لم يستجب ابن البدين لهذا الرأي المطروح على نحو مباشر لكنه، مثل حيوان وليد ترك في قلب الأدغال فتشمم وجود الخطر، بدا وقد تفاقم شعوره بالقلق، فابتهج البدين لشعوره بأنه قد لقي المتابعة والفهم.

- انظر، أيوري، نمر! أترى هذا الحيوان الجسيم الهائل ذا الخطوط الطولية السوداء القاتمة والصفراء والبقع البيضاء القليلة وهو يتحرك مقبلاً إلى هنا؟ طيب، إنه نمر، أيوري يرى نمراً!

- أيوري يرى نمراً.

رددها ولده كالببغاء، وقد رصد وجود شيء ما بإحساسه برائحة كانت يقيناً شديدة

الوطأة، فشد على راحة أبيه فيما راح وجهه البدري المتضرج حمرة ينتفض، وواصل التحديق شارداً في البقعة التي تغوص فيها القضبان متراجعة في الأرضية الملاطية للقفص.

- أيوري، أنظر عالياً نحو السماء، إنك ترى الوحش الأسود المشعر القابع على الشيء البني المستدير، هذا إنسان الغاب، أيوري يرى قرداً ضخماً!

خطا البدين دون أن يفلت يد ولده خلفه، وبذراعه الخالية ثنى رأس الطفل للخلف ممسكاً به إلى جانب فخذه. نظر أيوري وقد طلب منه أن يتطلع إلى أعلى بهذه الصورة المائلة إلى وهج السماء الشتوية الصافية، وقد قلب وجهه إلى تقطيبة مؤلفة من تجاعيد رقيقة جعلته يزداد شبهاً بأطفال الأسكيمو، ربما لم تكن تقطيبة على الإطلاق وإنما ابتسامة تعرف وإدراك، ربما تبين إنسان الغاب القابع على نحو غير مريح فوق إطار سيارة عتيق والسماء الزرقاء تحف ظهره. لم يكن بوسع البدين القطع بشيء محدد.

- أيوري يرى قرداً ضخماً!

كررها الطفل الصغير البدين وأحباله الصوتية تنقل هزتها مباشرة إلى يد أبيه الملتفة حول ذقنه.

أبقى البدين قبضته محكمة حول رأس أيوري مراهناً على أن إنسان الغاب سيتحرك من موضعه. كانت السماء قد ظلت تمطر حتى الفجر، وثمة ريح لا تزال تهب مطلقة السراح إلى الأعالي، الأمر الذي أضفى على زرقة السماء بريقاً قاسياً نادراً ما عرفته طوكيو. كان إنسان الغاب ذاته أشد ما يمكن أن يكون قتامة وتعملقاً وأطرافه تتداخل في حيوية مع السماء التي تلفه في أحضانها. أضف إلى ذلك أنه كما علم البدين من مجلة حديقة الحيوان كان كسولاً إلى حد أنه كان بحاجة إلى جرعات يومية من المنشطات ليواصل الحياة إذ كان مصاباً بسوداء ضارية. هكذا كان إنسان الغابة هذا يملك كل ما يؤهله ليكون هدفاً لنظر أيوري. ولكن لسوء الحظ بدا أن مزاجه السوداوي كان عميقاً حقاً، فعلى الرغم من أنه كان يطل محدقاً إلى أسفل بعينين أفعمتا بالشك إلى الرفيقين المنتصرين متذرعين بالصبر أمام قفصه، إلا أنه لم يبد ما يشير حتى إلى استعداده للحركة. وشرع بريق السماء بالفعل يبعث الضيق في عيني البدين حتى لاح له القرد كما لو كان هالة معتمة. ومضى أخيراً بولده في اكتئاب بعيداً عن قفص إنسان الغاب. وأحس بالإرهاق يخالجه. وخشي أن ينتقل هذا الشعور إلى ولده من خلال قناة الاتصال المتمثلة في أيديهما المتشابكة. وتأمل حالماً كمية العقاقير المخدرة التي

يستهلكها إنسان الغاب كل يوم. اهتز مستاءاً لتذكره أنه نسي أن يتناول المهدئات التي اعتادها قبل مغادرة الدار في ذلك الصباح.

لكنه جدد، وهو أبعد ما يكون عن الاستسلام، عزمه على أن يقوم بدور قناة الرؤية، ناقلاً إلى مخ ابنه مشاهد الحيوانات الخطرة في الحديقة. ربما كان يستحث نفسه خشية أن ينقل إلى ولده، الذي كان يقلد أباه على نحو آلي وهو يوجه نظرته الكليلة غير المركزة لا إلى الحيوانات بقدر ما يصوبها نحو النجيل المتناثر النامي بين الأقفاص والحواجز أو البقايا الملقاة هناك أو الحمامات اللحمية التي تعمل مناقيرها الفظة الجافية في البقايا ـ حالة مزاجية ولدت في أعماقه من رحم الخضوع لطبيب العيون ذاك الذي أوقع كل ضروب الإيذاء بولده مرتدياً زيه الطبي المتسخ المنتفخ كالحقيبة ولحم وجهه المدخن كوجه حشرة ينتفض متوتراً لا لشيء إلا ليدلي بتشخيصه الذي يملأ القلب يأساً. وعكف كذلك على مقاومة الاشمئزاز الضارب الجذور الذي هدد بأن يصبغ غسق روح ولده مع رأسه. والحق أن رائحة أجساد الحيوانات التي لا حصر لها وبقاياها قد أصابته بالغثيان، ووخزته ببوادر صداع نصف الرأس منذ اللحظة التي سبقت دخولهما الحديقة. كانت حساسية الأنف على وجه اليقين إحدى الصفات التي تقف برهاناً على رابطة الدم التي تمتد وشائجها بينهما. ورغم ذلك واصل البدين، تحدياً لهذه الكائنات المؤذية، تجواله في أنحاء الحديقة ممسكاً بيد ولده بمزيد من الإحكام ومخاطباً إياه بانطلاق أكبر:

ـ لا تنس، يا أيوري، أن الإبصار يعني الإمساك بشيء ما بخيالك، فحتى لو كنت تتمتع بأعصاب بصرية عادية فلن ترى شيئاً ما لم تود إطلاق عنان خيالك فيما يتعلق برؤية الحيوانات هنا. لأن الشخصيات التي نصادفها هنا في الحديقة مختلفة تماماً عن الحيوانات التي اعتدنا رؤيتها في حياتنا اليومية، والتي لا تتطلب أي خيال على الإطلاق لادراكها. خذ هذه الألواح البنية الخشنة بكل هاماتها الحادة التي تتزاحم في ذلك الماء العكر هناك، أيوري! كيف يمكن لانسان تجرد من الخيال أن يعرف أن هذه الألواح هي تماسيح؟ أو هاك هاتين الشريحتين من المعدن الأصفر المتأرجحتين ببطء جيئة وذهاباً هناك وراء ذلك الكوم من القش والبقايا، أنى لك أن تعلم أن ذلك لا يعدو أن يكون جزءاً من قتب وحيد القرن؟ أيوري! ألق نظرة فاحصة على ذلك الشيء الرمادي الضخم الذي يحاكي جذع شجرة! طيب، هذا بالصدفة ليس إلا أحد قوائم فيل، لكن من الطبيعي تماماً أن النظر إليه لا يخلق لديك كبير انطباع بأنك قد رأيت فيلاً ـ قل لي، يا

أيوري، لم يتعين أن يولد طفل صغير في دولة تقوم على أرض جزيرة في آسيا متمتعاً بخيال يتصور به الفيلة الإفريقية؟ الآن إذا ما سئلت لدى عودتنا للدار عما إذا كنت قد رأيت فيلاً فما عليك إلا أن تنسى الكتلة التي تشبه جذع الشجرة ذات المظهر المضحك وأن تفكر في الفيلة البديعة التي يسهل استحضار ذكراها كالصور المتحركة التي سبق لك أن رأيتها في كتبك المصورة. عندئذٍ امض قدماً وقل: أيوري رأى فيلاً! لا يرجع ذلك إلى أن الشيء الذي يشبه جذع الشجرة والرمادي اللون القابع هنا ليس حقيقياً، فهو حقيقي، وذلك هو ما يعنونه بالفيل الحقيقي، لكنه ما من طفل واحد من الأطفال العاديين المتزاحمين في هذه الحديقة يستخدم خيالاً أصيلاً لإعادة تركيب الفيل الحقيقي مما لاحظه إذ شاهد جذع الشجرة، لا، إنه يضع الصور المتحركة للفيلة الموجودة في رأسه موضع ما يرى، هكذا فليس ثمة ما يدعو أحداً إلى الشعور بخيبة الأمل لأنك لم تتأثر حينما صادفت فيلاً حقيقياً.

فيما كان البدين منهمكاً في هذا الحديث العبثي، محادثاً ابنه في بعض الأحيان، ومحاوراً نفسه أحياناً أخرى، شقّا طريقهما تدريجياً عبر ممشى منحدر، وضرباً في مسيرهما إلى ممر ضيق شيد ليبدو كصدع وسط الصخور. واصل حديثه، لكنه أحس بتوازن قلق يجري الحفاظ عليه عند حافة وعيه وقد دفع إلى الداخل وأغلقت عليه المداخل من خلال الابتهاج بالابتعاد عن الزحام، وقلق من نوع كان في بعض الأحيان يطبق على صدره. فجأة قفزت من الأرض حيث كانت تجثم متربصة على هيئة حلقة مجموعة من الرجال، ترتدي ملابس العمال تصيح على نحو غير مفهوم، واكتشف البدين أنه وولده قد حوصرا. وفيما كان الفزع يصطخب منتشراً كالفطر في صدره نحى وعيه بعيداً عن أيوري حيث يود لو بنى، وألقى به إلى الرحاب الخارجي ـ لم يخلفا الجماهير فحسب وراءهما، وإنما ضلا طريقهما إلى زقاق يشبه وادياً ضيقاً خانقاً. كان هذا المكان مؤخرة الموضع المخصص للدببة القطبية. بعيداً إلى أسفل على الجانب الآخر من مرتفع من الأحجار الطبيعية كومت لتبدو كصخور جبلية كان هناك حائط جليدي منحدر لتتدحرج عليه الدببة ومسبح لتتريض فيه. بالنسبة لمن ينظر إلى هذا المكان من الجانب الآخر سيبدو له قمة جبل مجهول مرتفع وراء حائط من الجليد وبحر. كان البدين وولده قد ضلا طريقهما إلى وراء مجموعة الجبل الجليدي. ربما كان هذا الممر السري يستخدم من قبل عمال الحديقة للوصول للمنطقة الجليدية الصناعية السفلى، حينما يرغبون في تغذية الدببة، أو تنظيف المسبح والمنحدر الجليدي، وإن كان من العسير التصديق بفعل الرائحة المقيتة المنبعثة بأنهم يقومون بالكثير

من عمليات التنظيف. الآن وبعد أن أدرك البدين أين هو داهمت رائحة مقيتة منبعثة من مؤخرة الحديقة، من جانب الحيوانات، رائحة قاتلة للبشر على وجه التقريب، جسده كأنها جيش من النمال.

ولكن من هؤلاء الرجال؟ ماذا يصنعون وهم جاثمون في مؤخرة هذا الممر؟ لم أحدقوا بالبدين وولده بمثل هذا العداء الوحشي لا لشيء إلا لأنهما ضلا السبيل فوصلا إليهم؟ وصل البدين سريعاً إلى استنتاج أن هؤلاء الرجال من فتية العمال الذين اختفوا هنا ليعكفوا على التقامر. لم يكن أمامه إلا أن يطلق العنان لوعيه ليتخارج من المجال الخاص لحواره الحاد الجانب مع أيوري، والذي سجن فيه إلى الخارج ليكتشف على التو دلائل المقامرة التي لم تكتمل. لقد كانوا يتقامرون علانية. في غمار حوار شخصي تماماً اقتصر على البدين وولده، حوار يدور حول محور أيديهما المتشابكة اقتحما متوغلين وكر هؤلاء الرجال، أو في عرف الحيوانات مجالهم، بحيث لم يعد بإمكانهما تجنب المواجهة مع المقامرين.

شرع البدين في التراجع ولا يزال ممسكاً بيد ابنه، وقد فقد الطريق إلى الكلمات التي تمس حاجته إليها تحت وقر هذه اللحظة. ولكن أحد الرجال كان يقف بالفعل معترضاً الطريق خلفه، وراح آخر يلكمه حتى وهو يحاول التراجع. بدأ تحقيق ضار معه، وراحت أزواج عديدة من الأذرع تنخسه وتدفعه. أأنت من رجال الشرطة؟ مرشد؟ هل عكفت على كل هذا الحديث من المذياع ليسمعك أصدقاؤك من رجال الشرطة جميعاً؟ وفيما انهالت عليه اللطمات واللكمات حاول أن يوضح الأمر. لكن ما قاله لم يزد على أن أثار غضب الرجال. لقد كنت طوال جيل كامل تملأ الدنيا حديثاً ولم تتوقف إلا منذ هنيهة، وعلى نحو جاد أيضاً، أهذا هو الأسلوب الذي تحدث به طفلاً كهذا؟ احتج قائلاً أن ولده أعمى على وجه التقريب فضلاً عن أنه متخلف ذهنياً؛ لذا كان عليه أن يوضح كل ما يحيط بهما تفصيلاً وإلا فلا معنى لشيء عنده. ولكن كيف يستطيع أبله صغير أن يفهم كل تلك الكلمات المنمقة. وهذا الطفل يبدو عليه العته حقاً، أنظروا إليه! لا يبدو عليه أنه يفهم كلمة مما تقول. وشرع البدين في القول بأنهما يتواصلان من خلال أيديهما المتشابكة، لكنه أطبق فمه المتورم الذي شبع لكماً وقد غمره شعور بالإحباط، كيف يمكنه أن يأمل في جعل هؤلاء الأوغاد يفهمون العلاقة الفريدة التي تربطه بولده! بدلاً من المحاولة اجتذب أيوري محاولاً حمايته، شرع في ذلك. فجأة انتزع أحدهم يده من يد الطفل الحارّة المبللة بالعرق. أمسكوا به من رسغيه وكاحليه، ورفعته إلى الهواء أيادي الرجال، الذين واصلوا

إمطاره بالتهديدات وهم يؤرجحونه إلى الأمام وإلى الخلف كما لو كانوا سيطيحون به فيلقونه إلى الدبة القطبية. رأى نفسه يؤرجح جيئة وذهوباً، وهو مستسلم في سلبية كغرارة دقيق على هذا الارتفاع المذهل، ورأى بوضوح، وإن يكن على نحو متقطع، السماء والأرض تدوران، المدينة النائية، الأشجار، وتحته مباشرة، في قاع غدا الآن جهنمي الغور، المسبح ومجثم الدبة القطبية. دفن ذعره وخوفه الانعكاسي تحت ركام من اليأس أشد غرابة وأكثر تجذراً وشرع في الصراخ بصوت غير مألوف حتى لأذنيه، صرخات بدت له وكأنها لا بد أن تحرك كل حيوانات الغابة، فتدفعها إلى النباح والزئير استجابة لها. وفيما كان يؤرجح فوق المسبح بين أيدي قطاع الطريق ويدار ويعاد إلى موضعه مرة أخرى (بدت له القوة التي يتم بها هذا وكأنها مقدمة لإلقائه إلى مسبح الدب الغارق حتى كتفيه الطميين الضاربين إلى الصفرة تحته) أدرك في صفاء كصفاء المندالة[1] التي يتداخل على صقالها. كالوحي ذاته، الزمان والمكان بالعديد من الطرق، اليأس المطبق قبضته عليه ناتئاً من العبارات الثلاث التالية:

أ - حتى إذا فهم هؤلاء الأوغاد أنني لست مرشداً فبإمكانهم القائي في يسر إلى الدب القطبي لمجرد التسلية لا لشيء إلا لإطالة أمد انفعالهم، الحق أنهم ينتمون إلى النوعية القادرة على هذا.

ب - إما أن يلتهمني الدب القطبي الذي سيكون غضبه مبرراً إذا اقتحمت عليه أرضه أو سأجرح في ذلك الماء القذر فيبلغ بي التهافت حد العجز عن السباحة. وحتى إذا نجوت من هذا كله فمن المحتمل أن أجن خلال ثلاثين ثانية أو نحو ذلك - إذا كان الجنون هو الذي دفع أبي إلى الاعتكاف طوال هذه السنوات حتى لقي حتفه فكيف يسعني الهرب ودماؤه تجري في عروقي؟

ج - كان على أيوري دوماً أن يتلمس من خلالي النافذة الوحيدة للفهم التي تطل على العالم الخارجي، وحينما يحيل الجنون ذاته الممر إلى متاهة حاق بها الدمار سيتعين عليه الانكفاء إلى حالة من العته أكثر ظلاماً من ذي قبل، سيصبح ضرباً من الحيوانات الوليدة المطاردة ولن يشفى من هذا قط، وبتعبير آخر فإن شخصين يوشك أن يقضي عليهما.

---

(١) المندالة: رمز الكون عند الهندوس والبوذيين (هـ. م.).

واجه البدين تشابك هذه المشاعر بظلمة لا قرار لها من الحزن والغضب المحبط، فسمح لنفسه بأن يتردّى صائحاً صارخاً إلى أغوارها، وفيما هو يتردى صارخاً في الظلام رأى عينه وقد جردت من أي غطاء، والبؤبؤ الذي يملأ مركزها البني المعتم معبراً عن الخوف والألم وحدهما، عين حيوان أصابه رشاش ماء ثقيل، فبلله الرذاذ القذر. وصرّت أنياب الدببة القطبية المندفعة وارتطمت مخالبها راعدة حوله، لكن الأمر لم يعد أن صخرة انهارت من الكومة التي دفعت إلى حد التهاوي، وكان هو لا يزال يطير عالياً بين أيدي قطاع الطرق، كان بسبيله للتحول إلى عين واحدة هائلة ترفع عالية في الهواء، كانت الكرة البيضاوية الشهباء هي العالم الذي عاشه بأسره، تمام نفسه وكمالها، وفي طيات مركزها البني المضبب قليلاً دوّم الألم والخوف وأنشداه الجنون في حلقة متشابكة على غرار الأنموذج الذي يرى داخل كرية زجاجية ملونة. لم يعد يملك من حضور الذهن ما يكترث معه بولده. بل لم يعد البدين، إنما غدا عيناً بيضاوية شهباء، عيناً هائلة تزن مائة وسبعين رطلاً.

كان الليل قد أرخى سدوله على حديقة الحيوان حينما أكمل رجوعه التدريجي من رحاب العين العملاقة إلى ذاته. (حسب من الرائحة الوحشية الناضحة من جلده وملابسه والتي حاكت اصبعاً قذراً يدفع في صدره أنه قد سقط بالفعل إلى المسبح. لم يعلم إلا فيما بعد أنه قد أصابه رشاش الماء الذي أحدثته صخرة) وبدأ يستفسر في اهتياج عنيف عن ولده الذي غدا بحسب علمه يحاكي نوعاً من الحيوانات الصغيرة فلقي حتفه جنوناً. لكن الطبيب البيطري (!) الذي كان عاكفاً على العناية به أصر في بداية الأمر على أنه لا مجال للحديث عن طفل صغير، ثم حاول استخدام الأمر لجعل البدين يتذكر ما وقع له. قال هذا الطبيب إنه قد عثر عليه عقب موعد إغلاق الحديقة ولدى القيام بتنظيفها وهو منخرط في البكاء بمرحاض عام بالجهة المقابلة على وجه التقريب لمأوى الدببة القطبية. ولساعات عديدة عقب ذلك لم يندّ عنه إلا هذيان شارد عن ولده. وأصر البدين على أنه لا يذكر تحركاته ساعات جنونه التسع أو نحو ذلك.. ثم أمسك بالبيطري، وراح يناشده العثور على الطفل الصغير الذي لقي حتفه جنوناً وهلعاً أو هو يوشك على أن يلقاه. عند ذلك أقبل أحد موظفي الحديقة الى المكتب حيث تمدد البدين على فراش صغير خشن (كانت هناك أنواع عديدة من الحيوانات المحنطة في المكان تبدو بوضوح للعيان) وذكر أنه صحب بنفسه طفلاً ضالاً إلى رجال الشرطة. وانطلق البدين إلى قسم الشرطة دون أن يهدأ روعه، وهناك التقى أيوري مجدداً. كان ولده البدين قد أنهى لتوه عشاء متأخراً مع بعض رجال الشرطة

الشبان، وراح يشكر كلاً منهم بدوره.

ـ أيوري، قطع اللحم في الحساء والبيبسي كولا كانت جيدة!

سأل البدين ولده محاولاً تقديم دليل على أنه ولي أمر الطفل، اضطر أخيراً إلى الإتصال هاتفياً بزوجته، ثم انتظر في قسم الشرطة إلى أن وصلت لتصحبهما للدار.

على هذا النحو فرضت حرية قاسية على البدين اعترضت سبيله بعد أربع سنوات وشهرين من الميلاد غير الطبيعي لإيوري، ولده.

انتزعت المعركة التي خاضها البدين عن وعي هذه المرة من أجل حرية أخرى إخطاراً مطبوعاً من أمه، لكن بخلاف ذلك لم يقع أي تقدم على الجبهة؛ إذ أبت أن تبدي المزيد من الاستجابة وواصلت تجاهل رسائل ولدها ومكالماته الهاتفية المتكررة. رفضت استلام الرسائل، ولم ترد على الهاتف لدى محادثته لها.

في وقت متأخر من إحدى الليالي، وبعد أسابيع عديدة على هذا النحو، شحذ البدين همته واتصل هاتفياً من جديد بأمه، تلقت عاملة الهاتف بالقرية المكالمة برد ياباني رسمي مثالي، لكنها بعد أن عادت للرد مجدداً بعد لحظة صمت خاطبت البدين باسمه مباشرة (حيث أنه كان الوحيد من بين سكان طوكيو الذي يسجل مكالمات خارجية إلى هذا الوادي الصغير. كانت العاملة تعرف ممن والى من تأتي المكالمة بمجرد سماعها الرقم يطلب، وربما كانت تتلصص على المكالمة كذلك، وهو أمر خطر بذهن البدين غير أنه كان أكثر تشتتاً من أن يتابعه) ثم اعتذرت له بلهجة ودودة، الأمر الذي عبر عن تعاطفها وحيرتها.

ـ ليس هناك رد الليلة من جديد أياً كان عدد المرات التي أطلب فيها الرقم، إنها (تقصد أم البدين التي تقطن وحدها دار العائلة) لاتغادر الدار إلى أي مكان قط، وبالإضافة إلى ذلك فقد انتصف الليل، إنها تتعمد عدم الرد على الهاتف في كل مرة تخابرها! ليس هذا بالصواب، أتريدني أن أمضي بدراجتي لأوقظها؟

هكذا طلب البدين هذا المعروف الخاص من العاملة. لم ينقض وقت طويل إلا وقد جاء الرد. لم تقل أمه شيئاً بل اكتفت برفع السماعة والإمساك بها في صمت. ما أن نحى عن ذهنه عاملة الهاتف الودود التي ربما هرعت عائدة إلى لوحة التحويل مستخدمة دراجتها (واجب بحكم المهنة) وراحت تتلصص على الحديث، بدأ في حديث مقنع مفعم بالتهديد إلى حد ما مع أمه المصغية:

ـ من كنت تظنين أنه سيصدق الأكاذيب التي تضمنها ذلك البيان؟ وترسلينه إلى أقارب

زوجتي! أماه، إذا كنت قد جننت جراء مرض أصبت بعداوه في الخارج، وولد الطفل غير عادي نتيجة لهذا فلا بد أن أم الطفل قد أصابتها العدوى كذلك. أليس الأمر على هذا النحو؟ لكنك أرسلت بيانك مباشرة إلى زوجتي، أم الطفل يا أماه! الآن كل ما أحتاجه هو أن تخبريني بأنك لا تصدقين حتى نفسك فيما كنت تلمحين إليه عن مرضي وجنوني.. أم تراك وقعت بنفسك في شرك تلك الحيلة القديمة المتمثلة في ادعاء الجنون؟ طيب. إن هذا الاجراء المعتاد أمر عتيق للغاية، فلن تخدعي أحداً بهذه الطريقة ودعيني أقل لك شيئاً، إذا كان بمقدورك الادعاء بالجنون على قدر من الإتقان يتيح لك خداع أحد من جديد فإنك ما عدت تتظاهرين وإنما أصابك الجنون حقاً...

أماه، لم لا تتحدثين؟ إنك تخفين مذكراتي لأنك تخشين أنني إذا نشرت شيئاً عن أبي فسيظن كل معارف العائلة بأنه كان مجنوناً وأن دمه يجري في عروق أبنائه جميعاً حاملاً معه الجنون وأن ولدي هو الدليل الحي على هذا. أليس الأمر كذلك؟ وأنت تخشين المهانة التي ستحل بساحة اخوتي وأخواتي أليس هذا صحيحاً؟ ولكن ألا تدركين أن ادعاء الجنون والإعلان بأن مرضاً خبيثاً دفعني إلى الجنون سيسفران عما هو أسوأ من ذلك؟... أماه إنني لم أنته إلى القطع بأن أبي لقي حتفه جراء الجنون. ولست أبغى إلا معرفة ما حدث حقاً. كان إخوتي الأكبر سناً منخرطين في صفوف الجيش والآخرون صغاراً بعد لا يزالون، من ثم فإنني الوحيد بين الأطفال الذي يذكر أبي مطلقاً صرخة فجأة ثم ملاقياً حتفه في ذلك المخزن الذي كان معتكفاً فيه. ذلك هو السر في أنني أريد أن أعرف جلية الأمر. وتسألين لم أنفرد بهذا وحدي، وحدي من بين كل الأطفال الذي يواصل الشعور بالقلق إزاء سنوات أبي الأخيرة وموته، سأحدثك بالسر، أماه، لأنني يتعين عليّ حقاً أن أعرف. اعتدت القول حينما تنحيني جانباً: (لدى الأولاد الآخرين أمر مهمة تشغل أذهانهم وأنت تسأل أسئلة كهذه!) لكن معرفة ما حدث حقاً هو أمر مهم بالنسبة لي.. أماه، يراودني الشعور بأنني إذا لم أكتشف جلية الأمر سأعتكف إن عاجلاً أو آجلاً في مخزن أصطنعه لنفسي، وذات يوم ستندّ عني صرخة فجأة، وفي اليوم التالي ستقول زوجتي لأيوري ما قلته أنت لي ولا مزيد على ذلك: (لقد قضى أبوك نحبه، لا ينبغي أن تبكي أو تبصق أو تصطنع ضجة هان شأنها أو عظم في غفلة من التفكير وبصفة خاصة حينما تواجه الغرب!)... أماه، لا بد أنك تذكرين الكثير عن أني... ألم تطلبي من زوجتي ألا تحمل (الولد الصغير) محمل الجد إذا ما شرع في تمجيد سلوك أبيه خلال السنوات الأخيرة جالساً في مخزن دونما حراك وقد غطى عينيه وأذنيه؟ ألم تقولي لزوجتي إن عليها ألا تصدق للحظة واحدة أنه قد فعل ذلك احتجاجاً على العصر،

لأنه أراد أن ينفي واقعية عالم تشن فيه اليابان الحرب على الصين التي تجلها؟ ألم تحدثيها بأن الجنون هو الذي جعله يأتي ما فعله؟ بل أما قلت بأن أبي كان مترهلاً كالخنزير حينما لقي حتفه لأنه كان يحشو جوفه بكل ما يستطيع أن يضع يده عليه من طعام دون أن يحرك شيئاً إلا فمه ثم ألمحت إلى أن الخجل أخذ منه لكونه الرجل الوحيد البدين في وقت كان الطعام فيه شحيحاً للغاية؟ تقولين كل هذا لزوجتي ثم لا تحادثينني على الإطلاق، بل وتسرقين المذكرات التي دبجتها حول أمور أفلحت في تذكرها بنفسي. كيف يسعك أن تأتي هذا أماه؟ . . . في ذلك الصباح توهمت زوجتي أني أوشك على الانتحار شنقاً قلت لها ان أبي لم يكن قط في عجلة من أمره وأنه كان يعرف أن كل ما يأتيه زائف ومصطنع لأنه كان يقول لنفسه إنه ليس متعجلاً حينما يشرع في شيء ما، لكنه لم يلحظ الأثر الذي تركه ذلك عليه بالفعل وإن كان ضئيلاً في كل مرة، لم يكن واعياً به وأن الوقت كان قد فات حينما لاحظه. حدثيني، أماه، ما هذا الذي أتاه أبي دون أن يكون في عجلة من أمره؟ ما الذي فات أوانه؟ . . . أماه، إن كنت تعتزمين مواصلة تجاهلي فإن ثمة أفكاراً تدور في خاطري. لسوف أجلس في غرفة معتمة، مثلما فعل أبي واضعاً نظارة شمسية أو داساً في أذني سدادتين، وسأريك كيف يمكن أن يكون الترهل حقاً. إنني أشبه بالفعل حوضاً مليئاً بالشحم كما تعرفين، وحينما أطلق صرختي الكبرى وألقى حتفي ترى ماذا تعتزمين أن تفعلي، أماه، أتعزين زوجتي بأن تقولي لها إن (الوالد الصغير) واباه قد لاحظاه هذا الذي لاحظاه بعد فوات الأوان؟ أتعتزمين أن تقولي مرة أخرى، حماقة! وتمثلين دور السيدة العظيمة؟ . . . لقد علمت مؤخراً فحسب أن بمقدور ابني أن يواصل طريقه دون حاجة إليّ، معتوهاً على طريقة المعتوهين، وذلك يعني أني حر الآن، إنني بحالة طيبة مثلما تحررت من ولدي، لذا فبوسعي من الآن فصاعداً أن أتعمق بتفكيري في أبي وحده، وأنني حر في أن أجلس على مقعد حلاق في مخزن معتم حتى اليوم الذي ألقى فيه حتفي مثلما فعل أبي. . . أماه، لم تستمرين في التبرؤ مني بالصمت؟ ها أنذا أواصل القول بأنني لا أنشد إلا الوصول إلى الحقيقة فيما يتعلق بأعوام أبي الأخيرة. . . لست أهتم حقيقة بكتابة سيرة حياته، وحتى إن كتبت شيئاً فسأعد بألا أنشره إذا كان هذا ما تريدين. أما زلت ترفضين محادثتي؟ . . . إذا لم تقتنعي بأنني أقول الحقيقة حينما أقول إنني لا أريد إلا أن أعرف ما حدث حقاً فدعيني أقل لك شيئاً، أماه، إن بمقدوري كتابة سيرة حياة أبي تؤرخ جنونه وتنتهي بالانتحار في أي وقت أشاء وبوسعي دفعها للنشر أيضاً، وإذا ما فعلت ذلك فسيكون بمقدورك أن تنفقي كل

دانق مما تملكين على الورق والطبع وإرسال الإعلانات بالبريد ولسوف يصدق أناس بعدد لاقبل لك بمجاراته ما قلت ولن يصدقوك أنت! إن ما أقوله لك هو أنني لا أكترث كثيراً باسترجاع مخطوطي، إنما أردت فحسب أن أسمع الحقيقة منك لأني ينبغي أن ألم بها أماه، إني بحاجة إليها. . . صدقيني، لن يكون الأمر معضلة إذا كان المخطوط هو كل ما تمس حاجتي إليه، فربما كان بوسعي أن أتلو عليك مضمونه الآن تواً. أصغي! : (بدأ أبي تراجعه من رحاب الدنيا لأن. . .).

وضعت السماعة في موضعها بهدوء وإن كان مصحوباً بالحزم. عاد البدين إلى فراشه وقد شحب وجهه جراء البرد واليأس، سحب الأغطية فوق رأسه ورقد مرتعداً لفترة طويلة، انتحب خلسة على نحو نكائه في تلك الليلة التي أعقبت تجربته على حافة منطقة الدببة القطبية المسيّجة. تذكر كم انقضى من الوقت منذ سمع صوت أمه حقاً. وفي هذه المرة الأخيرة أفلح من خلال زوجته أخيراً في أن يعلم ما قالته عن أبيه الراحل. عندما يتعلق الأمر بالحديث عن أبيه بصفة خاصة فإنه لا يستطيع استعادة ذكرى المرة الأخيرة التي سمع فيها صوت أمه. وعندما حادثت زوجته أشارت إلى أبيه فيما يبدو باعتباره «الرجل». الرجل. ذكر هذا البدين ببيت من قصيدة في الحماسة لشاعر انجليزي وقد استقر في وعيه دوماً كما لو كان صلاة يرتلها. شأن أهازيج الأرض الطاهرة التي استقرت في وعي جدته حتى لفظت أنفاسها الأخيرة كان جزءاً لا يتجزأ من روحه وبدنه. كانت القصيدة ذاتها بالمصادفة ترتيلة رددت في سمت المعركة ذاتها التي فقد فيها أبوه أصدقاءه الصينيين واحداً وراء الآخر. صوت رجل: «آه، علمنا أن نتجاوز جنوننا!» إذا كان ذلك الصوت هو صوت «الرجل» إذن فإن «جنوننا» يعني جنون الرجل وجنوني. . هكذا حدث البدين نفسه للمرة الأولى. . وفي الماضي حينما كان يهمس بالقصيدة لنفسه كأنما يرتل صلاة كان جنوننا يعني دوماً جنونه وجنون ولده أيوري. أما الآن فقد كان على يقين من أن الأمر لا يتجاوزه والرجل. لقد ألقى الرجل بجسده اللحيم في مقعد الحلاق الذي وضعه في مخزن مهجور، غطى عينيه وأذنيه وراح يصلي دونما هوادة: «علمنا أن نتجاوز جنوننا، جنوني وجنونه!» إن جنون الرجل هو جنوني، هكذا شدد البدين في حديثه مؤكداً لنفسه الأمر، لقد نفي ولده بالفعل فيما وراء تخوم وعيه، ولكن أي حق يخول لأمه أن تسد الطريق المؤدي من جنونه إلى جنون الرجل؟ لم يعد البدين يبكي، لكنه كان لا يزال يرتعد حتى لتصدر أغطية الفراش حفيفاً، لا من جراء البرد وإنما بسبب الغضب وحده.

عندما عدل رؤيته للأمر على هذا النحو لم يعد يربط نفسه بأيوري حتى حينما تأمل أمر

هجوم قطاع الطريق عليه عند حافة مسبح الدببة القطبية، بل كان بمقدوره أن يشعر بأن هذه التجربة كانت لصالحه؛ لأنها على وجه الدقة حررته من عبوديته لابنه، أما ما أبقى غضبه المستشار متأججاً فهو معرفته بأن أمه قد حالت طويلاً بينه حتى تحت طائلة التعرض الآن لخطر أن يطاح به إلى دب جنون قطبي وبين اكتشاف المعنى الحقيقي لذلك النداء الذي ربما كان «الرجل» قريباً للغاية من سماع رد عليه عند نهاية أجله: «علمنا أن نتجاوز جنوننا!».

أخيراً أغفى لكن حنقه ظل متقداً حتى في حلمه: كانت يده الملتهبة تطبق عليها يد وحيد قرن تمتد من رجل جلس وقد أدار ظهره له على مقعد حلاق في مخزن معتم، وراح الحنق يتدفق جيئة وذهاباً بينهما سريعاً مثل تيار كهربائي. ولكن العملاق الغاضب واصل، بغض النظر عن طول انتظاره، التحديق في الظلمة دون أن يتلفت ليواجه الطفل المترهل الذي كان البدين ذاته.

عندما استيقظ البدين أعد نفسه لهجمة أخيرة على أمه، أقسم أن يبدأ في كتابة تاريخ جديد لجنون أبيه في سنواته الأخيرة وأن يجري تحقيقاً حول تجاوز «جنوننا» أي جنون الرجل وجنونه هو. ولكن مرة أخرى اضطر للتراجع إلى موقف الدفاع، فخلال الليل وفيما كان ينتحب ويبكي حنقاً وتراوده الأحلام، كانت أمه من بعد النظر بحيث حاكت خيوط استراتيجية خاصة بها. ومع إطلال الفجر كانت قد قامت بوضع مسودة إعلان جديدة قطعت فيه حتمياً ساد عقدين من الزمان وتحدثت عن زوجها الراحل. عقب يومين فحسب من اتصاله الهاتفي وصلت إلى داره المذكرات والمخطوط الناقص لسيرة الحياة التي حاول فيها أن يعيد تجميع صورة بكاملها لأبيه الراحل بالبريد الخاص الموصى عليه. في هذا الأسبوع نفسه وصل إعلان جديد كذلك متأخراً ما لا يزيد عن عدد الأيام التي استغرقها الطابع لتنفيذ العمل المسند إليه وإن كان قد كتب دونما شك في الليلة ذاتها التي اتصل فيها البدين هاتفين، وقد وُجه إلى زوجته بالبريد المسجل الموصى عليه:

(كان من واجبي مؤخراً أن أبلغكم بأن ولدي الثالث قد فقد عقله. الآن ينبغي عليّ أن أعلن بأني كنت مخطئة في هذا، وأرجو منكم لطفاً بأن تنسوا الأمر. وبمناسبة هذا الفصل من العام تذكرت أن زوجي الراحل الذي كان على معرفة بالضباط الضالعين في انقلاب معين قد توصل لدى اخفاق هذا الانقلاب إلى الاستنتاج الرهيب القائل بأنه لم يعد أمامه إلا اغتيال سمو الامبراطور. وقد كانت رهبة هذا الأمر هي التي دفعته إلى الاعتكاف

في مخزن حيث بقي حتى موته.

ختاماً أقول إن سبب الموت كان أزمة قلبية، وشهادة الوفاة محفوظة بمكتب المحافظة، وراجية إحاطتكم بما تقدم أظل . .

المخلصة

توقيع

شتاء ـ ١٩٦

ولكن منذا الذي ينقذ الناس؟
أغمض عيني وأمعن الفكر:
عالم دونما متآمرين!
شوكو

رغماً عن أن زوجة البدين لم تبد كبير تأثر بالبيان الأول فإن هذا البيان قد أربكها على نحو مدهش. طوال الجانب الأعظم من إحدى الأمسيات عكفت على مطالعته مختلية بنفسها، عندئذ فحسب، وبعد أن عجزت عن التوصل بنفسها إلى نتائج محددة، أبلغت البدين بوصوله وأرته له، وحينما فرغ البدين من قراءته صامتاً ووقف مبقياً على صمته والبيان في يده تحدثت مفصحة عما يساورها:

ـ أتذكر أن أمك طلبت مني ألا أحمل حديثك محمل الجد حيث تشرع في تمجيد سنوات أبيك الأخيرة؟ أتظن أنها قررت أن تلقي الضوء على هذا كله لأنك جعلتها أخيراً تشرع في كراهيتك بهجومك عليها؟ أتعتقد أن أمك قررت التخلي عنك وأن تلك هي طريقتها في أن تقول: قلد أباك مثلما يطيب لك فلم يعد شيء مما تقوم به يقع في دائرة مسؤوليتها؟

لما كانت صدمة البدين قد نبعت من جانب مختلف تماماً من جوانب البيان فلم يكن بمقدوره إلا أن يتابع أساه في صمت. كان قد شعر في اللحظة التي قرأه فيها بأن هذه اللطمة، شأن تلك التي تلقاها من خلال أيوري، قد وجهت إلى شيء أساسي في ذاته، وما كان من الممكن مواجهتها أو الرد عليها. وطوال أيام عديدة حاول أن يلقي ظلال الشك على الصورة التي رسمتها أمه لأبيه من خلال تدقيق معالم هذه الصورة في ضوء ما يذكره من طفولته وما كان قد سمعه. لكنه لم يستطع العثور بين كل التفاصيل التي جمعها ليكتب سيرة الحياة على شيء يمكن أن يناقض البيان بصورة دامغة.

كانت جدته قد قالت أكثر من مرة إن أباه قد هاجمه أحد القتلة شاهراً سيفاً يابانياً وأنه قد أفلح في تجنب الأذى بأن ظل جالساً في سكون تام في المخزن المظلم دون أن يبدي أي مقاومة. وربما كان القاتل واحداً من المجموعة التي شاركت مع أبيه من خلال الضبّاط الأصاغر في التمرد. ومن المحقق أنه كان رجلاً لا يملك الجرأة شأن أبيه ليقوم بانتفاضة فعلية في المرحلة التالية من التمرد، وقد تبع رعديداً مثله إلى حيث يقيم معتكفاً في عزلته وراح يلوح بسيفه الياباني ويهدد بصورة جوفاء، ولكن ذلك كان كل ما اعتزم القيام به.

ثم هناك مأساة تخليد ذكرى انقلاب معين، التي كانت أحد أحلام يقظة البدين منذ يفاعته، وفي إطارها تقوم أرامل الضباط الأصاغر الذين شاركوا في الانقلاب وقد أصبحن عجائز الآن محتجزات في دار للرعاية بأداء أدوارهن كزوجات شابات قبل خمسة وثلاثين عاماً، فيهاجمن بخناجر مشهرة رجلاً يجلس على مقعد حلاق وقد أدار ظهره لهن (أعلى مسؤول تخلى عن الأنصار أو المواطن الذي أبدى تعاطفه سياسياً وقدم الأموال وكان على اتصال بصفة عامة بالضباط الأصاغر إلى يوم الانتفاضة، وأخيراً خانهم، فانسل من قلبها، وأمضى ما بقي من أيامه مختبئاً في مخزن في قريته بالريف) من المحقق أن المصدر البعيد للفكرة يكمن في أشياء قيلت للبدين في طفولته ربما على نحو يومىء حتى بعد كل تلك المدة إلى مضمون بيان أمه. وعلى أي حال، فمن المحقق أنه عرف بغموض أن هناك بعض الارتباط بين أبيه ومحاولة الانقلاب تلك، إذ كان حدّث زوجته عنه. كان ذلك في ليلة عاصفة في وقت سبق وكان يحكي ذكرى عادية تماماً جددت ذاتها في أعماقه عن والده وهو يحدثه طفلاً في ليلة عاصفة أخرى بأن الحياة تشبه عائلة تنبعث من قلب الظلام، تتضام معاً لوقت قصير أمام شمعة موقدة، ثم تتلاشى فرداً بعد الآخر، ماضية إلى رحاب ظلمتها من جديد.

عكف البدين طوال أسبوع على دراسة بيان أمه وتأمل المذكرات وشذرات المخطوط الذي كتبه عن سيرة حياة أبيه الراحل. ثم في صبيحة أحد الأيام (لم يخلد إلى النوم قط. فلم ينعم بالرقاد في ذلك الأسبوع إلا أربع أو خمس ساعات كل ليلة. وباستثناء وجبات سريعة تناولها في مكتبه) مضى إلى الحديقة خلف الدار وأحرق حزمة من الأوراق تضم كل حرف كتبه عن أبيه حتى تحولت إلى رماد. أطعم النار كذلك بطاقة مصورة كانت مثبتة بدبوس صغير فوق مكتبه منذ جلبها معه من نيويورك لعمل نحتي من جص باريس يشبه أباه على نحو ما يتخيله، يصور رجلاً يوشك أن يركب دراجة من الجص الباريسي. ثم أبلغ زوجته التي كانت قد نهضت من نومها وعكفت على إعداد طعام الإفطار أنه قد غيّر

رأيه بصدد خطة كان حتى الآن يعارضها. كانت خطة لإعداد نظارة لأيوري وإيداعه معهداً للأطفال المعوقين. وكان يعلم أن زوجته قد عادت إلى طبيب العيون ذاك دون إذن منه وأقنعته بأن يأمر لأيوري بنظارة خاصة ربما بالتذلل له وجعلت تدرب أيوري على وضعها على عينيه. كان قد بتر عن ولده بالفعل وتحرر أحدهما من الآخر. والآن أكد أنه بالطريقة ذاتها بتر عن أبيه الراحل وغدا حراً. إن أباه لم يُجنّ وحتى إن كان ذلك قد وقع وبقدر ما أن هنالك سبباً واضحاً لجنونه فقد كان شيئاً مختلفاً تماماً عن جنونه هو. تدريجياً تخلى عن عادة المضي بالدراجة لتناول قطع لحم رأس الخنزير في الحساء، وعلى الرغم من أنه مع اقتراب السن التي بدأ فيها أبوه اعتكافه مالت شهيته إلى الأشياء الدسمة مثل أقدام الخنزير المعدة على الطريقة الكورية إلا أنه كان يفقد من جديد كل رغبة إيجابية في الطعام.

شرع في ارتياد حمام السونا مرة كل أسبوع وفقد مع العرق ترهّله. وذات صباح ربيعي مشرق خرج من ساونا وعكف على الاغتسال بالماء، واكتشف غريباً داكن البشرة كان مع ذلك يهمه كثيراً يقف أمام عينيه مباشرة. ربما كانت لحيرته صلة بالنجار الذي ضبب المرآة، فلم يكن ثمة شك في أنه يرى نفسه.

حدق الرجل عن كثب في الشبح المنتصب وحيداً في المرآة وتبين العديد من نذر الجنون. الآن لم يعد له أب ولا ولد يشاركه الجنون المطبق عليه، ليس لديه إلا حرية مواجهته بنفسه.

قرر الرجل ألا يكتب سيرة حياة أبيه الراحل، وإنما أرسل بدلاً من ذلك رسائل متكررة إلى «الرجل» الذي لم يعد وجوده جلياً في أي مكان الآن «علمنا أن نتجاوز جنوننا!» دوّن على عجل وباختصار سطوراً قلائل بدأت دوماً بالكلمات التالية: «إنني أبدأ تراجعي من الدنيا لأن. . .» وكأنما قصد بهذه المذكرات أن تكتشف بعد موته. أغلق عليها درجاً ولم يرها لأحد قط.

يوم يكفكف دمعي بنفسه

فجأة اختفى دون أن يند عنه صوت كقطرة مطر تغوص في الرمال.

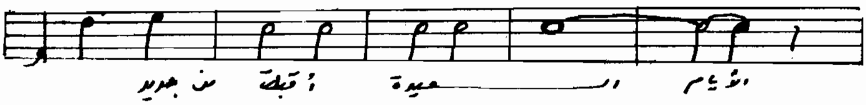
كانت الصورة الوحيدة التي أمسك بتلابيبها بعينيه البعيدتين عن الرؤية الواضحة من خلال النظارات الواقية مما تحت الماء والغارقة في الظلال هي الشكل المنتظم الذي أحدثته الماكينة الدوارة في الشعر عند أطراف لحية الرجل الذي يحمل ملامح بوذا. ولو أن الرجل الذي ولج غرفته في ساعة متأخرة من الليل أزال لحيته لغدا بغير مؤشر يدله على هوية الرجل أو مكانه. هكذا كان الأمر على صعيد موضوعي على الرغم من أنه كان في قرارة نفسه أكثر ثقة من أنه لمح في وجه الرجل الملتحي مثلما بوذا ما يحاكي ملامح (النكرة).

«تتساءل «القائمة بأعمال منفذ الوصية» والتي كانت تدون الصورة التي يرسمها بكلماته: هل يتعين عليّ أن أدون حتى هذا اللون من السخافات؟ وبما أنه كان قد كف عن النظر إلى أولئك الذين لا يشاركونه إلا في الحاضر باعتبارهم أناساً يعيشون معه في هذا العالم، فإنه لا يبذل محاولة للتيقن، كما أنه لا يكترث بالأمر على الاطلاق، فما يعنيه إن كانت «القائمة بأعمال منفذ الوصية» هي زوجته أو ممرضة أو كاتبة رسمية أرسلتها الحكومة أو الأمم المتحدة لا لشيء إلا لتسجيل «تاريخ العصر» الذي يقص وقائعه. يقيناً أنه إذا صح الاحتمال الأخير، فإن الأمر سيكون مربكاً إذا ما حاول جرها إلى فراشه نافثاً رائحة الثوم الذي يستهلك كميات كبيرة منه في محاولة لتحويل ما قد يكون لديه من فائض الطاقة في الوقت الراهن، وهو في الخامسة والثلاثين من عمره وتوشك حياته على الانتهاء إلى طاقة جنسية. أما في الوقت الحالي فإن طاقة روحه وجسده بأسرها تنصرف إلى الحديث، إلى مواصلة الحديث، ولا تشكل زيارات الطبيب المنتظمة لفراشه ولا الدواء الذي تقدمه له الممرضات رغم تناوله إياه بروح تعاونية موضعاً لاهتمام إيجابي من جانبه. فلم إذن تعرف في وقت متأخر من الليل، في الساعة الثانية من بعد منتصف ليل أول يوليو ١٩٧٠ على الطارق الليلي؟ ذلك أنه حتى الآن لم يتضح ما إذا كان بوذا الملتحي ذاك قد ظهر له بالفعل أم انبثق من ساعات بعينها في الماضي في وعيه أو ما دون وعيه، الذي يشكل العالم الحقيقي الوحيد الذي يريده واقعاً له. يقول: الآن، من فضلك، كفى إهداراً للوقت، وعودي إلى التدوين، فكما تعلمين ساعاتي معدودة، وقد أدخل في غمار الغيبوبة الأخيرة غداً، وحينما يحدث ذلك فأنت تعلمين ما عليك القيام به. كل شيء مدرج في الوصية، فاتصلي بمكتب بريد شركة الهاتف في الوادي الواقع بالغابة تواً، أديري الشريط المسجل الخاص بالدخول في الغيبوبة ولا تنسي أن تدبري أمر بطاقة الطائرة، فإذا كنت بسبيلي إلى أن أكيل الضربات حتى النخاع لأمي مرة وللأبد وفق ما تستحقه، فإن حاجتي تمس إلى

تلك البطاقة أكثر من أي شيء آخر. الآن أمضي قدماً بذلك القلم، ولا تبددي الوقت المحدود الباقي أمام الجوهر الجدير بالإشفاق لسرطان الكبد!».

لو أن ذلك التجلي الليلي المتأخر للطارق كان كما يعتقد أولئك الذين يتحلقون حول فراشه حلماً فإن ذلك هو حلمه الأول الذي يبقى متموجاً بالحياة في الذاكرة منذ انتقل إلى هذا «المجثم الأخير» بكبده الذي أصابه الدمار. شأن أي من رجال قبائل البانتو على الرغم من شبابه الغض وهو المجثم الذي تصور متيقناً أنه لا نهوض له منه.

كان هناك من يذكرون أنه ينشج غالباً في نومه، ويشيرون إلى أنه يواجه وضعه الحرج للمرة الأولى في أحلامه. من المحقق أن هؤلاء كانوا هم أنفسهم الذين أصروا من ناحية أخرى على أنه يضلل نفسه بشأن سرطان الكبد، وأن كل ما به هو تليّف كبدي، وأنه لايزال هناك أمل في حالته رغم أن الشفاء لن يكون أمراً يسيراً. كان من ناحية يعتقد أنه لا يذكر شيئاً من أي من أحلامه التي تدفعه إلى النشيج، بل زعم أنه يقضي ساعات يقظته غارقاً في أفكار هانئة متنفساً السعادة. غالباً ما كان يغني بالإنجليزية: «الأيام السعيدة أقبلت من جديد»، ربما ليطرب أولئك الذين يمضون ويجيئون حول سريره (والذين رغم يقينهم من أنهم سيعيشون بعده هو الراقد في فراشه بانتظار لحظة موته كما لو كان ذلك قد أدرج أخيراً في برنامج زمني يلقون منه معاملة من هم في رحاب الأموات بالفعل) لا ليبدي سعادته بالضرورة وإنما ليشنف أذنيه بالأصوات المنسربة عبر عظمة فكه من حباله الصوتية الغريبة، وليبتهج في قرارة الرنين المعقد المتعاطف لأعضائه الداخلية. وبما أن هذا القرار الذي يغنيه يردد بنغمات عالية فإنه إذا بدأ عن طريق الخطأ بالغناء بصوت بالغ الارتفاع لعلا صوته إلى مستوى من الحدة لا يتهدد أسماع من يحيطون به فحسب، وإنما يخلق شعوراً بعدم الارتياح داخله، يبدو كما لو كان يتمركز في غور أعضائه الداخلية. كان يعتقد على وجه القطع أن كبده التي سرعان ما تكمل تحولها إلى كتلة في صلابة الصخر تؤدي عمل مكبر للصوت مغروس في جسده، يردد بأعلى رنين، ويرشح التنافر الراجع في المقام الأول لعناصر عضوية تنبعث من موسيقى أعضائه، راح يغني «لنغن أغنية مرحة مرة أخرى، فالأيام السعيدة أقبلت من جديد» انساب القرار على النحو التالي:



مضى يحدث نفسه قائلاً: الآن فيما توشك أيامي السعيدة أن تبعث أخيراً، وأقضي الوقت في انتظار يغمره الانفعال، ما من أحد هنا يشاركني إياها، والشخص الوحيد الذي شهدها، أمي، يظل معتكفاً في الوادي الغائر في قلب الغابة، ويظل على إصداره لموجات الكراهية العالية التردد ذاتها للهوائي القابع في أعماقي. وربما كان ذلك، وفيما أعمل التفكير في الأمر، هو السبب في إصابتي بالسرطان. وحيث أن الأمر كذلك فيتعين علي التأكد من تسجيل أيامي السعيدة بصورة كاملة خلال هذا الوقت الذي أمضيته وحيداً في فراش بالمستشفى، وأن أضعه وفقاً للعلاقات الصحيحة بين الأمور لكي تقدر الحياة لهذا التسجيل بعد مماتي، أن أسجل كيف أن خيالي منذ انقضاء الأيام الخوالي قد دأب على الحركة عائداً باتجاهها على نحو لا أملك له دفعاً، مثلما طائرة أنموذج في انحدار لولبي شديد التحدر. وقد كان هذا هو ما عقد العزم على القيام به.

غير أنه من حيث كونه مريضاً على حافة الموت مصاباً فيما يعتقد بسرطان الكبد أو على الأقل بافتراض ما هو معترف به موضوعياً، بحالة متقدمة من التليف الكبدي، لم يكن هناك محل للتفكير في أن يعكف على الكتابة بنفسه، حينما أكد ذلك في بادىء الأمر، وطالب بكاتب اختزال، ردت الأصوات الملتفة حول فراشه بأنه إنما يضلل نفسه وأنه إذا ما استرد «وعيه العادي» فحسب بأنه في جناح الجهاز العصبي لا السرطان وليس مريضاً على نحو خطير إلى الحد الذي يعجز معه عن الإمساك بالقلم، وأن بمقدوره دونما شك الكتابة لعدة ساعات دونما انقطاع، وباستخدام أداة في ثقل قلم الحبر من طراز بليكان العملاق ذاك، الذي كان تذكاراً ملفتاً للأنظار عاد به من رحلة قام بها خارج البلاد. كان هذا القلم والنظارات الواقية التي حال لونها النحاسي (كانت العدستان الزجاجيتان المثبتتان في أسطوانتين قصيرتين قد غطيتا قبل وقت طويل من اكتشاف الشرائط الصناعية بمادة لدائنية قاتمة الخضرة، ولا تزال مستخدمة على ذلك النحو، وإذا كان لا يزال يضع النظارات الواقية على عينيه، وهو يشذب شعر طاقتي أنفه، فلا بد أنه بدا للطارق الليلي كائناً غريباً قدم من الفضاء الخارجي بأسطوانة قصيرة مخروطية معدنية ناتئة عن كل عين من عينيه وإحدى طاقتي أنفه) ـ كانا معاً تذكارين لشخص مات منذ عهد بعيد يختلف بشأنه مع أمه أشد الاختلاف وأعنفه، ولكنهما معاً يشيران إليه بلقب «النكرة» ولم تتعرض المقتنيات السابقة الخاصة بـ «النكرة» والتي يمتلكها الآن للإهانة فحسب على نحو لا يوصف، وإنما قرّ في وعيه أيضاً أنه إذا كان حقاً يوشك على السقوط في هوة الإغماء والموت فإن السجل الشخصي لأيامه السعيدة سيذهب بدداً، فتفاقم غضبه.

راح يؤكد غاضباً من جديد أن ما يعتزم سرده هو «تاريخ للعصر» يتجاوز عمليات استحضار الذكريات التي يمارسها فرد واحد. ولو أن «النكرة» الذي يحتل مكاناً بارزاً في هذا التاريخ لم يقتل في معركة بأحد شوارع عاصمة إقليمية قبيل انتهاء الحرب لأستدعي يقيناً للأدلاء بشهادته أمام الجلسة الطارئة للمحكمة العسكرية للشرق الأقصى التي اضطرت لشق طريقها إلى الوادي الغائر في قلب الغابة. من ثم فإن الرواية التي يوشك أن يرويها ينبغي أن تعني لا الأمم المتحدة فحسب، وإنما بشكل خاص الحكومة الحالية لبلدنا، لأمتنا، التي يسيطر عليها رجال كانوا من مجرمي الحرب بصورة جلية، وقدرت لهم النجاة.

الآن بصحبته قائمة بأعمال منفذ الوصية تدون الصورة التي يرسمها بكلماته إلى جوار فراشه، ولديه أيضاً مخطوط «تاريخ العصر» دونما تسلسل زمني. ويقيناً أن تصفح وفحص المخطوط كانا مهمة شاقة على نحو مخيف وإن لم تكن مستحيلة حيث أنه يضع على عينيه نظارة الوقاية الأسطوانية الشكل التي تبدو كنظارة للأوبرا تغطي عدساتها شريحة لدائنية منتظمة.

«تقول «القائمة بأعمال منفذ الوصية»: ألم تتحدث وكأنما تؤمن بأنك مصاب بسرطان سينهي حياتك فيما الأعراض كافة تناقض ذلك؟ حين أدون كل شيء على الورق يخالجني شعور بأن الشخصيات التي كتبت عنها تنهض على الصفحة كحقيقة قائمة، وتدفع أناملي فيما أكتب، يرد عليها قائلاً: ربما أمرك الطبيب بمواصلة الكذب أمامي فيما يتعلق بسرطاني في الوقت الراهن، ولكن في كل مرة تتقافز تلك الكذبة خارجة من فيك تتعملق وتطفو محلقة حول رأسك، لن يطول الأمر بك حتى تجدي نفسك مغروسة في موضعك وسط سرب بعوض من الأكاذيب».

حينما شرع في الشعور بنمو سرطاني في جوفه بقوة الشعير المتخمر، أدرك كذلك أن قوة الطبيعة ذاتها تحرره تدريجياً من أغلاله جميعاً. لم يكن تجمع ضروب الرفض التي تبديها إرادته هو الذي يحقق ذلك، فما كان عليه إلا أن يرقد بجسده. وحتى خلال نومه كان السرطان القابع بداخله والذي كان مدخله إلى الحرية يواصل نموه في تثاقل. كان ما يراه لا في الواقع فحسب وإنما في خياله كذلك تضببه الحمى. ولكن في غمار ذلك الغيم الغامض بدا له سرطانه كحوض مزدهر من الياقوتية الصفراء، أو ربما الأقحوان السابح في سنا أرجواني خافت. في مثل هذه اللحظات، وإلى أن يتغلغل الإعياء في قرار رأسه يلتقط أنفاسه ويلفظها بتركيز خاص، مستحضراً إلى طاقتي أنفه قوة حواسه جميعاً، يحاول تشمم

ياقوتيات السرطان أو ربما أقحواناته تلك. بدا أن وجود شيء ما بداخله ينمو معتمداً على حيويته الذاتية، ويوشك بقوته الداخلية أن يمضي به إلى ما يتجاوز أقانيم لا يستطيع إدراكها. والذي كان بمقدوره أن يرصده في جسده باعتباره أحاسيس في اللحم والدم ـ بدا تجربة أكثر زخماً من أي تجربة أخرى منذ الفورة الجنسية. قاده هذا التشبيه إلى أحلام بجمرات جنسية تتوهّج كانت مدفونة تحت الرماد، وتوشك أن تفقد حرارتها. الآن وفيما الموت يحدق فيه، انتابه الحنين إلى أن يبعث، يواجه، وأن ينعتق من كل المحرمات التي قمع رغبته في انتهاكها طوال عمره الذي طال خمسة وثلاثين عاماً، عندئذ بدا أن عالماً بأسره فجائي المطالع من الجنس يمكن أن ينبثق من حوض سرطانه الأصفر الخصب المزدهر والسنا الأرجواني المحيط به.

غير أن التحول إلى الجرأة إلى حد فقدان الحياء تطلّب مراحل دقيقة من التأهب. وحيث أنه لم يولد عبقرياً في الفحش، فإن تحويل جسده بكامله إلى، إن صح هذا القول، مهبل متّقد ثم الاستمتاع دونما اكتراث بالغضب المتوهج في العيون التي ترقبه، كما لو كان شقار بحر ينطلق حراً تحت سطح الماء ببلله المتضخم والانزلاق الدؤوب لمجساته ـ كل ذلك عمل لا يتوقع منه أن يأتيه مع محدودية الوقت الذي بقي له وانحصار التطورات الجنسية الجديدة في مجال التوقع فحسب، رقد في فراشه مثل خلد متقشف.

«حينما يرصد قلق القائمة بأعمال منفذ الوصية إزاء هذه الملاحظات، يمضي في إغاظتها وصوته يتموج على نحو شجي يتناهبه التوسل والسخرية قائلاً: ماذا! أتخشين أني بسبيلي للبدء في التوسل لك لتجلدي لي عميرة في أي وقت؟ أتخشين أني إذا أصبح جسدي مهبلاً متقداً قد أسألك شكلاً غريباً من جلد عميرة كأن تدفعي قائماً نحو شقار جسدي وتثيريه مدومة؟».

كان يصرخ في اللحظة التي يشعر فيها بأدنى نذير للألم أو للرغبة في حك جلده، داعياً من يتحلقون حول فراشه أن يطلبوا من الطبيب حقنه بالمورفين. وما داخله شك في أن ما يحقن به هو المورفين دوماً. في الحقيقة أنه بعد أن أصبح قادراً على ايقاف وصول الألم بالمورفين بينما الألم لا يزال هاجساً ـ بعد ذلك فحسب تحول إلى رجل يغني مراراً وتكراراً أغنية الأيام السعيدة، غدا رجلاً سعيداً. كان يغفو عقب حقنه كأنه في إغماءة، وكان نومه ذاك رقاداً هانئاً ما عرف له مذاقاً منذ الطفولة حين كانت تلفه المشاعر العذبة حينما يستيقظ من مثل هذا النوم، يحدق في صورة قصها من كتاب لجورج باتاي لرجل صيني يسحبونه ويجرونه إلى البعيد، وهو غارق في نشوة المخدر، يطل في مرآة يدرس

وجهه ليرى إن كان قد أصبح يحاكي وجه الرجل الصيني، الذي يشبه حبلاً مجدولاً من المعاناة والنشوة، فضلاً عن أنه على عكس التعبيرات الشهوانية المطلة من «صور الربيع» كان مغموراً بشيء مأساوي محض. أما وجهه هو الهضيم الذي تعلوه شعيرات في سواد الحبر يحاكي أشواك قنفذ البحر منتشرة حول شفتيه، والجلد مشدود بصفة خاصة بسبب رقاده الطويل على ظهره، لم يبد تحت الجلد لحم ولا شحم على الاطلاق. لاح وجهه وكأنما عاد إلى الوجه الحقيقي الذي كان له، والذي فقد في مكان ما من مسيرته الحق في أن يكون له. دقق النظر، في مجال الرؤية يحدده على نحو ضيق الغطاء اللداثني القاتم الخضرة للنظارة الواقية، لاح له وجه استعاد قبحه الهضيم المضحك، الذي كان له حينما كان يغطس في طفولته إلى أعماق النهر في غور الوادي سعياً وراء الأسماك، فداخله شعور بالرضا.

بقدر ما رغب في أن يعايش بامتلاء الموقف اليائس الذي تردّى إليه في الخامسة والثلاثين من عمره، أتت عليه أوقات كان يضع نفسه فيها واعياً في كابوس يحكمه الخوف من الموت. حدّث نفسه في ساعة مبكرة ذات صباح، بعد أن تيقن أن ليس ثمة أحد حول فراشه، بأنه وقع في إسار أمل تعس ومضلل حول أنه إذا استطاع أن يدرأ لخمس دقائق الفك السائل اللعاب لعفريت سرطان الكبد العاكف على مهاجمته، شأن كلب مهجن سعّره الخوف، فإنه سيتحرر من السرطان كذلك في بدنه بالفعل. شرع في التقلب محاولاً تجنب فكي كلب السرطان العفريتي الذي وثب إلى فراشه، عندما شعر في التو بالحاجة إلى التبول وخطا خارجاً من الفراش دارت به الدنيا. عبر عتمة قاع البحر التي يراها من خلل نظارته الواقية مما تحت الماء شق طريقه نحو الباب، الذي كان يترك مفتوحاً دائماً، لكنه اكتشف بدلاً من الفراغ المفتوح الذي توقعه حائطاً سميكاً أبيض غارقاً في ظل أخضر ملتمع أمام عينيه مباشرة حتى ليوشك أن يمس أسطوانتي نظارته. أما الشعور الذي أعقب ذلك بالحصر العضوي فقد كان موتاً حقيقياً ومجسداً في تجليه الأول في حياته الواقعية كأقصى ما يمكن أن يكون. وقف شأن إنسان آلي بدائي عاجز عن تغيير اتجاهه، وقد غمره ذهول مربك أمام الحائط كما لو كان هذا مجالاً للقوة يردعه. في اللون الساطع المنعكس بدا طرف كل من بنانيه النحيلين المخضرين منبسطاً متوجاً بماصّة، كما لو كان طرفاً من أطراف ضفدع. أفزعته اللعبة التي كان قد بدأها بنفسه. في ذعر يخالجه التعثر أفلح على نحو ما في الترامي عائداً إلى الفراش، لكنه أغرق الملاءات بالبول المتسرب.

غير أنه حتى في أوقات كهذه بمقدوره الاستمتاع، كأنما في حلم، بتصور الضجيج

والاهتياج اللذين سيقعان في أجهزة بدنه لدى إعلان موته، تلك الأجهزة التي تواصل الآن الحياة تدب فيها تغييراتها الكيمائية دونما هوادة، فيسابق لدى الموت أحدها الآخر مسرعاً على درب التحلل. أراد أن يسجل الكلمات التالية لأمه في نهاية الشريط الذي ستديره «القائمة بأعمال منفذ الوصية» حين يسقط في هوة الغيبوبة وتحضر أمه وحيدة من الدار القائمة بالوادي:

أرجوك أن تبقي لترقبي بدني وهو يتحلل، وإذا أمكن ذلك فإني أود أن تمكثي كذلك لترقبي أحشائي المتورمة المتعفنة تفجر جوفي، وتندفع ناتئة منه غازاً وسائلاً في لون الطين وغلاظته. لكنه لم يكن من اليسير التلفظ بمثل هذه الكلمات دون أن توشيها نغمات مازوكية غير مقبولة، فضلاً عن ذلك فلو أن حالة معدته أجبرته على أن يتجشأ فيما هو يشرع في التسجيل وتعثر صوته وداخلته الرعشة، فإن بوسعه أن يتصور نفسه حاملاً معه أساه إلى عالم الموتى، ولذا اكتفي بتجميع هذه الجمل في ذهنه.

حينما فكر في إحراق جثته، وبصفة خاصة في إحراقها على جناح السرعة قبل أن تتحلل خلايا بدنه تماماً، صلّب الغضب جسده النابض بالحياة لا يزال. كان بمقدوره أن يستشعر الغضب منغمساً في غمار رد الفعل هذا وهو يتجلى مستقلاً عن وعيه من خلال نظم الخلايا المعذبة ذاتها. أفعم اشمئزازاً وحنقاً إزاء فكرة معالجة جثمانه بما يقيه التحلل ثم تشريحه عقب ذلك. دعوا ما قصد به التحلل لينغمس في غمار ذلك بسلام في كل صغيرة وكبيرة منه! لا تدعوا الإنسان يفسد شموخ التحلل! ضغط برقة على كبده بيديه كلتيهما كأنه وسادة حيكت بمعدته. عهد إلى «القائمة بأعمال منفذ الوصية» بمهمة إضافية تقتضي صبراً قوامها التأكد من أن شيئاً لن يقحم ذاته في الدوران الكوبرنيكي الذي استقر السرطان خلاله في كبده في قمة قيامه بما شرع فيه، وأنه سيتم كل وظائف الحياة، ويشرع في التحلل تواً، ومن حماية كبده الجريح من الإحراق قبل الأوان، ومن تدمير المطهرات على يد الأطباء، الذين لا يزالون يحتفظون بالروح التجريبية التي كانت لهم أيام كانوا أطباء مقيمين.

فيما هو عاكف على التفكير في ذلك الجزء من ذاته الذي سيبقى في هذا العالم بعد الموت تزايد تقديره لعادة دفن الموتى فوق سطح الأرض التي يسمح في غمارها للريح والطيور بأن تمضي لطيتها، راح يتأمل كذلك ما سبق له أن شاهده على امتداد نهر الجانج في بينارس التي يقدسها الهندوس، جثث ساكنة متحللة من الداخل هادئة مثل سمكة الشمس وقد انغمس نصفها، وطفا النصف الآخر في النهر العكر المنداح.

حدث نفسه مجدداً بأن الهندوس الحكماء كانوا على صواب ، وأن الحل الذي أرتضوه يناسب القبيلة الأكثر إيغالاً في التأمل بين قبائل البشر جميعاً ، والأبعد أمداً ، والأشد دقة ، في التأمل عبر التاريخ في أفضل مناخ يناسب التأمل .

«تتساءل «القائمة بأعمال منفذ الوصية» : أتراك حقاً رأيت لدى رحيلك للهند الجثث طافية في النهر عند بينارس؟ يقول : طيب ، حينما شعرت بأن ما أعانيه في كبدي لابرء منه ، أعلنت تحرري من كل القيود التي تربطني بالعالم الواقعي ، الذي يمسك بي متدلياً من أطراف أصابعه ، هكذا فليس بمقدوري القول بما إذا كنت قد عايشت بالفعل ما أقول ، على أي حال لم يكن التطابق مع الواقع يعني أي شيء لي قط ، الحق أني أمضي قدماً صوب أيامي السعيدة في الماضي ، وإذا كان استحضار بعض التفاصيل في ذلك الماضي والصعود بها في حدة إلى السطح يقتضي تغيير الواقع الراهن كيفما يحلو لي فلن أتردد في إتيان ذلك ، على سبيل المثال عندما أحاول التغلغل بعمق في غور ذكريات المشاجرات التي خضت غمارها طفلاً ، أدفع نفسي للاعتقاد بأن الرجل الراقد في الفراش هنا في الخامسة والثلاثين من العمر بكبد مريضة ، ليست الكبد وحدها ، إنما كل أعضائه الحيوية جميعاً مهروسة ومحطمة ، هو ملاكم محترف من وزن البنطم تقاعد منذ وقت طويل ، حينما أنطلق بآلة الزمن الداخلية عائداً على امتداد الطريق نحو ذاتي حينما كنت أتشاجر مع الصبية الأكبر سناً قبل ربع قرن من الزمان ، مستخدماً حيل الملاكمة التي لقنها لي طلاب الكلية الحربية ، الذين قدموا إلى قريتي ليستقطروا الزيت من أشجار الصنوبر ، فإن توقي إلى أن أصبح جندياً وملاكماً أيضاً ينبعث في أعماقي جنباً إلى جنب مع النشاط الذي يوشك أن يرقى إلى حد الصرع في خلايا المخ برأسي الصغير المحموم . بدا أن من المستحيل أن أختار أي مهنة أخرى غير الملاكمة حتى اليوم . لو أني أجبرت نفسي على المضي في رحاب الذكرى قدماً إذن لربما قفز من صميم بدني ولطمني بعنف ، فيما أنا راقد ، متدثراً في هذا الفراش المتسخ بالسوائل المراقة عليه ، فتى وقح في مطالع العمر ، يرتدي قميصاً داخلياً فضفاضاً وسراويل قصيرة تسع ضعف حجمه بسهولة ، طويت عند جانبيه ، وثبتت بحبل ، وينغمس في المشاجرات والبصاق والدم يصفر بين أسنانه مع الفتية الأكبر سناً الذين أقبلوا ليختلسوا النظر إلى غائط «النكرة»» .

بقدر ما كان القيد الوحيد الذي يقبل به فيما يتعلق بالحاضر هو كونه راقداً في فراش احتضاره بكبد مصابة ، لم يكن ثمة ما يمنعه من أن يدعي لنفسه أي حياة يشاء ، ولعله من العسير التفكير في مجموعة من الظروف تناسب على نحو أفضل إطلاق العنان للوعي سعياً

وراء التحرر وباتجاه الحرية كلها من ظروف الرقود في فراش الاحتضار بكبد كالصخرة، كان بوسعه أن يطوقه بذراعيه كلتيهما.

لم يعن ذلك أنه يتمتع بالحرية ذاتها في الاختيار من بين أي عدد من الاحتمالات تلك الأيام السعيدة التي كانت بؤرة ماضيه، فقد عقد العزم على ألا يحدث هذا. ولو أنه قدر له أن يستعيد ذكرى تلك الأيام السعيدة كما لو كانت ضرباً من الماضي يطاله الغموض حتى ليسمح بأي عدد من التفسيرات، إذن لفقد نصف السبب الذي يدعوه لمواصلة التشبث بالحياة على الرغم من الألم النابع من كبده والذي يشوش وعيه دائماً. بل الأمر على العكس فحيث أنه عقد العزم على بعث أيامه السعيدة بقدر ما يستطاع من الدقة، فلم يكن ليتردد إذا ما تطلبت تلك الدقة ذلك في أن يشوه الحاضر. الآن ما من شيء كان يمكن أن يكون أكثر وضوحاً من ذلك الموقف المستمد من مبدأ تمسك به سحابة نهاره بل وفي الليل طالما ظل بوعيه، لكنه حينما يغلبه النعاس يأخذه نشيج عال في رحاب النوم. بدا «للقائمة بأعمال منفذ الوصية» كما لو كان يردد كلمة «زمرة» تكراراً، وقد ذكرت له ذلك. رغم هذا فقد استمرت الكوابيس التي بدا أنها تعود به إلى لحظة بعينها في الماضي، فيما تواصل نشيجه وترديده دونما انقطاع للكلمات ذاتها، تحدد معناها على وجه الدقة. يقيناً كانت «القائمة بأعمال منفذ الوصية» هي التي اكتشفت في النهاية الكلمات التي كان ينشج بها، حيث أنه كان عاجزاً عن تذكر أي شيء مما حلم به: آه، آه، **تخلت عن الرجل، تخلت الزمرة عن الرجل**، آه، آه، **تخلت عن الرجل، تخلت الزمرة!**

- ٢ -

وضحت الكلمات التي كان ينشج هاتفاً بها في نومه، لكن النشيج ذاته لم يقهر؛ ربما لأن الاكتشاف تم على يد شخص آخر. مع ذلك فقد أتت عليه أوقات كان ينشج فيها بعنف، أو هكذا حدثته واحدة من الأخريات القريبات من فراشه.

«لنقل «ممرضة» من الآن فصاعداً، سم ذلك حلاً وسطاً ضرورياً لتخفيف العبء الذي يلقيه على كاهل الكاتبة! عندما عرفت أنك تتحدث عن الممرضة داهمتني الرغبة في أن أسطر كلمة ممرضة على الرغم من أنك استخدمت بدلاً من ذلك عبارة غامضة. حدثت هذه المقاطعة من جانب «القائمة بأعمال منفذ الوصية» للصورة التي كان يحاول رسمها بكلماته حينما بدأت المتاعب. أعرب عن استيائه باعتدال قائلاً: أعتقد أن عليك أن تكبحي جماح حاجتك الأنانية تلك لتدوين ما تعتقدين بغض النظر عما أقول، وخاصة

حينما أخرج عن السياق لاستخدام ضمير الغائب لتسهيل مهمتك. مع ذلك لم تحر «القائمة بأعمال منفذ الوصية» رداً. وقد جعل ذلك من الحتمي بالنسبة له أن يتجشم عناء جماً في تصفح ذلك الجزء من الصورة التي يرسمها المكتوب بالفعل على الورق من خلال النظارة الواقية المغطاة بالشريط اللدائني الأخضر. ترى كيف يسعه أن يتيقن أن نقطة شدد عليها بمثل هذه الدقة لم تنحل منسابة في دفق الغموض؟ ولكن ما الذي ترغبين بمثل هذا الإلحاح في قوله بنفسك حتى ليدفعك إلى أن تغيري في صورة ماضي شخص آخر؟ تقول «القائمة بأعمال منفذ الوصية»: إنني لا أغير لفظاً واحداً مما تقوله لي، وكل ما أطلبه منك هو أن تحاول استخدام أسماء مألوفة، أن تقول على سبيل المثال «ممرضة» حينما تقصد الحديث عن ممرضة، وذلك لتسهيل عملي، وإذا لم تبذل جهداً في هذا الصدد فإنني أخشى أن الأسماء المألوفة ستختفي بالفعل من حديثك، حيث أنك لا تكشف تقريباً عن اسم واحد مناسب كذلك. عند هذا تم الاتفاق على أن تستخدم أسماء محددة ومألوفة حين يشار إلى أصحابها».

قالت الممرضة ذلك، ولكن حتى في أطول الليالي وأكثرها تفجراً بالنحيب، وأياً كان مدى الانكسار الذي يصل إليه، فإنه يعجز عن تذكر ما كان عليه حلمه المؤلم المفعم بالوحدة. خلال رقاده كان نبضه وضغط دمه ينخفضان يقيناً، وتنقطع أعضاؤه الحيوية بما في ذلك فمه عن مواصلة القيام بالعديد من عملياتها، غير أن السرطان يستمر وبصورة منفصلة عن وعيه أو ما دون وعيه ليلاً ونهاراً في الانتشار خلية وراء الأخرى. فإذا كانت هناك حقاً حيوية ايجابية في أعماقه قادرة على رفع صوته بالصراخ خلال رقاده ألا يحتمل أن تكون تلك هي حيوية السرطان العارم المتضخم أبداً ذاته؟ ولكن لم يتعين أن تنشج الخلايا السرطانية؟ ذات فجر أيقظته الممرضة بهز كتفيه لأن نشيجه تعالى حتى وصل إلى الحجرة المجاورة. حينما أفاق من غفوته أمكنه أن يسمع أن نشيجه لم يكن يتهدد المريض المجاور وحده، وإنما كذلك المائتي كلب المحتجزة بفناء المستشفى للاستخدام بالمعمل، والتي كان نباحها لايزال يتردد بجلاء. مع ذلك راح يحدث نفسه قائلاً: إن هو إلا حلم، فضلاً عن هذا فإنني أدرك تماماً ما وراء تلك الكلاب النابحة لأنني كتبت عنها، وليس هذا بوقت نباح الكلاب. في هذه اللحظة تراءت له حياته عبر سنواته الخمس والثلاثين من عمله كملاكم محترف في وزن البنطم إلى مؤلف أو كاتب مسرحيات في الواقع، في الوقت نفسه نفض عنه الشعور بأنه أنتزع فجأة من حلمه وأحساسه العضوي الذي يظل متأرجحاً داخله عقب النشيج، الآن شرع في استشعار وخز المؤشرات الأولى لبهجته النهارية.

بدأ عقب ذلك، وللمرة المئة، اللعبة التي كانت الآن المصدر الأساسي لمسرته، متصوراً بالدقة البديعة كلها التي يتمتع بها جدول زمني أمه وهي تنطلق من الدار بمناسبة وفاته. لسوف يبدأ تنفيذ الخطة قبيل سقوطه في الإغماءة الأخيرة، حين يتيقن من الأطباء فيما هو محتفظ بكامل وعيه من أن الموت سيرفرف عليه يقيناً خلال الأيام القليلة المقبلة، أو بتعبير آخر حينما يكتمل بنجاح إنجاز المراحل النهائية من موته.

في ذلك الصباح الموعود، حينما توشك برقية من الأطباء في إقناع أمه، التي لم تصدق قط كلمة يفوه بها، بالضرورة الموضوعية للانطلاق أخيراً من أعماق الغابة سيدفع «القائمة بأعمال منفذ الوصية» إلى تسجيل مكالمة هاتفية خارجية إلى مطار العاصمة الإقليمية والتيقن من أن الرحلات الجوية ستتم جميعاً في موعدها، يدفعها إلى الاستفسار عن الظروف الجوية لا في مطار هانيدا بطوكيو فحسب وإنما كذلك في مطار ايتامي بأوساكا. سيتم كل شيء في نظام. كان قد سمع بأن الممر المعروف في المنطقة التي شهدت مولده باسم «ممر المنحنيات التسعة والتسعين» قد أصبح ممهداً الآن، الأمر الذي يعني أنه ليس هناك احتمال لوجود عوائق خطرة على امتداد الطريق الوحيد المفضي إلى خارج الوادي الواقع في قلب الغابة والمنتهي عند عاصمة المقاطعة في السهل. ستغادر أمه الوادي في شاحنة ذات ثلاث عجلات، تخرج من الغابة، تسرع عبر الوادي عند قاع الممر إلى عاصمة المقاطعة، فتدرك بالكاد موعد رحلتها بالطائرة، تنتقل إلى طائرة أخرى في أوساكا وفقاً للجدول الزمني، تصل طوكيو في الموعد المحدد، تظل متشامخة الرأس، مغمضة العينين، ملتزمة الصمت مع الآخرين، فإذا ما أصر مسافر مبالغ في الود على محادثتها أنتزعت من زنارها المحكم البطاقة التي وصلت بالبريد مع بطاقة ركوبها الطائرة، على البطاقة كتب: «هذه السيدة العجوز لا تحادث الغرباء، في الحالات الطارئة ترجى مساعدتها على الاتصال بالعنوان التالي».

عندما يحل الموعد أخيراً سيتصل هاتفياً بالوادي الغائر في أعماق الغابة، يتبين ما إذا كانت الشاحنة ذات العجلات الثلاث قد غادرت الوادي مقلة أمه، فإذا كانت الشاحنة قد غادرت بالفعل فإن الدار التي شهدت مولده والمعروفة في المنطقة باسم «مزرعة الوادي» ستغدو مهجورة، في هذه الحالة فإن زوجة موظف البريد (وهو في الوقت ذاته رئيس مكتب الهاتف) التي تجلس طوال النهار أمام لوحة تحويل المكالمات الهاتفية التي لاتزال تدار يدوياً ستتلقى مكالمته:

ـ بمقدوري أن أرى الشاحنة ذات العجلات الثلاث منطلقة عبر القنطرة الخشبية، نعم سيدي!

يقيناً سترد على هذا النحو. ضاحكة إزاء الطلب الغريب الذي تلقته هاتفياً عبر المسافة الطويلة من طوكيو بأن تنظر وتتبين ما إذا كانت شاحنة ذات ثلاث عجلات تنطلق نحو القنطرة الاسمنتية التي تؤدي إلى الطريق الرئيسي المفضي خارج الوادي، هي ذي السيدة العجوز القادمة من دار المزرعة جالسة بالعربة واضعة على صدرها الصندوق الخشبي الصغير الذي يضم رماد موتاها الذين لقوا حتفهم في الحرب، لا بد أنها مضت إلى مزار القرد إجلالاً قبل أن تغادر القرية، نعم، سيدي! لقد مضت لتوها الآن عبر القنطرة الخشبية، والسيدة العجوز من دار المزرعة جالسة مستقيمة الظهر إلى جوار السائق، وعيناها مغمضتان وعلى صدرها ذلك الصندوق، نعم، سيدي!

ـ ألا يبدو الأمر وكأن عينيها مغمضتان لأنها ليست في حالة صحية طيبة؟

لسوف يسألها على هذا النحو ولمسة من التعجل تخالج صوته مفصحاً عن ضعف ما كان ليستطيع قط الإمساك بناصيته طالما تعلق الأمر بأمه.

ـ يا الهي! كلا، السيدة العجوز لا تظن أن هناك إنساناً غيرها؛ لذا تغمض عينيها دوماً حينما يبدو أنها ستضطر للقاء أحد في الوادي.

عندئذ سيلقي الحنق المراوغ الذي استشعرته زوجة موظف البريد طويلاً إزاء السيدة العجوز ماء بارداً على عاطفيته الفاترة المتصاعدة في أعماقه، لكن خطر اقتلاع سعادته من جذورها لن يضرب أطنابه، فلم يبق لهذه السيدة إلا ابن واحد، وهم يقولون إنه يحتضر لإصابته بالسرطان، لذا فهي منطلقة إلى طوكيو بصندوق رماد موتاها في الحرب ذلك الذي شرفها قبل ربع قرن من الزمان. أتعلم أنها لم تسفح دمعة واحدة، ولا يزال رأسها متشامخاً وعيناها مغمضتين بإحكام، إنها عجوز قاسية! بالطبع فهي ليست من النوع الذي يصدق الآخرين، من ثم فربما تعتقد أن أولئك الأطباء قد جانبهم الصواب وأن ابنها لم يصب بالسرطان، ذلك هو ما يعتقده معظمنا هنا أيضاً، نعم، سيدي!

ـ إنه سرطان، بلى، سرطان كبد، أصبح الأمر الآن أياماً معدودات! وما علمته هو الحقيقة، ذلك هو ما جعلها تغادر الوادي.

ـ هل سمعت بذلك من الطبيب مباشرة؟ إنه حقاً مريض بالسرطان؟ لأن ذلك هو ما كنا نسمعه طوال الوقت. . .

ـ هذا صحيح، سرطان، ولست مضطراً لسماع شيء من الطبيب لأنني أنا الابن القادم من دار المزرعة وأحتضر الآن جراء السرطان!

لسوف يقول ذلك ثم يشير للممرضة لتضع السماعة في موضعها، فلربما أصبح ذلك أثقل مما يمكنه أن يقوم به بنفسه.

ـ أود حقاً أن استميحك المعذرة. نعم، سيدي!

يطن الصوت شأن بعوضة تسارع بالابتعاد، يتقلص واهناً، يختفي.

«واضعة» صندوق الرمان الصغير «على صدرها» يعني أن أمه قد عقدت طرفي قطعة القماش البيضاء التي لفت فيها الصندوق وراء عنقها. حوالي نهاية الحرب أصبح ذلك الوضع نمطاً مألوفاً يلقاه المرء غالباً في الوادي، لكن الصندوق الصغير الذي ستصحبه أمه معها يرجع إلى ما يزيد على ربع قرن من الزمان، فعقب الهزيمة البحرية الفاجعة في ميدواي وصل هذا الصندوق الصغير عينه وصندوق خشبي أبيض وقطعة قماش بيضاء، وكانت لا تزال جميعاً أموراً غير مألوفة حينما كان مد الحرب قد بدأ لتوه يتحول في غير صالح اليابان، إلى الدار بالقرية من الصين مع قليل من التراب يمثل «العظام المعادة للوطن» الباقية من ابنها الأكبر الذي كان أول خسائر الحرب في الوادي. فأحدث على نحو حاسم الصدع بين «النكرة» وأمه، ذلك الصدع الذي لم يقدر له الزوال طالما بقيا على قيد الحياة. في ذلك الوقت كان «النكرة» قد انسحب بالفعل من العمليات العديدة لـ «اللجنة» المتحالفة مباشرة مع العسكريين المتمركزين في منشوريا، ويقيم في عزلة في قريته بالوادي. حينما ترك ابنه الأكبر الجبهة، وأطلقت عليه النار من جانب العدو، أو ربما بيد أحد رفاقه خلال التحاقه بالفرقة اليابانية ذاتها الموجودة بالأراضي الصينية، التي كانت في السابق المجال الرئيسي لنشاط ونفوذ «النكرة» غدت كراهية أمه لـ «النكرة» واضحة للعيان، لم تتردد بعد ذلك كلمة «أب» قط في الدار الكائنة بالوادي الغائر في قلب الغابة. على هذا النحو كانت أهمية الصندوق الصغير الذي يضم رماد أخيه الأكبر، والذي ستأخذه أمه للمرة الأولى للخارج خلال ثلاثين عاماً على وجه التقريب «واضعة إياه على صدرها» فيما هي ماضية إلى طوكيو في الشاحنة ذات العجلات الثلاث عبر ممر المنحنيات التسعة والتسعين المثير للدوار، شاعرة، في غمار قلقها لمغادرة الغابة، كما لو أن فراغاً قد تشكل وراءها تواً، وراح يجتذبها لتعود إلى رحابه.

عندما وصل في استمتاعه باللعبة الكبرى إلى هذا الموضع في ذهنه الواعي وقع

خياره على نزوة يعيد من خلالها فرض نشوته على وعيه الباطن. ماذا إن لم يستطع تذكر أي شيء من أحلامه بافتراض أن أحلاماً تتراءى له حقاً، عليه أن يستجمع على الأقل التجربة العضوية للحلم طالما تسمح حالته بذلك.

فيما النعاس يداهمه على وسادة النوم الوحيدة التي قدمتها له الممرضة، حاول أن يوحي لوعيه الباطن بأنه يود على نحو خاص لو تراءى له حلم عن ممر المنحنيات التسعة والتسعين. كان قد حاول منذ طفولته تكراراً أن يتبين ما إذا كان هنالك حقاً تسعة وتسعون منحنى، لكن المنحنيات والأرقام كانت تنفصل في ذهنه دائماً وهو يمضي صعداً في الممر. ذات يوم في سمت الصيف قبل ربع قرن من الزمان صحب «النكرة» ـ العاجز عن الحركة استناداً إلى قوته بسبب النزيف المروع في مثانته فضلاً عن بدانته غير المألوفة ـ عبر الممر في شاحنة عسكرية مع عشرة جنود، تركوا صفوف الجيش، وأقبلوا من بعيد إلى الوادي ليناشدوا «النكرة» الانضمام إليهم، وراحا يغنيان بالألمانية مع الآخرين. منذ بدأ الأطباء في المرحلة الأخيرة من العلاج عامدين إلى تخفيف الألم في أحشائه وتضبيب وعيه بالحزن دأب على الرجوع إلى ذاته أيام كان طفلاً في الوادي، غارقاً في سنا الصيف الأخير في الحرب، تراءت له مراراً تلك الرحلة الصغيرة عبر الممر نابضة بالحيوية، كما لو كانت حلماً من أحلام اليقظة، منذا الذي قال بأن المرء لا يمكنه أن يحلم أحلاماً واقعية في رقاده؟ إذا ما تجاوزت أحلامه عن نفسه ذاته باعتباره إنساناً، وبدا له أن من المستحيل أن يسبر غورها إذا ما استيقظ، فهل يعني ذلك أن السرطان ذاته يحكم قبضته على جسده ووعيه في أحلامه؟ حتى إذا كان الأمر كذلك فإن الأمل لا يزال يراوده في أن يستعيد بدقة في إطار حلم يتحكم فيه بنفسه ذكرى الانطلاق صعداً عبر ذلك الممر، الذي كان المخرج الوحيد من الغابة المحيطة بالوادي إلى العالم الخارجي. ولئن كان هذا الطموح مفارقاً للواقع كلية فما ذلك إلا لأنه أصبح بالفعل رجلاً سرطانياً!

مع ذلك فحينما استيقظ مجدداً ـ ترى أيمكن ألا يكون قد تراءى له حلم؟ ـ لم يحتفظ بدنه أو وعيه بأثر لحلم. الثامنة صباحاً ـ حاول أن يتبين ما إذا كان النشيج قد عاوده، لكن الممرضة قالت بفظاظة: إذا لم تتذكر بنفسك فلا تسلني!

تقاطعه «القائمة بأعمال منفذ الوصية» دافعة إياه إلى جحيم من الغضب بقولها: ألا يمكن أن نقوم بهذا التصحيح؟» إذا كنت لا تتذكر بنفسك فربما لا معنى لقول أي شيء» يقول: تصحيح؟ لمن ولأي سبب؟ لو أنك قمت بهذا التصحيح الواحد لسرى السم من هناك وللحق الدمار بـ «تاريخ العصر» الذي أضعه بأسره. إذا كانت التصليحات تتملك

ناصيتك إلى هذا الحد فما رأيك بتقليد أولئك الجراحين الفلبينيين الخارقين للطبيعة واستخدام القوة الروحية للسانك السليط ذاك كما لو كان مشرطاً لـ «تصحيح» السرطان في أعضائي الحيوية! لا لأني أريد حقاً التخلص منه حيث أنه سرطان أفلحت في اقتناصه بنفسي. قلت إن الأطباء بدأوا المرحلة النهائية من العلاج لتخفيف ألمك وحجب وعيك بالحزن ولكني حينما أمليت ذلك لم أقبل المسؤولية عن كونه حقيقة من عدمه، لأنك لست مصابة بالسرطان، ولست أدري ما تأملين أنت والأطباء والممرضات في الوصول إليه بالتآمر على الكذب علي بينما أنا المريض لا أنتم، وأريد ذلك السرطان».

حينما سأل الطبيب في جولة الأصيل:

- لم تخفون جميعاً سرطاني عني؟

نفى الطبيب كالمعتاد أنه يخفي أي شيء.

- لكن إذا ما نحينا هذا الهراء جانباً، فإنني أرى أن بك عدداً مذهلاً من الندوب تبدو جميعاً كما لو أنك أوقعتها بنفسك. أتراني على صواب؟

لم يحر جواباً. لكنما بعد أن انصرف الطبيب جعل «القائمة بأعمال منفذ الوصية» تنزع ثوبه، عكف مستخدماً مرآة صغيرة بعناية على فحص الآثار القديمة التي تكسو ظهره وإليتيه وفخذيه. لم يكن الأمر راجعاً إلى أن العديد من الندوب الصغيرة كان يمكن بالفعل اكتشافها من خلال النظارة الواقية المغطاة بالشريط اللدائني وإنما كان ما يعنيه الندوب العديدة التي كشف عنها في لحم ذاكرته. كان بعضها يرجع إلى الفترة القصيرة التي بدأت بطفولته وانتهت في أوج أيامه السعيدة، وخاصة خلال العام الأول الذي كان يمضي فيه على دراجته إلى المدرسة الثانوية عقب الحرب في القرية المجاورة. راحلاً على هذه الدراجة غزا للمرة الأولى في صدر عمره وحيداً ودونما حماية أرضاً تقع خارج الوادي الذي ولد ونشأ به، فضلاً عن هذا لم يكن لدى الغرباء الذين ينتظرونه خارج الوادي ندوب نفسية أو آثار باقية تتعلق بـ «النكرة» وما كانوا ينكسون عيونهم ويمضون بعيداً حينما يصادفون أحداً تركه «النكرة» وراءه. بتعبير آخر كانوا غرباء تماماً، هذا عدا أن أكثر المجموعات جرأة في الإقدام على العنف من بينهم هي التي أحاطت به في ساحة المدرسة الثانوية.

كان التأثير المتردد الصدى لفوضى ما بعد الحرب على مجتمع الأطفال يتكاثف في تناسب طردي مباشر مع بعد الأطفال عن المدينة الكبيرة. وفي هذا الوسط الذي يحفل

بضروب العنف كافة، تكفل عدم خوفه من أن يجرح، بل وحاجته بين الحين والاخر إلى أن يجرح نفسه بيديه، بإتاحة حرية فريدة له للمرة الأولى. بدأ إحرازه لهذه الحرية بحادث وقع بعيد التحاقه بالمدرسة الثانوية، حينما استدعاه وحيداً زعيم عصابة المراهقين التي تسيطر على المدرسة إلى قاعة التدريبات الرياضية، حيث كانت العصابة تنتظر. كان سبب الاستدعاء هو أنه كان، على نحو لا تخطئه العين، أكثر قذارة وفقراً على نحو لا مجال معه للمقارنة مع رفاقه الطلاب الجدد، فعلى الرغم من أن أمه أعطته أتعاب التسجيل ورسوم التعليم إلا أنه لم يفلح في أن ينتزع منها أي مبالغ إضافية للزي المدرسي أو أنشطة النادي. وقد بدا له ذلك أمراً ظالماً، هكذا حاك شارة المدرسة الثانوية على سترة الزي المدرسي الذى استخدمه في المدرسة الإعدادية، والذي كان أصلاً زي أخيه الذي لقي حتفه في الصين. وواصل ارتداءه منذ أيام المدرسة الإعدادية. ولخوفه من أن السترة قد تعيد إلى ذهن أمه الذكريات التي لم يعف عليها الزمن لأخيه القتيل فقد أبقاها مخبأة ملفوفة في صحيفة في الكوخ الخشبي في مؤخرة دار المزرعة، وحينما يشتد البرد فتمس حاجته إلى سترة كان يغادر الدار مرتدياً قميصه ويلتف ماضياً إلى الكوخ الخشبي فيرتدي السترة مسرعاً قبيل انطلاقه إلى المدرسة؛ انبنى على هذا أنه عجز عن غسل السترة أو إصلاح شأنها، فلم تبد قذرة فحسب، وإنما انبعثت منها بوضوح رائحة كريهة. فضلاً عن هذا، فقد كان الطالب الجديد الوحيد الذي لا يملك قبعة الزي المدرسي.

ربما كان زعيم العصابة يأمل أنه إذا أدّب هذا الشاب الذي ينتهك القيود المدرسية بمثل هذه الوقاحة في بداية الفصل الدراسي الأول فإنه سيخلق الانطباع وسط الطلاب الجدد بأنه ورفاقه ليسوا مجرد مجموعة من الأوغاد يلقون الكراهية داخل المدرسة وخارجها، وإنما هم حرس يقظ يرفع لواء العدل في ساحة المدرسة. ورغم أنه حظر على الطلاب الجدد دخول قاعة التمرينات الرياضية خلال عملية التأديب، إلا أنه طلب منهم التجمع خارج نوافذ القاعة جميعاً. فتحلقوا حول النوافذ ليرقبوا مأساة العنف من طرف واحد التي توشك على البدء في الداخل، دون أن يبدو عليهم ما ينم عن أنهم يشعرون بأدنى ارتباط بزميلهم الوحيد الذي يوشك على تلقي التأديب، فيما أرتسمت تعبيرات بلهاء على وجوههم جميعاً وهم يجهدون أنفسهم للحفاظ على توازن ما بين فضولهم الخنوع وخوفهم الكئيب.

في البدء جرت الأحداث من جانب واحد، فقد جلس المدعي فوق المتوازيين وبدأ مرافعته بالإشارة إلى أن قدمه داخل حذاء التنس البالي الذي ينتعله عارية بلا جوارب في

مخالفة للقواعد المعمول بها في المدرسة، ثم أعقب ذلك باتهامه بانه يرتدي تحت سترته التي ليست حتى سترة مدرسة ثانوية مناسبة قميصاً أسود (كان قد حاك هذا القميص بنفسه متخذاً إياه من علم أسود كبير لم يدر ما الذي كان يرمز إليه، انتزعه من صندوق متخم بالمتعلقات الشخصية التي خلفها أخوه وراءه) حينما عنفه زعيم العصابة على هذه الانتهاكات وغيرها، والتي همس بها في أذنه دونما شك مرشدون في صفوف الطلاب الجدد. هبط من المتوازيين، لطمه بجمع يده على صدغيه، مندفعاً حتى ليوشك أن ينتزع نفسه من الأرض مع كل لطمة رغم أنه أطول من ضحيته، شجعه الغياب الكامل للمقاومة الذي صادفه فأوغل قائلاً:

- لا يبدو في عينيك أنك خجل حقاً حتى بعد تأديبك على يد طالب بالصف الأعلى.

تنهد بطريقة مسرحية، أضاف:

- إنه لأمر مزعج حقاً أن يكون هناك بالصف الأدنى طالب كهذا، واللوم في النهاية لا يقع إلا على كواهلنا، أليس هذا صحيحاً؟

قالها وعكف على مواصلة اللطم من جديد. هنا وصل المتهم إلى قرار بأنه لا طائل من وراء تلقي صدغيه للمزيد من اللطمات. كان اليوم هو السبت، ولأن الطلاب الجدد قد كلفوا عصر ذلك اليوم بإزالة الأعشاب الضارة من ملعب المدرسة، فقد كان معه منجل صغير ملفوف مع كتبه وكراساته، انحنى فالتقطه، ثم حدق في عيني زعيم العصابة، ودفع النصل الذي كان الطين الرطب لا يزال عالقاً به في الجلد بين إبهام وسبابة يده اليسرى، فانبثق الدم، لكن جفناً من أجفانه لم يطرف، بدت العينان المحدقتان في زعيم العصابة الذي راح يلقي بنظره إلى المشهد الدامي مضطرباً، واللتان اخترقتا غشاء مخاطياً هادئتين تماماً على نحو يستعصى على الفهم. لكن التأثير الذي حدث كان تأثير سكون جلي يحدث في سمت ثورات جائحة الحركة. كان يكافح في أعماقه للتمسك بأهداب الوعي في غمار نوبة جنون، عندئذ غطس إلى حلم اليقظة الهادىء عند أقصى حدود الإكراه بالتهديد وواجه «النكرة» صرخ بصوت من الارتفاع بحيث لا تسجله إلا أذنا كلب: **تجرع الدم فمن أجلك سفحته! فجأة عاد للانتظار مجدداً مع أولئك الجنود الذين تركوا الجيش على الطريق الممتد مع الخندق المائي الذي يفضي إلى عاصمة المقاطعة والمصرف مسلحاً بـ «السكونكي» الذي أعتاد حمله والعرق الذي كان راجعاً دونما شك إلى حرارة ذلك اليوم من أيام منتصف الصيف ينعقد على جبينه الجهم.**

على السطح كان يواجه زعيم عصابة الفتية، خافضاً الذراع الذي أحكمت قبضة يده على المنجل، وماداً يده الجريحة الدامية في حركة غامضة كان يمكن أن تكون محاول للضرب من جديد أو عرضاً للمصافحة. أما في الأعماق فقد تألف من جزء مشرق شفاف عند السطح الصافي لوعيه ومن جزء مظلم مضبب تحدر إلى الهاوية مقترباً من القاع المظلم.ومع ذلك ظل متميزاً عن وعيه الباطن. في غمار العملية السريعة التي جرح فيها لحمه وعلى سطح الدافع الخير المنبعث من جوهر ذاته الحار المعتم استشعر نشوة عميقة، لم تكن عصية على مدارك العصبة التي تتحلقه وحدها، وإنما لم يكن هو نفسه يدركها بحسبانها نشوة. غير أن الدم الذي سفح جعل رأسه صافياً كأنما كان المنجل مشرط جراح من القرون الوسطى، فوصل إلى التقدير العملي والواعي تماماً بأنه لا جدوى من ترك الأمور تقف عند هذا الحد إذا كان يأمل أن يقضي على هذا الخصم الذي أفلح في انتزاع المبادأة منه، وأنه في الحقيقة إذا سمح للوقت بأن ينقضي دون أن يغير استراتيجيته فإنه سيجد نفسه في موقف أشد خطورة من ذي قبل. لقد أفلح في أن يصدم أولئك الأوغاد بجرح نفسه، باعثاً الغثيان ربما في معدة كل منهم، لكن أياً منهم لم يدرك المغزى النهائي لتلك الصدمة، من هنا فإنه بمجرد انقشاع التوتر العضوي المؤقت، وفي ضوء غلاظتهم وقدرتهم على النسيان، فمن الممكن توقع التقاطهم لأنفاسهم واستئنافهم لأعمالهم العدائية.

هكذا فمن الضروري التوصل إلى مخرج من البساطة بحيث يفهمه زعيم العصابة حتى في حالته المضطربة تلك. ما أن يتكامل الحل في ذهنه حتى يغدو كل شيء أقرب إلى القيام بدور في مسرحية بعد أن غدا على مسافة يستحيل قطعها من ذلك الشيء الحار المعتم الذي طفا في أعماقه قبل لحظة.

حدق في المنجل المخضب بالدم ثم دفعه حتى أصبح تحت انف خصمه، صرخ بأقصى ما يستطيع من ضراوة:

- هل أقطع يدك كذلك؟ سأقاتل بهذا المنجل حتى وإن لم يكن معك منجل! وإذا شرعت الهزيمة تحيق بي فسأقطع عنقي.

قالها، رفع المنجل عامداً، أمسك به بازاء عنقه، عندئذٍ وبفطنة تفوق ما هو جدير بشخص يحظى بالتقدير باعتباره قائداً حتى وإن كان من قبل عصابة من الأوغاد، توصل خصمه إلى فتح مغاليق اللغز الذي أخفاه في طيات صرخته، فالتفت إلى رفاقه، أشار لهم بانتهاء التأديب الرسمي، قال:

ـ يقول إنه سيقاتل بذلك المنجل حتى وإن كنت مجرداً من السلاح، ويهدد بقطع عنقه إذا ما ألقيناه أرضاً، دعونا نخرج من هنا! فلا جدوى من الحديث مع فتى قذر ومتوحش كهذا، إنه كلب مسعور. لا قواعد! لئن كلتم له الضرب قاسياً فستعلق بكم الجرائيم.

بهذه الكلمات قدم له زعيم العصابة جواز سفر إلى رحاب عنفه الخاص، ولكي يمهره بتوقيعه انطلق عدواً داخل القاعة طاعناً بمنجله الحشايا التي تغطي منصات القفز والمكومة إلى جوار الحائط. لم يتهم مدرس التربية الرياضية، الذي كان على وجه اليقين رجلاً من رجال العنف حتى نخاع عظامه والذي فضلاً عن ذلك أبلغ تواً بهوية المجرم الذي أتى هذا العمل ـ لم يتهم أحداً باقترافه في اجتماع هيئة إدارة المدرسة. ذات يوم حينما انتهك قاعدة أخرى من قواعد المدرسة بغسل يديه عند صنبور مياه الشرب أقبل هذا المدرس الذي كان رجلاً صغير البدن له رأس يحاكي دباً متغضن الوجه وبطن خمصاء كان شديد الفخر بها مسرعاً كعداء المسافات الطويلة، قال حادباً بصوت هادىء وإن صحبته إيماءات مبالغ فيها قد تبدو للناظر عن بعد وكأنما هو يوبخ الفتى:

ـ أريدك أن تنظر إليّ باعتباري صديقاً! اتفقنا؟ ما رأيك لو أني علمتك بعض القبضات القاتلة والرميات المهلكة حتى لا تضطر لاستخدام سكين في المرة المقبلة التي تقاتل فيها هؤلاء الغلمان؟

إذا افترضنا أن الحيوانات يمكن أن توصف بأنها عنيفة لأمكن القول بأن الحديث كان يدور عنه في المدرسة وخارجها بامتعاض باعتباره عنيفاً على نحو بهيمي. وحده زعيم عصابة الفتيان استطاع أن يلمح وراء الخشونة التي يظهرها على السطح عاطفة كامنة مميزة يتناوبها الخمود والفوران. بدا أنه يلتزم الحذر غريزياً من الطاقة العجيبة التي كان بمقدوره الإحساس بها وهي تتقوس بين هذين القطبين. وقد عبر عن ذلك الحذر في تعليماته لمساعديه بوضوح: احذروه! فهو لا يكترث بما يحدث له، شأن طيار الكاميكاز الذي لم يمت بعد! هكذا ساد سلام قلق التوازن بينه وبين عصابة الفتيان. ولو أن الحكم بتميزه صدر فحسب بناء على عنفه لأتى حين من الدهر على أعدائه تلمسوا فيه بدهاء أنهم قد استعادوا المبادأة فيما يتعلق بالعنف. في هذه اللحظة يغدو عنفه في تناسب مباشر مع قيمته المطلقة وقرأ يحيط برقبته ويجتذبه متقطع الأنفاس نحو الأرض. غير أن زعيم العصابة رأى فيه شيئاً لا يمكن لرفاقه في العصابة أن يبزوه فيه أياً جهدوا في منافسته، شيئاً يستعصي على الإدراك. هكذا تبنت العصابة سياسة قوامها ضرب من الحلول الوسط، حيث راحوا

ينظرون إليه باعتباره مخلوقاً أدنى منهم. مقيتاً كروح الوباء، ودأبوا على تجاهله حينما يمر بهم.

لم يطل به الوقت يوم طعن يده بالمنجل قبل أن يغدو الألم متعذر الاحتمال دونما صراخ. حينما مسح الدم تمكن من رؤية لطخ من القذر والشحم المبيض ناتئة من الجرح. وأياً كانت الكيفية التي يمسح بها الدم فقد ظل هذا يشخب متدفقاً. كانت الدراجة التي يمضي بها إلى المدرسة، وهي مقاس ثمانية كان الناس في الوادي يسمونها (الثمانية العتيقة)، (لم يدر ما الذي كان هذا الرقم يقيسه) هي الدراجة ذاتها التي كان يركبها منذ طفولته والتي تعرض بها على الأقل لحادث واحد كاد يكلفه حياته. وكانت حتى في وقت دخوله المدرسة الثانوية أكبر من أن تناسبه. حينما مضى إلى مؤخرة قاعة التجهيزات حيث كان يترك دراجته كان الدوار قد اشتد به جراء فقد الدم إلى حد أنه لم يعد قادراً على الوقوف دع جانباً وضع نفسه على المقعد المرتفع. بعد أن أحكم قبضته على مقود الدراجة تخلى عنه برزانة حتى لا تسقط الدراجة، ثم هوى على الأرض الطينية المبللة التي رقشت ثوبه، تماماً على نحو ما سترقش أورام أوعية الدم تلك صدره حينما يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره ويمرض كبده، رقشته بطحلب بهر لونه الأخضر المتألق بؤبؤيه الجاحظين حد الإيلام. جالد هونا ليرفع نفسه عن الأرض قابضاً على بقايا غليظة للأعشاب بيده الجريحة وقد ندت عنه أنة طويلة تقطع نياط القلوب، تهالك عاجزاً حيثما رقد، فيما هو يرقب باحدى عينيه فوق الأرض بثلاثة سنتيمترات، واصل الدم تدفقه من يده الجريحة، انسال إلى العشب، حل به هدوء غير مألوف، استشعر خجلاً من عنفه الفطري الذي طغا على السطح قبل قليل من العنف الذي اجترحه واعياً، انكمش لا من ألم فحسب وإنما عن خجل كذلك، راح يحادث «النكرة» من جديد: تجرع الدم. فمن أجلك سفحته! تحلقه الطلاب الجدد الآخرون الذين يحضرون إلى المدرسة بدورهم راكبين الدراجات، مضوا يحدقون فيه بفضول لا مبال واشمئزاز جلي على وجوههم، كما لو كانوا يرقبون كلباً ينفق لفرط الجوع. ما من أحد بينهم انطلق عدواً إلى مكتب الممرضة لأجله.

- هنالك دواء في تلك الأعشاب، لهذا يدفع اليد التي جرحها بالمنجل وسط الجذور على هذا النحو، هكذا تصنع الحيوانات البرية الجريحة دائماً. ذات مرة عالج غزال عظمة مكسورة من عظامه بالخوض في الينابيع الحارة! جاء ذلك على لسان ابن الطبيب في قريته الذي كان طالباً جديداً مثله لا يخالجه شك في أنه سيتصدر صفه الدراسي، حينما

جالد لينهض على قدميه بعيد لحظة، وسارعت المجموعة بالفرار، كان ابن الطبيب في مقدمة الهاربين.

على هذا النحو خلق نمطاً فريداً للحياة في المؤسسة المعروفة باسم المدرسة الثانوية بعد الحرب. الحق أنه قد اكتشف نمطاً للحياة يناسب العالم الواقعي في كل مكان يوجد فيه الآخرون دون أن تعوقه الندوب النفسية التي خلفها «النكرة» بتعبير آخر في كل مكان عدا الوادي الغائر في أعماق الغابة. كان ذلك اكتشافاً حاسماً، لم يحدث لمرة واحدة في السنوات الممتدة حتى بلوغه الخامسة والثلاثين حينما أمسك به شيطان سرطان الكبد أن وجد أنه مضطر للتحول إلى نمط حياة آخر. جعله ذلك يفكر في أنه من الضروري أن هناك أهمية ما في التماثل بين الأورام الناتئة على صدره الآن ونمط الطحلب على تلك الأرض المبللة التي سقط عليها والتقط أنفاسه فيما كان الدم يشخب من بدنه الصغير. أتراه قد سقط الآن نازفاً دمه على صدره المغطى بالأورام فيما هو يوشك أن يقضي نحبه جراء السرطان؟

«تعترض الكاتبة مقاطعة، وملتزمة مراعاة شعوره دونما شك، وقد أرهقها فيض ذكرياته الذي لا ينتهي: أظن أن الطبيب يعتقد شيئاً آخر، شيئاً أكثر مباشرة. ما الذي تعنين بقولك أكثر مباشرة؟ ترد مراوغة: ليس بمقدوري أن أقول شيئاً محدداً إلا بعد مراجعة الطبيب. يقول بأسى متحدياً إياها: يا للنحو الذي تتصرفين عليه! إني لا أثق بأنك تسجلين بدقة جزءاً من مئة مما أقوله. لست أحذف مقطعاً واحداً، لكنك كلما أغرقت في الحديث على نحو انفعالي غدا من المتعذر عليّ بصورة أكبر أن أعرف من أين يتدفق انفعالك، لئن قلت شيئاً غير ذلك فإني إذن من الكاذبين حقاً، لذا أردت أن أوضح لك هذا».

- ٣ -

«تقول «القائمة بأعمال منفذ الوصية»: كنت أتبادل الحديث لتوي مع الطبيب ولما كان من المفروض أن يكون (هو) المتحدث الوحيد في واقعه، فقد امتعض، أخذه الضيق إزاء توهج ذهن كاتبته بالحياة والحركة فيما ذهنه هو قابع في خلوده للراحة في رحاب السكينة. ما الذي ناقشتماه؟ إن لم يدر حديثكما حول إيقاف جرعات المورفين عني. كان الطبيب يستفسر عن ندوبك تلك المنتشرة على امتداد جسدك إذ يريد أن يتبين ما إذا كانت لديك نزعات انتحارية، فإذا اتضح أن الأمر كذلك فإنه بطبيعة الحال سيرتب أمر تعيين ممرضات للسهر على راحتك ليلاً. عندما تحرر (هو) من أسار لحظة التوتر النجلاء تلك انبعث يضحك: ها! ها! ها! هكذا تردد الصوت في أذنيه، لوناً من الضحك يدرك أنه لم

يصدر عنه طوال أعوامه الخمسة والثلاثين التي تشكل عمره، وإن كان يعيد إلى ذهنه على نحو لا سبيل معه إلى الخطأ ذكرى صديق له، يهودي أمريكي شاب من جامعة هارفارد انغرست عميقاً في حياته. كان يغرب في ضحك هستيري على وجه التقريب مثير للسخرية من الذات حينما يفاجئه أحد في موقف محرج لا يملك له إيضاحاً. انتحار؟ ها! ها! ها! يقول معوداً نفسه على هذا الأسلوب في الضحك، كما لو كان ألماً حاداً في قلب مخه، وإن ظلت «القائمة بأعمال منفذ الوصية» على تشككها: هذا الفراش الذي يشاركني فيه السرطان هو أبعد ما يمكن عن الانتحار. لم يكن الأمر راجعاً إلى قدرته على تحمل ردود أفعال أولئك الذين يتحلقون فراشه بالفعل، يحاول تواً، لالتقاط الأنفاس التي يحتاجها لمواصلة سرده، إيقاف ضحكه، لكن حروفاً أبجدية لا يزيد حجمها عن النمال تستمر لبعض الوقت تتناثر من شفتيه أصواتاً واهنة: ها! ها! ها!».

حينما تصور نفسه مواجهاً أمه يبلغها جاداً أن هدف الانتحار يوشك أن يتحقق، رغم أنه لم يكن قد فكر حتى في الانتحار، انبعثت قوة حياة مضادة في الاتجاه لقوة حياة السرطان الذي كان عاكفاً في نهم على الحاق الدمار سريعاً به نابضاً بالقدر نفسه بطاقة محرك هائل وبصفة خاصة مما قرب كبده المحموم المصاب بالاكال: أماه! لم تعد بي حاجة للانتحار، الآن بمقدوري أن أبحر متجاوزاً إياك، دونما اضطرار لبذل ذلك الضرب الخاص من ضروب الجهد. أموت موتاً شرعياً وأخلاقياً بكل المعاني! كانت الكلمات تحاكي قطعة موسيقية تلح في تحريكها لمؤديها أياً كان مدى تكراره لها. بل إنه في الحق تمتع بهذه القطعة الموسيقية الخاصة المؤلفة من الكلمات مرات لا حصر لها.

- أماه، ما صرعتني أرضاً، ما خضبت وجهي بالاذلال وأنا راقد هنالك، ما استطعت جعلي أحس في التو بنظرة من نظراتك الجانبية تلك لا أكثر بأنني لن أتحرر قط أيان انطلقت في العدو حتى فقدت الطاقة التي مست إليها حاجتي للوثب شخصاً جديداً إلى رحاب عالم جديد. كان ذلك حتى بعد أن أمسكت بتلابيبي متلبساً بمحاولة الانتحار، حين أوشكت على ترك المدرسة الثانوية. كان ذلك يشبه الإمساك بالمرء في غمار جلده عميرة وتقريعه بالقول: أنظر! إن القرد يجلد عميرة على نحو ما تفعل، ودفع قرد ينتعظ بالفعل في وجهك، قرد قذر، قميء متساقط الشعر لشيخوخته، مشوه البدن، وذلك العضو المتهالك الذي نالت منه الجراح في معارك بلا حصر من أجل السيادة الذكورية يحتفظ بحيويته كلحم حي في وعي القرد. ذلك كان شكل الإذلال الذي اخترته لي. أما كان كذلك يا أماه! أتيت كل ما بوسعك لجعلي أشعر كم سيكون أمراً وضيعاً ومخزياً لي أن

أقدم على الانتحار وأخلفك ورائي، ثم واصلت دفع هذه الرسالة في عظامي لأنك خشيت ألا تكون قد بلغتني. سرقت وصيتي التي أطلعوك عليها في مخفر الشرطة بالمدينة المجاورة، أليس كذلك، ربما تحتجين على نحو ما فعلت قبلاً لقولك إنك، خلافاً لي، لست بالسارقة، لكن حتى بافتراض أن الشرطة قد اعطتك تلك الكراسة باعتبارك «الوصية على» فقد كانت تنتمي إليّ، الأمر الذي يعني أنك سرقتها من صاحبها الشرعي. ثم انسللت إلى حجرة آلة النسخ بالمدرسة الاعدادية الجديدة في الوادي، بعثت بها إلى مدرسي ورفاقي بالمدرسة الثانوية، أما أقترفت ذلك! ولتؤكدي بضراوة كم كنت عاكفاً على ذاتي وطالباً سيئاً بالمدرسة الثانوية أنا الذي يوشك على الانتحار، وكم من الحروف يمكنني كتابتها خطأ وعلى نحو سيّء في صفحات قلائل من الكتابة العاطفية حتى تضاعفني اذلالي اضعافاً كتبت كلمة (كذا) على امتداد الأصل قبل استنساخه وتوزيعه، عندما اكتشفت الأمر وكدت أجن لفرط الحرج والغضب وأبديت احتجاجي، لم تنبسي بنت شفة، وإنما أصغيت صامتة، رحت تحدجينني بنظرات كالسهام. في صباح اليوم التالي كتبت على طرف صحيفة بقلم رصاص صلب بحاجة إلى اعمال المبراة فيه حتى اضطررت إلى تعريض الصحيفة للضوء وثنيها للخلف لأتمكن من قراءة ما كتبت «لست تملك لا الحق ولا ما يؤهلك للقيام بشيء كهذا، كما أنك تفتقر إلى الاقتناع» حتى جعلتني في الوقت الذي انتهيت فيه مما عكفت عليه مجرح المشاعر إلى حد الإصابة بالصرع على وجه التقريب. الآن وفيما أمعن التفكير بالأمر لا تخطر ببالي إلا فكرة بالغة الغموض عما كان يمكن أن يحدث لو أنني أخفقت في شنق نفسي فانهلت علي بالنقد الضاري. ثم لقد اخفقت في ذلك بالفعل، فأعملت لسانك فيّ نهشاً وتدميراً. عقب ذلك كان مجرد التفكير في الانتحار كافياً لتركيز وعيي على لين عريكتي، وافتقاري للنضج، غدا الانتحار أكثر المضائق استعصاء على سفن خيالي. لقد أدركت أنت ذلك، أما أدركته؟ فأمضيت عمرك بهدوء في الوادي طوال تلك السنوات مفترضة انك غللت يدي وقدمي. لكن الآن فجأة انقلبت كل الموائد، فليس علي أن أنتحر أو آتي شيئاً آخر من هذا القبيل، كل ما علي لأحرر نفسي هو الرقاد في الفراش ها هنا! ذلك أن كلبي المخلص سرطان يعمل طوال الليل والنهار على تحويل كبدي إلى صخرة طيبة الحجم! ليس بمقدورك التصدي لقوته حتى وإن ابتهلت للآلهة القردة، ذلك التوحيد الياباني للبوذية والطاوية الماثل فوق التل مثل جزيرة معزولة تطل على الوادي، الذي بجلته العائلة طوال أجيال بأسرها بحسبانه حارسنا الخاص، ذلك أنك لست نداً للسرطان.

«هل يعني هذا أنك لست فحسب أبعد ما تكون عن احتمال الانتحار في الوقت الراهن وإنما أنك لم تحاول قط الانتحار حقاً؟ ها! ها! ها! لا تبسطي الأمور أكثر مما تحتمل رجاء! لو أن تجربة صغيرة في الانتحار لم أتفهمها بنفسي تماماً في ذلك الوقت قدر لها أن تنجح، لكنت يقيناً قد كلت لامى الضربة القاضية التي تستحقها دونما وعي تقريباً».

كان منذ طفولته يجيد ركوب الدراجة، لكن مرة واحدة خلال عامه الأول بالمدرسة الاعدادية عقب الحرب حينما كان يفلح بالكاد في الوصول إلى دواستي الدراجة الكبيرة أرتطم بالسياج الاسمنتي المتألق المرقش بالميكا الذي يحف القنطرة الضخمة عند مخرج الوادي، لم يصبه إلا ارتطام صدره وذقنه بالسياج، لأن العجلة الأمامية انغرست في صدع بالسياج، ولأنه تشبث بالدراجة في إحكام بساقيه لحظة الصدام، لولا هاتان المصادفتان لكان يقيناً قد قفز عبر القنطرة رأساً على عقب متهاوياً عبر المنحدر الشديد الميل عبر التين البري الذي تصفر الريح وسطه، والذي يدفع أوراقه وثماره الهزيلة المحرومة من النسغ عبر الصدوع في قلب الصخر ولقي حتفه تواً، وتناثرت جثته على الصخور الناتئة من قاع النهر أسفل القنطرة الذي اتخذ محجراً.

فيما بعد حفلت ذاكرته بسجل للحادث يهشمه إلى تفاصيل لا يستغرق كل منها إلا أجزاء من الثانية، يمررها كأنها فيلم يعرض عرضاً بطيئاً، في القلب الرطب الندي للذكرى امتدت مساحة من العتمة استعصت على فهمه في ذلك الوقت، لكنها بشكل ما عاجلة وعذبة على نحو لا يمكن تقديره، وهو مناخ نفسي كان قادراً على إعادة خلقه في يسر ليعود به إلى رحاب زمان الذكرى مرات عديدة. ثم عقب ذلك بثلاث سنوات حينما غدا طالباً بالمدرسة الثانوية اكتشف فجأة، في وقت متأخر من إحدى الليالي، أنه كان يحاول الانتحار على متن تلك الدراجة المسرعة، مجمداً نفسه في حالة من الوعي الباطن الغامض فيما هو يحرك الدواستين حريصاً خشية أن يتحرك الوعي لكبح جماحه. فيما الدراجة تنطلق مسرعة حول ذلك المنحنى المنحدر عن التل الذي غدا مدخلاً للاقتراب من القنطرة راح وعيه يصرخ، اضغط على الكوابح! أدر المقود! لكن جسمه كان قد فقد الحس، فلم يبد اهتماماً بالتحذيرات واللامبالاة، وأدرك أن الدراجة قد ارتطمت بالحاجز. كان المغزى الحقيقي لانفصال الجسد والوعي اكتشافاً مذهلاً. حينما أدرك الجمال البسيط الكامن في هذه الآلية بدت محاولته شنق نفسه بعد الحادث بثلاثة أعوام شيئاً مضطرباً جلي الزيف.

لما كان قد توصل إلى هذا الاكتشاف وحده وبعد شهر واحد من محاولة أخرى

للانتحار لم تفض إلى نتيجة حاسمة؛ فقد عنى هذا الاكتشاف ذاته تعضيده دونما إجبار لرؤية أمه السابقة له، حينما أدرك هزيمته بوضوح أفعمته قائمة الأمور التي كانت أمه تقرعه بها منذ محاولته الانتحار غضباً من جديد راح يتقد مستعراً بصورة أكبر وعلى نحو لا يمكن إخماده، بعد أن أدرك مدى بعد هذه القائمة عن المنطق والمعقول. عندما أفرغ في جوفه علبة من القصدير تحتوي ملء قدح من الكحول الاثيلي اختلسه من حجرة أدوات المعمل بالمدرسة الثانوية، ظاناً أنه كحول ميثيلي، غادر المخزن الذي يرقد فيه وحيداً الآن بعد أن مضى «النكرة» في الهالكين، دلف إلى رحاب الظلال الكثيفة المخيمة في المطبخ بالدار، وقف وسكين في يده أمام الكتلة الغارقة في ظلام أشد والتي كانت أمه غارقة في رقادها على الأرض الخشبية وقد غطت رأسها بأغطية الفراش، لكن من شفتيه اللتين شعر بأنهما توشكان على التهاوي بفعل الكحول حتى فيما كان الفتى المخمور يحدث نفسه بشعور زائف بالسيطرة على نفسه: على الأقل لا تزال الحياة تدب في حلقي وما يزال لساني يعمل ـ من هاتين الشفتين ندت الكلمات التالية:

ـ أماه، أنت وأنا وحدنا الباقيان هاهنا. لا بد أن نتزوج سراً، وننجب العديد من الأطفال، فنئد الثمرة الشاذة لزواجنا المحرم في المهد ولا نبقي إلا على المعافى والصحيح البدن ونعمل لرفاه ورثتنا، وهكذا، يا أماه، علينا أن نصلح ما نتج عن مقتل «النكرة».

عندئذٍ شرع يدور في دوامة مغرقة في الخيال حقاً من الحيرة والخوف لا يحاكيها قط شيء حدث له حتى اليوم. فغرت فتحة شدقيها في قاع رأسه الذي قص شعره فغدا قصيراً للغاية، تقاطر الدم عبر عنقه الأجوف، على الرغم من أن عالمه الواعي حلت به الظلمة المطبقة فإن جسده الذي انعشته هذه الوفرة من الدم الجديد شرع ينبض، ينتفض، وأخيراً يتحرك بحيوية، كما لو كان ذراع قد انبثق من صدره وساق أخرى امتدت من بطنه وخرج تماماً عن نطاق سيطرته . . .

ذهبت أمه إلى القول بأنه قد جن بالفعل منذ كان في الثالثة من عمره وأنه على الرغم من أن موت «النكرة» ربما فاقم من جنونه إلا أنه من المهم ادراك أنه قد جن تماماً منذ الطفولة. فيما أرغم مراراً وتكراراً على الإصغاء لأمه وهي تقص في مقت وازدراء الحادث الذي كان «برهاناً» على هذا، راوده شعور بأنه أودعه ذاكرته هو الآخر كطفل صغير في الوقت الذي وقع فيه، بل أنه الآن استطاع استحضار ذكرى الحادث بدقة وصولاً إلى أهون التفاصيل شأناً بحسبانه شيئاً عايشه بشخصه.

في الثالثة من عمره راح يحدق في يديه الصغيرتين، ووقف لا عاجزاً عن الحركة فحسب وإنما مشدودة عضلاته الواهنة كذلك وقد تجمد رعباً. الآن فيما يحدق في يديه الضخمتين الملتهبتي الحمرة جراء التليف الكبدي، ومع ذلك تشبهان يدي الطفل، يستحضر في فراغ سمت الظهيرة بذلك الوادي الواقع في الغابة في أغوار وعيه في الخامسة والثلاثين من عمره الطفل الذي كأنه محدثاً نفسه متأملاً بأنه إذا اعتلى متن آلة زمن وعاد إلى جوار ذلك الطفل المذعور في الوادي واحتضن هذين الكتفين الصغيرين المتصلبين فإن يديه ستفقدان في الوقت الراهن حمرتهما الملتهبة. غني عن القول إنه ما من آلة زمن من أي نوع ستستخدم بالفعل؛ حيث أنه يرغب يائساً في أن يلقى حتفه في موت حافل بالعذاب جراء التليف الكبدي الذي سببه السرطان وأن يوجه إلى أمه لطمة تدوم إلى الأزل.

لاحظ الطفل الذي كانه لتوه أن يديه هما «أشياء»، غريبة، مفارقة، مرعبة، ولما عجز عن القائها بعيداً وقف متجمداً في موضعه، شحب وجهه على الفور. غارت عيناه في محجريهما، وتطلعتا إلى أعلى، كأنما تتدحرجان كاشفتين عن بياضهما، فيما انعقد العرق على الجلد المحيط بعينيه محاكياً حليباً خفيفاً. رفعت أمه الحسناء، التي كانت في صدر الثلاثينيات من عمرها آنذاك والمفارقة في طرائق معيشتها لأهالي الوادي لأنها نشأت في الصين، رفعت يديها عالياً، وحاولت تحويل انتباه الطفل:
- انظر! يداي مثل يديك، اليدان البشريّتان ذاتهما.

في هذه اللحظة داهمته «الأشياء» الغريبة والمفارقة والمرعبة على نحو لا منجاة منه وتضاعف عددها، صرخ، آهـه! اختنق، في الوقت ذاته صرخ الرجل في الخامسة والثلاثين من عمره صرخة طفولية آهه! تهاوى شاعراً بضرب من السعادة لا يدري له على وجه التحديد مصدراً.

«ما الذي تعنيه بقولك «صرح صرخة طفولية»؟ يبدو أنك شديد التعاطف مع علم دلالات الألفاظ! يقول: كنت أحاول القول بأنه تظاهر بالصراخ بصوت طفولي! آهـه! آهه! آهه! لكن ما أردتَ السؤال عنه حقاً هو ما إذا كنتُ قد جننتُ بالفعل في الثالثة من عمري، أعلى صواب أنا؟ بوسعي أن أقول لك إنه ما من أحد في ذلك الوادي قارنني بأمي فقال إنني أكثر جنوناً منها».

ذات مرة اختلس النظر إلى دفتر عتيق لأمه ووجد القصيدة التالية:

لئن شق خاطب على غير انتظار طريقه نحوي،

فبالله عليكم خبروه،
أني مضيت إلى رحاب البحر المتثم،
بصرخة لوعة، فالريح تملأ أشرعتي.

لما كان لا يعرف إلا القليل في ذلك الوقت فقد عجز عن تحديد ما إذا كان للقصيدة مصدر كلاسيكي أم أن أمه نظمتها بنفسها (غني عن البيان أن الموقف كان من شأنه أن يكون حرجاً ومفزعاً لو اكتشفته أمه عاكفاً على مطالعة دفترها، ذلك هو سبب تطفله على الصفحة التي تصادف أنه كان مفتوحاً عندها فحسب) لكنه شعر بأن بمقدوره أن يرصد في قرار الرؤيا التي حملت هذه القصيدة إلى الوجود شيئاً عابثاً، سوقياً، عارياً، شيئاً قد يمكن أن يقال إنه رغبة، بدا أن ما في القصيدة من استثارة يمكن أن يؤثر فيما ورثه عن أمه من دماء على نحو يفجر طفحاً جلدياً على بدنه.

كان يحاول في ذلك الوقت، آملاً الهرب إلى أبعد مسافة ممكنة من أمه ولو جغرافياً فحسب، الالتحاق بإحدى الجامعات بطوكيو حيث لم تكن مصاريف الالتحاق تتجاوز مئات معدودات من الينات. فور انتهاء اختبار القبول أمكنه التقدم بطلب الإعفاء من مصاريف التعليم وللحصول على منحة دراسية، عكف كلون من الاستعداد لاختبار القبول في اللغة الانجليزية على قراءة كتب عن الرجال العظام الذين قاموا بجلائل الأعمال كانت مثل هذه الكتب الورقية الغلاف، شأن الهليون والزبد المعلب الذي خلفه الأمريكيون الذين جاءوا إلى الوادي عبر الغابة في سيارات الجيب ومكثوا فترة قصيرة بالقرية في خريف ١٩٤٥، طبعة مهجورة لا قيمة لها بالنسبة لأي من سكان الوادي. وقد اكتشفها ذات يوم حينما عهد إليه البعض بتنظيف المخزن بمقر الجمعية التعاونية، وجد أن بوسعه مراجعة معلوماته بالاستعانة بقوته اللغوية التي حصلها في المدرسة الثانوية. في أحد هذه الكتب قرأ قصة تدور حول تاجر عاج متقاعد يقيم في لندن يلقى حتفه بلدغة نحلة لا توجد إلا في غابة صغيرة إلى الداخل من أرض ساحل العاج، وفي المرة الأولى التي تلدغ فيها نحلة من هذا النوع شخصاً فإنه لا يصاب إلا بألم شديد فحسب، أما إذا شاء سوء حظه أن يلدغ للمرة الثانية فعليه أن يتأهب للموت.

لم يتردد في أن يلقى بنفسه في عباب المعارك لعله يسفك الدم الذي ورثه عن أمه، بل أحدث جراحاً بنفسه كأنما لم يكفه ذلك، لكن جانباً منه لم يستطع سفكه ظل في عروقه، وقد دفعت لدغة قصيدة أمه هذا الدم للتسارع في عروقه كأنه سم النحلة القاتلة، لكنه لم يدرك تماماً أن فترة حضانة طويلة كانت قد اكتملت لتوها. قد يقال لهذا السبب

على وجه الدقة إنه لم يستطع قط الهرب من الطفح الجلدي الذي أحدثته هذه القصيدة الغريبة، فبعد سنوات أقام علاقة جنسية بممثلة سينمائية عادت إلى اليابان من بكين في شرخ شبابها مع نهاية الحرب، في ذلك الوقت بلغ طفح القصيدة أقصاه.

«يوضح قائلاً: أعتقد أنك تظنين أن تلك أكذوبة مؤسفة حول علاقة جنسية مع ممثلة، لكن في هذه الحالة كان يتعين أن تكون رفيقتي ممثلة، فذلك ما يقرر واقعية الماضي، وهو ما يمكن أن يعني كذلك أن الأمر كان ينبغي أن يكون كذلك في الواقع، ألا ترين ذلك؟ غير أن «القائمة بأعمال منفذ الوصية» تظل على جمودها».

بدأت المتاعب ذات يوم قبيل انفضاض علاقتهما حينما قالت له الممثلة منحية عليه باللوم وسط مضاجعتهما:

- هل هنالك ما يثير الشهوة في «صرخة لوعة، فالريح تملأ أشرعتي»؟ لم تعد قادراً حتى على الانتصاب عليّ دون صرخة الحرب تلك، هل بمقدورك ذلك؟

لم يكن قد أدرك حتى اللحظة التي تحدثت فيها الممثلة أنه كان يهمس بالقصيدة في أذنيها، من هنا طالبته بأن يوضحها له لتشاركه الاستمتاع بإثارتها للشهوة، لكن في هذه اللحظة انقضّت صاعقة على قنطرة يافوخه المتراخي، قدر أنه ما يزال أمامه الكثير من العناء قبل أن تصل رفيقته إلى انتعاظها، فتحدر إلى قضيبه الغائر حد الدفن في مهبلها، وقذف منفرداً دونها وابتسامة غامضة تتلاعب على شفتيه. عقب ذلك أصبح هناك دائماً شيء ثقيل الوطأة قابض للصدر في غمار مضاجعة هذه الممثلة، كما لو كان ينتهك شيئاً محرماً، وبعد انتهاء الجماع لم يكن يشعر بالإعياء فحسب وإنما كانت خصيتاه تنبضان ألماً دونما سبب ظاهر كأنما تعتصرهما قوة خفية. لما كان مجرد احتمال أن رجلاً يشاركها المضاجعة قد يعرف أي شيء إلا العذوبة في أصفى أشكالها يثير فزع الممثلة كما لو كانت ترى فيه نذيراً بانتهاء حياتها العملية فقد انتهى بهما الأمر أخيراً إلى الافتراق. مع ذلك فقد شاهدها عقب ذلك بعدة سنوات على شاشة التليفزيون في وقت متأخر من الليل تقوم بدور ربة دار، فشعر بأنه يرى شبح أمه، وانبعث ينقب الغرفة بحثاً في مزيد من العناية، وقد وقف شعر رأسه من فرط الهول.

حوالي العام الأخير من الحرب وبينما كان ينتقل من الطفولة إلى الصبا كان قد اشتمّ بالفعل من المشادات القصيرة المفعمة مقتاً بين أمه و «النكرة» أن جده لأمه كان ضالعاً في مؤامرة كشف النقاب عنها في عام ١٩١٢ والتي ما كان يمكن لأحد خلال الحرب أن يأتي

على ذكرها. لكن أمه لم تبادر قط بذكر أي تفاصيل في هذا الشأن. ولما كانت قد التزمت صمتاً أشد تصلباً عقب مصرع «النكرة» فلم يكن هناك سبيل لاظهار الحقائق من داخل العائلة. كانت قد نشأت في الصين، ولا أقارب لها في اليابان، وتذكر أنه حينما كان طفلاً صغيراً أقبل شاب قال إنه راهب من مقاطعة واكايامـا لزيارتهـا فقيل له إن «النكرة» في منشوريا؛ ومن ثم مضى لطيته. من المحتمل إلى حد بعيد أن ذلك كانت له علاقة أياً ما كانت طبيعتها بما وراء الأكمة. عقب انتهاء الحرب وحينما قام «الامبراطور الإنسان»[1] بزيارة للمقاطعات، ورحل عدد كبير من طلاب ومدرسي المدرسة الاعدادية إلى عاصمة المقاطعة للترحيب به، استدعاه مدرس صفه. على الرغم من أنه لم يفلح في انتزاع النقود الضرورية للرحلة من أمه، ولم يبد اكتراثاً كبيراً بالمضي مع رفاقه كأنما رده السحر السلبي الكامن في كلمتي «الامبراطور الإنسان» والذي سرى إلى أشد المكامن عتمة في وعيه، وحدثه في رفق بصوت متهدج متكلف دون أن ينظر إليه مرة واحدة بأنه لا ينبغي أن يذهب مع الآخرين. لم يحدث أمه بذلك على نحو مباشر،ورغم ذلك فقد مضت بعد عدة أيام إلى غرفة المدرسين معلنة احتجاجها على ما عومل به ولدها. منذ ذلك الوقت تجاهله مدرس الصف كلية. بيد أنه لم يسأل أمه قط عما ذهبت لتحتج عليه بالتحديد. لم يكن ذلك راجعاً إلى خشيته من الصمت الساخر الذي سترد به على استفساره وإنما لأنه استشعر منذ البدء أن أمه كانت على حق فيما يتعلق بهذا الحادث. لم يكن في داره خلال سنوات الحرب أي شيء تربطه علاقة بالعائلة الامبراطورية، لم تكن هنـاك صورة للامبراطـور منتزعـة من ملاحق المجلات. ومع كونه طفلاً فقد كان يعلم أن ليس بالوادي دور كداره، وظن بطريقته الطفولية أن الأمر غريب خاصة وأن «النكرة» كان على صلة بالعسكريين وطالما أكد مرات لا حصر لها أهمية الدفاع عن «الدولة القومية».

ذات يوم في بداية الحرب، حينما كانت العائلة لا تزال تحتل مكانتها المرموقة في مجتمع الوادي على الرغم من أن «النكرة» كان في منشوريا، قامت زوجة عمدة القـرية الذي خلف «النكرة» في هذا المنصب بزيارة لتقديم كنتها الجديدة إلى أمه. راحت تفاخر بأن والدي الفتاة يملكان آنية للشاي تشبه التمرة تلقّياهـا من نبيل شهير. لم يكن بالـدار فيسمع هذا مباشرة، وما يذكره إنما هو حادث غدا بالفعل أسطورة في الوادي، حدثوه بها لا لأنه كان ابن الشخصية الرئيسية في الأسطورة، وإنما بصورة عامة لتهذيبه كأحد أبناء

(١) في يناير ١٩٤٦ أعلن الأمبراطور هيروهيتو للشعب الياباني أنه إنسان فان وليس بإله (هـ. م.).

الجيل الجديد، فقد قيل إن أمه قالت مستخدمة لكنة زائرتيها الغربية ساخرة:

ـ لا بد أنك تعنين بذور البرسيمون لا التمر، فإذا كانا قد حصلا على الآنية من قرد كالزنبيل، فلا بد أنه كانت بها بذور البرسيمون، أجل، سيدتي[1]!.

في اليوم الذي سمع فيه بهذه القصة سأل أمه فيما كانا يتناولان طعام الغداء لم قالت مثل هذه المقالة، لكنها رشقته فحسب بنظراتها الجانبية تلك، كما لو كان غريباً وقحاً أساء التصرف بطرح هذا السؤال، وتجاهلت السؤال تماماً مواصلة جلستها في العتمة على أرض المطبخ الخشبية وقدماها مطويتان تحتها على نحو ما يليق بها.

من بين كل العيون التي واجهها في حياته التي توشك الآن على الانتهاء كانت عينا أمه المحدقتان تنقلان إليه أقصى ضروب النكران وعدم الثقة إثارة للغثيان في نفسه، وحينما تقع عليه هاتيك النظرات الجانبية يرتعش الخدر الهش لوجوده ككائن بشري مثلما يهتز عود ذرة تحت الشمس الحارقة، فما يعود ممكناً أن يعلن في براءة انتماءه إلى الجنس البشري. حينما درس الفلسفة الفرنسية بالكلية وواجه الافتراض القائل بأن وضعية الإنسان الأساسية هي التعاسة تفهم ذلك الوضع بصورة طبيعية باعتباره ما كان مجبراً على أن يعيه دوماً تحت وقع نظرات أمه. حتى خلال أيامه السعيدة؟ لكن ذلك كان عهداً لم يكن لهذه النظرات وجود فيه. غير أن التمهيدات لظهورها كانت قد اكتملت بالفعل. في ذلك اليوم الصيفي من عام ١٩٤٥ لاحت روح العين الشريرة الخاصة هذه حيث كانت الطائرات اليابانية والأمريكية مشتبكة في قتال ضار على ارتفاع منخفض في السماء وهبطت مسرعة، فسكنت محجري عيني أمه، وقبعت هناك للأبد. عندما قرأ الشعر الإنجليزي في الكلية أيضاً وصادف البيتين التاليين أدرك تواً أن العيون التي يتحدثان عنها هي على وجه الدقة العيون المحدقة التي كانت موضع سخيمته سنوات طوالاً، هكذا توصل إلى أساس شاد عليه تفسيراً صحيحاً لكابوس داهمه بلا توقف.

عيون لا تواتيني الجرأة للقائها في الأحلام،
في مملكة الموت الكابوسية.

---

(١) في الأصل الياباني لونان من البديع يتضمن أولهما تلاعباً في الألفاظ بين (آنية للشاي تشبه التمرة) و (التمر) والآخر تلاعباً مماثلاً بين (نبيل شهير) و (قرد كالزنبيل) وثمة حكاية يابانية تعود للعصور الوسطى تقول إن قرداً خدع سرطاناً فسلبه حبات من الأرز بإعطائه بذور البرسيون بدلاً منها مؤكداً له أنها ستكبر وتصبح برسيموناً شهياً، ومعروف أن البرسيمون شجر ذو ثمر أصفر (هـ. م.).

أراد، حتى وإن خاطر بالتكرار الممل، أن يوضح أنه على العكس من «العينين المخيفتين» اللتين تظهران في كتب الأطفال المصورة كعينين صافيتين لا تطرفان، كبحيرات ظلمة بلا قرار، كانت هاتان العينان اللتان تعكسان ضوءاً شاحب الصفرة كعيني قرد تماماً وتختلسان نظرات سريعة باتجاهه هما «العينان المخيفتان» حقاً.

حتى حينما اعتاد فراش مرضه هذا يحسب أنه ملاذه في هذا الوقت الأخير كان غالباً ما يستحضر من بحيرة الذكرى التي لا تعتكر صورة أمه وهي ترمقه بهاتين «العينين المخيفتين» ويبعث ضروب صراعه ضدهما التي كانت تنتهي دوماً باستسلامه في مراحل مختلفة من الحياة مقلداً صوته في كل مرة برنين عال مصطنع.

كان أهل القرية يجلون «النكرة» ويعتمدون عليه أيضاً، وذلك هو السر في أن أحداً لم يتصل بالشرطة أو طلبة الكلية الحربية الذين يستقطرون الزيت من جذور أشجار الصنوبر حينما غادر الوادي في تلك العربة ليقود الانتفاضة. ولو أن أحداً سرّب كلمة واحدة لقضى على «النكرة» في تلك العربة، كخنزير لحيم، أياً كان استبسال أولئك الجنود الذين تركوا صفوف الجيش في الدفاع عنه، ذلك أنه ما كان بمقدوره الابتعاد سيراً على الأقدام.

ـ عربة! أتسمي ذلك الصندوق المضحك فوق كتلتين من الخشب نشرتا من جذع شجرة عربة؟

هتفت أمه بهذه الكلمات في ضراوة، وأضافت:

ـ كذلك كان يمكن لشخص آخر أعرفه إلى جوار هذه الزمرة الهاربة من صفوف الجيش فيما هي تدفع كادحة ذلك الصندوق المتصدع على كتل الخشب قدماً، وقد وضع على رأسه خوذة زائفة وأرخاها حتى أذنيه وقميصه من الغضار المضفور وسراويله العتيقة مربوطة بحبل تحت ركبتيه ـ الله يعلم لماذا ـ ونعلاه المصنوعان من القش ـ أن يمسك به مثل خنزير صغير حتى إذا كان شخص آخر أعرفه قد لوح بذلك السونكي الذي كان يفخر به!

عندئذ حاولت أمه أن تجعله يتذكر كيف أنه بعد انقسام جماعة «النكرة» حول السبيل الأمثل للاتصال بالجيش أقبل وحيداً إلى الوادي، تحول إلى ما سمي بلهجة أبناء الوادي بـ «الصدّيق» رجلاً مغترباً، فقد كل شيء نتيجة لهاجس غريب من نوع ما، اعتزل الناس في مخزن مهجور، تركه الناس لشأنه طالما لم يضايق أحداً منهم، فيما خلا بعض من تطوعوا بمهمام المرشدين والذين كانوا يقبلون دائماً ليلقوا نظرة حينما يحدث شيء حتى ولو كان

إيقاد النار عند جانب التل، وكيف أنه لم يبق ثمة ما يؤكل، حيث لم تكن عائلات المزارعين لتقدم عن طيب خاطر الأرز والقمح لـ «النكرة»، اللّهم إلا تلك الأجزاء الخاصة من الثيران والخنازير التي لا يأكلها أبناء المقاطعة بصفة عامة والتي كان إحضارها يتم سراً وبسعر باهظ.

ـ كان المكان الوحيد الذي تناول أهله العصيدة دون حبة قمح أو أرز واحدة فيها لمثل هذه المدة الطويلة في الوادي كله هو دار المزرعة، نعم، سيدي!

قالتها أمه في معرض تذكيره بما كان، ثم أشارت إلى هيكله الهزيل وأسنانه القبيحة غير المنتظمة وكل السمات الجسدية الأخرى التي نتجت عن العيش على الأعشاب البرية وأنصبة محدودة من بذور البطاطس وقد طهيت في شكل عصيدة خلال صباه الباكر، حدثته ساخرة بأن هذه الآثار الجانبية لسوء التغذية في الطفولة ستصحبه طوال عمره.

ـ لكن الجميع في القرية كانوا يشعرون بالقلق على «النكرة» خاصة قرب نهاية الحرب، وقد حاولوا جميعاً اكتشاف ما يفكر فيه بإعطائي ثمار اليام الجافة وما إلى ذلك.

ـ لأنهم جعلوا منك فتى من النوع الذي يفشي مخازي عائلته لقاء ثمرة يام جافة. نعم، سيدي! طيب، في هذا الوادي وحينما تسوء الأحوال يشرع الناس دوماً في إبداء الاهتمام بالمعتوهين والعجزة والأطفال الذين يبدون وكأنهم يفتقرون إلى فرصة الإفلات بجلودهم (انهالت عليه النظرة التي رشقته أمه بها كقبضة ارتطمت بأمعائه التي تشابكت هلعاً تحت ظلال شبح الموت المخزي الذي فرض نفسه على ذلك الآخر، شبح «النكرة» ينز دماً في العربة من مثانته، ذلك الشبح الذي أذاقه أفانين العذاب مع حلول الظلام من كل ليلة منذ انتهاء أيامه السعيدة لأنه كان يبدو كما لو كان يقول بدوره إنه كان يقيناً طفلاً يفتقر إلى فرصته للإفلات بعمره) ويحاولون جهدهم ألا تفوتهم نذر التغير التي تبدو عليهم، لا لأنهم يؤمنون بأن مثل هؤلاء الناس أوتوا قوى روحية تفوق ما أوتي البشر، وإنما لأنهم يعلمون حق العلم في غمار قسوتهم أن نذر بؤس الوادي ستظهر مبكرة في شخص الناس الأشد ضعفاً في الغابة كالمعتوهين والعجزة والأطفال الذين يبدو عليهم أنهم يوشكون على الاحتضار، نعم، سيدي!

بقدر ما كان يرغب في يفاعته في أن يظل محتفظاً موضوعياً بشعور بالفخار، كان عاجزاً عن المجادلة بقوة صخرة تتحدر من عل والقول بأن «النكرة» لم يكن، يقيناً وبالتحديد، موضعاً لهذا النوع من الاهتمام من جانب أبناء الوادي. كانت الصعوبة التي يواجهها كامنة

في أنه أحس بأن تأكيدات أمه الصارمة تخلع على كل حادث من حوادث فصول الصيف الأخيرة تلك في الحرب، هذه الحوادث التي ظلت دونما تفسير في ذكرياته الباكرة بأشكالها العديدة الفجة معنى محدداً يناسبها تماماً ويصعب إنكاره. لكن ذلك لا يعني أنه كان قادراً على قبول «صواب» أمه في ذاته، ذلك أن هذا الصواب، صواب مجالد على نحو يتحدى المنطق يجرحه حتى الأعماق داخلياً وخارجياً في الوقت نفسه، كان واقعياً على نحو مخيف بل كان جلياً تماماً مثل عينيها المحدقتين.

- لكن «النكرة» لم يكن معتوهاً ولا عاجزاً ولا طفلاً يوشك على الاحتضار!

- إن الرجل الذي يعتكف وحيداً في مخزن ليلاً ونهاراً هو رجل معتوه، نعم سيدي! والرجل الذي ينزف من مثانته المصابة لكنه لا يستطيع التبول دون مساعدة لأنه بالغ البدانة ولا يستطيع الحركة هو رجل عاجز، نعم، سيدي! والرجل الذي ينطلق في رحلة طويلة في صندوق خشبي مع بعض الهاربين من صفوف الجيش بينما ليست أمامه فرصة للعودة حياً هو رجل أسوأ طالعاً حتى من طفل يحتضر، نعم، سيدي! كان اهتمام مزارعي الوادي الماكرين به مرده أنه من ذلك النوع من الشخصيات المثيرة للإشفاق، لقد كان ضرباً من العار، ألا تفهم ذلك! أم ترى من الحماقة الحديث عن العار مع شخص كان يلتقط النفاية التي يلقي بها الآخرون ويلتهمها منذ كان طفلاً. آه!

تجيش انفعالاته تواً وهو يستعيد ذكرى رنين صوت أمه في ذلك اليوم راقداً في مرضه مصاباً بالسرطان متصاعداً في يأس إلى بحران اللحظة الحقيقية في رحاب الذكرى، حينما أمسك بفأس دون يد خشبيه كانت ملقاة غير بعيد وحاول الهجوم بها على أمه. أثار الاندفاع الفجائي فوضى أقرب إلى الهستيريا في مقلتيه خلف النظارة الواقية. وبدأ يرى كل شيء جسيمات صغيرة كبذور الخشخاش. رغم مقاومة النظارة ذاتها التي أحدثت دوائر حمراء في جلده. وأغمض عينيه بإحكام، ودحرج الكلمات صامتاً على لسانه المحترق جفافاً:

أجل، كنت الصبي الذي يلتقط بذور البطاطس التي نبذت على امتداد حواف حقول بعينها لايزال بمقدوري تذكرها، الذي كان يقتطع الأجزاء الطيبة ويستخدمها في العصيدة لكنك كنت تتناولينها كذلك يا أماه! لربما كان من الحماقة الحديث عن العار مع شخص مثله. كانت أمه قد أنّت كما لو كان الحزن قد اخترم قلبها. لكنه كان في الحق قد أصبح لديه شعوره الخاص الفريد بالشرف، وقد كان هذا الشعور هو الذي منعه من أن يرد بتلك

الكلمات على أمه يوم شجارهما عقب ذلك، وطوال ما يزيد على عقدين من الزمان تذوق مراراً وتكراراً ورعدة الشجن تهزه طعم ورنات تلك الكلمات التي عجز عن التلفظ بها في ذلك اليوم.

«تقول «القائمة بأعمال منفذ الوصية»: لم تدأب على دعوته بـ«النكرة»؟ ألا أستطيع كتابة «الأب» محل هذا اللقب؟ حينما تقول «النكرة» يبدو كما لو كان شخصاً خيالياً في أسطورة أو في التاريخ. ربما أصرت أمي على دعوته بـ«النكرة» اعتباراً من يوم معين شديد الخصوصية لأنها على وجه الدقة رغبت في التدني به إلى مستوى شخص خيالي لا وجود له، وعندما تركت الوادي للأبد إلى مكان لم يكن فيه أثر لـ«النكرة» شرعت تدريجياً أسائل نفسي، ربما لأني كنت قد تأثرت بنكران أمي له، عما إذا لم أكن قد خلقت «النكرة» خلقاً في خيالي، لكن حتى إذا كان وليد الخيال فقد أفلح في أن يكون مصدر متاعب لا نهاية لها. كنت أحدث نفسي في بعض الأوقات بأنني ربما جننت منذ كنت في الثالثة من عمري على نحو ما تقول أمي، وإذا ما استرددت عقلي يوماً فإن الشبح الذي يسومني العذاب والذي أدعوه بـ«النكرة» سيختفي، لكني أشعر بشعور مختلف الآن، فلئن كنت مجنوناً فلا بأس، إذ عقدت العزم على أن أظل كما أنا وأواصل مشاركة شبحي الأثير «النكرة» الحياة. ها! ها! ها! لكن أتعرفين؟ مع مرور الوقت وبدء ظهور بعض المذكرات الرسمية وغير الرسمية وخاصة في الدوائر الرجعية ونشرها للكافة صادفت اسم «النكرة» كثيراً في سرد العمليات المناهضة لتوجو في جيش كانتو، بل ورأيت صورة فوتوغرافية لإحدى قصائده، التي ما كان يمكن أن تكون أبعد صلة عما كان قائماً بالعسكريين، مخطوطة بخط يده باستخدام الفرشاة والحبر. لم تكن عائلتي تتميز قط بشيء خاص، لكن عدداً من الخطاطين برزوا من بين صفوفها. ومن المحقق أن «النكرة» كان فخوراً بخطه، على أية حال إن كنت الآن موجوداً ها هنا حقاً، وإني لكذلك بالفعل، فقد وجد «النكرة» يقيناً بدوره. ويمكن لجعل شخص ما يبدو مخلوقاً وهمياً أن يكون أسلوباً لتحقيره، لكنه يمكن أن يكون كذلك طريقة للسمو به ليغدو معبوداً من نوع ما. من هنا أرجو ألا تغيري هذا اللقب إلى كلمة «أب» وواصلي كتابة «النكرة» بل أود أن تكتبي اللقب بحروف سميكة ثم تظلليها بقلمك إلى أن تحاكي حروب الطباعة القوطية».

- ٤ -

كان من السهل قراءة نماذج كتابة «النكرة» التي اكتشفها في المستنسخات المصورة

فيما يعرف بالمذكرات العسكرية السرية، وذلك على الرغم مما شابها في غمار الطباعة، لأنها كتبت بحروف مصورة للكلام المنطوق على غرار أسلوب الخطاط العظيم هيكاجودو. وقد أتى حين من الدهر على المنطقة الممتدة داخل وحول الغابة المحيطة بالوادي ضجت فيه بالكثيرين من الخطاطين الهواة وفقاً لمدرسة هيكاجودو أو فوسيتسو. ومن شأن القول بأنه ينحدر من أصلاب سلسلة طويلة من الخطاطين أن يكون تباهياً سمجاً، فلم يتطور أسلوب «النكرة» عبر أجيال متتابعة من أبناء العائلة وإنما كان مثالاً لأسلوب الهواة المنتشر في أرجاء المنطقة كافة. كانت المدونات قد أرخت بوضوح وكتبت في نهاية ذلك العام من الحرب التي احتفظت حول ذاتها بشعور عارم من الندبة يقوم على أساس شبح أمه كان يغطي وجه السماء التي كان بمقدوره أن يراها من الوادي والذي جعله حقاً ورغم مخاوفه وهواجسه الدفينة يتوق إلى موت الند في مواجهة نده. ذلك العام الذي كانت أنشوطة خانقة قد التفت فيه حول عنق الحرب من خلال هزيمة البحرية الأمبراطورية في ميدواي والدمار الأكثر مدعاة للرثاء في قناة جودال، أثار التاريخ في ذهنه تواً صوراً محددة للحظة في رحاب الماضي لا وجود لها إلا بالنسبة له ولـ «النكرة». ذلك أنه في عيد العام الجديد في العام التالي، أي عام ١٩٤٣، عاد «النكرة» على غير انتظار إلى الوادي من جديد، مضى مباشرة إلى رحاب العزلة في المخزن، مكث هناك وحيداً، ترهل جسده لامتناعه عن القيام بالتدريبات الرياضية والشهية الجارفة للطعام حد المس، فقد في النهاية حتى القدرة على الوقوف بنفسه دون مساعدة الآخرين مع تفاقم سرطان مثانته، دون أن يقدر له الظهور مرة أخرى أمام أبناء الوادي إلا قبيل أيام من الهزيمة حينما غادر الوادي في عربة مع عشرة من الجنود الذين غادروا صفوف الجيش وأقبلوا لاصطحابه مع ابنه.

لم يكن أي من الفتى أو، فيما يعتقد، أمه يدري شيئاً عن الظروف التي أعادت «النكرة» فجأة من منشوريا في عيد العام الجديد. كان بالطبع جاهلاً بالمثل بالأسباب التي حدت بـ «النكرة» إلى إلقاء نفسه في رحاب العزلة كما لو كانت رحلته الطويلة إلى الوطن قد انتهت بخطوة أخيرة قادته إلى الظلمة في غور المخزن. وقد أصبح يدرك الآن أنه طالما استمرت عزلة «النكرة» في المخزن ظل ذهنه الفتي مشغولاً تماماً بالوجود الفعلي لذلك الجسد العملاق. وفي الوقت الذي شرع فيه بتوجيه ذهنه إلى أفكار عملية عن «النكرة» ذاته لم يعد لهذا الأخير وجود، وانشق فراغ في حجم رجل بدين في هذه الدنيا، واكتشف بكل بدنه الضئيل الهزيل أن هذا الفراغ لم يكن ملؤه إلا حرارة أغسطس وضياءه. وما أن شرع هذا الفراغ في البحث عن معنى حتى برهن على أنه من القوة بحيث يجتذب داخله خمسة

وثلاثين عاماً من الحياة نتأت عن أيامه السعيدة.

غير أنه بما أن أمه كانت تجهل معنى سلوك «النكرة» غير المألوف قبيل نهاية الحرب، أو على الأقل أصرت على أنها تجهل معناه ثم أخلدت إلى الصمت دائبة على هذا السلوك طوال وجوده في الوادي، لم يكن ثمة احتمال لكشف أي حقائق جديدة طوال وجوده في أغوار الغابة. من هنا لم يتح له إلا بعد انتقاله إلى مدينة كبرى أن يعرف بهجة العثور لأول مرة لا على نماذج من مدونات «النكرة» فحسب وإنما على نوعية جديدة تماماً من المعلومات وإن يكن في كتب موضع شك من نوعية «تاريخ منشوريا غير الرسمي».

في أواخر عام ١٩٤٢، استقل «النكرة» مثقلاً بآمال وتوقعات أولئك «الرعايا المخلصين للأمبراطور» الذين غزوا منشوريا طائرة وعاد إلى اليابان بصفته عضواً في جمعية سرية عقدت العزم على أن تدفع باتجاه عقد اجتماع بين رئيس الوزراء توجو والجنرال ايشيوارا الذي كان قد تقاعد من صفوف الجيش بالفعل وأقام في عزلة بالريف. كانت بؤرة الجماعة تتمثل في ضباط الكيمبي[1] السابقين الذين قاموا بالمذبحة التي راح ضحيتها ثوريو الطبقة العاملة في وقت وقوع زلزال ١٩٢٣. والحق أن اجتماعاً قد عقد بالفعل، لكنه بدأ وانتهى حواراً في فلسفة الزن لم يسفر عن أدنى تلميح إلى القيام بشيء عملي، وقد عاد ضباط الكيمبي السابقون بالطائرة إلى منشوريا مع مساعديهم على الفور، وتبنوا استراتيجية جديدة قوامها بث شائعات كاذبة تقول إن رئيس الوزراء توجو والجنرال إيشيوارا يعملان معاً.

من بين أعضاء الجماعة بأسرهم ودّع «النكرة» رفاقه، ومكث في اليابان، ولم يقدر له قط أن يعود إلى منشوريا، كيف انفصل عنهم؟ حينما انتهى الاجتماع انطلق «النكرة» ممثلاً «لجنة منشوريا لتمجيد باشو المعلم» إلى ايجا - اينو مسقط رأس باشو، هناك أعد مسودة بالحبر والفرشاة لمشروع النقش الذي سيحفر على النصب التذكاري الذي كانت اللجنة تعتزم إقامته. وكان النص الذي بقي في الصور الفوتوغرافية ولم يقدر له قط أن يحفر على أي نصب، كالتالي:

ترى أي ضفدع أو فرخ ضفدع
تعقّبه المعلم عبر درب ريفي ناء

(١) الكيمبي هي الشرطة السرية السابقة في يابان ما قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية (هـ. م.).

ومن خلل وادي عصى وسرخسيات مورقة
إلى تلك البريكة العتيقة القابعة في الانتظار؟
أم تراه لم يكن ضفدعاً قط وإنما كان مهاجراً
يغطس بذلك الاندفاع الخالد؟

عندما قرأ هذا المقطع الشعري تذكر اليوم الذي أقبل فيه ابن أحد المزارعين المؤجرين الذين يعملون لدى أسرته، وهو رجل كان ينجز عملاً طيباً بأداء عمل بالقطعة لحساب مصنع ذخائر في ورشته الصغيرة ـ أقبل طالباً منه نموذجاً مما خطه «النكرة» ليضعه في إطار من صنعه. خلال هذه الفترة القصيرة الفاصلة بعيد رجوع «النكرة» وعكوفه على ذاته وحيداً في المخزن حين كان لا يزال يحظى على الأقل ببقايا احترام الجميع لا بما وصفته أمه بأنه «الاهتمام بأضعف الرجال في الوادي» الوقت الذي سبق البدء المفاجىء لأيامه السعيدة، لم يكن الاتصال بين أمه وبين «النكرة» قد انفصمت عراه بعد. وعندما مضت أمه بالقروي حتى المدخل المرتفع للمخزن هتف هذا في توقير قائلاً:

ـ أيها السيد المبجل سيطوق جميل صنعك عنقي إذا ما خططت لي الحكمة القائلة: «ليمض بك اليسار عالياً، لكن لا تدع الغرور يداخلك!» غير أنه حينما انثنت أمه في التوّ ماضية بعيداً عن المخزن جاهدة ألا يند عنها الضحك حتى تمدد جلد وجهها البيضاوي المستطيل عبر عظمتي وجنتيها حد الشفافية، أمسكت بقطعة صينية من ورق الرسم كتب عليها بحروف كبيرة وبأسلوب هيكاجودو في النسخ: «ليأخذنك السبات عميقاً ولكن لا تدع للغرور سبيلاً إليك!»(١) ويقيناً كانت هذه الذكرى شأن ذكريات أخرى تركيباً لشيء ما شاهده بالفعل صبياً وأسطورة من أساطير الوادي استوعبها في وقت لاحق.

«تقول «القائمة بأعمال منفذ الوصية»: كان أعضاء أسرتك مولعين بالتورية أليس كذلك؟ يرد قائلاً: لا تظني أني لا أعرف إلام ترمي صواريخ التلمس هذه التي تطلقينها، يقولون إن بعض المعتوهين المصابين بالاكتئاب مفتونون بالتورية والجناس التصحيفي، وأنت تشيرين إلى أني من هذا النوع من المعتوهين، وأن كل ثرثرتي حتى الآن ليست إلا هذيان مجنون، وكل ما هو مسجل هنا عن ماضيّ مجافٍ بالتالي للحقيقة،

---

(١) من الجلي أن ما أثار ضحك الأم هو المفارقة الساخرة بين لفظ «تومين شايت» في اللغة اليابانية الذي يعني حرفياً السبات الشتوي للحيوانات ولفظ «تومايت» الذي يعني في اللغة اليابانية أيضاً اليسار أو الرفاه (هـ. م.).

وإن إصراري هنا في الوقت الراهن على أن كبدي معقل للسرطان هو مجرد توهم مجنون ـ ذلك هو المنطق المحكم الذي تودين تطبيقه، أليس كذلك! تقول «القائمة بأعمال منفذ الوصية»: لقد قصدت شيئاً أقل تعقيداً بكثير من هذا، لكنه ينبعث ضاحكاً، ها! ها! ها! ويظل على بعد منها: إن السبب في أن هناك الكثير من التوريات في الصورة التي أرسمها هو أن ذكريات طفولتي جميعها على وجه التقريب متأثرة بالتراث الشفوي المنقول عن الوادي الذي كنت أقطنه. في واد تحيطه غابة تتحول كل معلومة هزيلة من داخله إلى أسطورة جديدة مع تداول الناس لها فيما بينهم وتلاعبهم بها، والتلاعبات اللفظية المثيرة للضحك هي الحلى اللفظية الوحيدة التي يملكونها لينحتوا منها أسطورة فيما هم يتداولونها. وإذا ما كان أحد سكان الوادي بارعاً مثل أمي في التوريات فإن ذلك في ذاته كاف لجعل أي شيء يمكن أن تكَون قد قالته أحدث أسطورة في الوادي لبعض الوقت. وقد دفعت بي الأهمية التي لا يزال الوادي يعلقها على التوريات إلى غمار شتى ألوان المتاعب حينما كنت أدرس اللغات الأجنبية في الكلية؛ حيث ظللت على اندراجي في التداعيات المرحة التي ما كان الطلاب الذين قدموا من المدن يكترثون بها، فيشغل ذهني وتمضي بي إلى عباب أحلام اليقظة. على سبيل المثال كان كل ما علي أن أرى كلمة «موري» في اللغة اللاتينية لأعود محلقاً إلى «الغابة»[1] وبقدر ما أعلم فإن ما أحظى به من براعة لفظية حتى الآن يضرب جذوره في التوريات الساذجة، مع ذلك سأكون ممتناً إذا سجلت ما أمليه عليك في الأوراق تماماً كما أقوله ودون تغيير ألفاظي إلى شيء أكثر ابداعاً مما هو عليه. ربما كنت مصاباً بسرطان الكبد، ربما كنت مجنوناً يهيمن الجناس التصحيفي على ذهنه، وفي الحالتين كلتيهما فإن وضعي بائس حتى ليثير الإشفاق، ألا تعتقدين هذا؟ ها! ها! ها! ليس هذا أيضاً ما كنت أحاول قوله، فحتى في قمة احتدام الحرب من المحقق أنه كانت هناك لحظة تناغم في عائلتك، وقد خطر ببالي أن هذه اللحظة ربما كان مدارها موهبة أبويك الخاصة في التلاعب بالألفاظ، وقد تصورت في البداية أن أباك ربما كان هو الذي يؤثر التوريات وأن أمك في غمار تكيفها مع ما يميل إليه اكتسبت مهارة في ذلك الضرب من الرياضة الذهنية. وعلى هذا النحو عزلت غابة اثنين من القلائل بالوادي الذين أوتوا قدراً كبيراً من العلم وإذ ضاقا ذرعاً بكل ما حولهما وأفعمتهما المرارة حاولا أن يعيشا في إطار أسلوب فريد في الحياة وسط عزلتهما ـ هذا هو ما أردت قوله، فلا يبدو لي أن من المحتمل أنهما

---

(١) كلمة «موري» في اللغة اليابانية تعني الغابة. (هـ. م.).

استشعرا دوماً الكراهية الحادة أحدهما نحو الآخر التي تلقي بظلالها على قصتك بأسرها كما لو كانا عدوين لدودين منذ البداية. أتراك تهمل الجوانب الايجابية حينما تتحدث عنهما لأنك لا ترغب في الاعتراف بأي رابطة تصلك بهما؟ يتحدر في وهاد نوبة من المرح المرير، فيتصلب تحت يديه المرتميتين على قمة كبده المتحجر، ويدفع بكاحليه في الفراش. حتى إن كان ما تقولين صواباً فلن يؤثر في أيامي السعيدة! وكأنما ليظهر صدق ما يقول يغني في رقة مقطعاً من أغنيته الأثيرة: لنغن أغنية مرحة مرة أخرى، فالأيام السعيدة أقبلت من جديد!».

لم يقصد إنكار أنه أتى حين من الدهر ربطت العلاقة العادية تماماً التي تربط الرجل بزوجته ما بين أمه و«النكرة». ولكن باستثناء ذكرى اقترابه من حواف الجنون حينما أوشك على بلوغ الثالثة من عمره فلم تكن لديه ذكريات على وجه التقريب عن الحياة بالدار في ذلك الوقت، كما لم يكن ذلك راجعاً إلى حداثة سنه. فقد بدا الأمر كما لو أن الطفل الذي كأنه لم يوجد قط حقاً في العتمة الضاربة الأطناب حتى في رائعة النهار التي تسود تلك الحجرات الواقعة وراء المدخل الطيني التي ولد بها وتشكل ما يعرف باسم دار المزرعة، لم تبد الذكريات التي يشعر بأنها حقيقية ومباشرة ومتجسدة إلا في لحظة «ميلاد» بعينها أضاءت فجأة عتمة العدم تلك وحولتها إلى كيان صلب يتألف من ذكريات متشابكة في نور وهاج. ومن ثم فإن الذكريات التي سبقت هذا «الميلاد» كانت جميعاً أساطير في الوادي أعاد خلقها بحسبانها ذكريات روحه وبدنه. ذات مرة حاول تقليب أغوار الذكرى الضاربة الأطناب في لحمه الحي ذاته آملاً بعث برهان مباشر على وجود قبل أيام الأعياد تلك التي تحقق خلالها الميلاد. كانت تلك تجربة طويلة شاقة، استخدم فيها فن تقوية الذاكرة وغيره من الأساليب الفنية الأخرى. وفي نهاية كدحه كانت الذكرى الشاحبة التي لاحت أخيراً في الظلام كما لو كانت في شعاع من نور ناء هي ذكرى عن نفسه كجزء من الوادي بأسره، بما في ذلك الموضوعات العضوية وغير العضوية التي لا وعي لها جزءاً مما تطلق عليه الفلسفة الفرنسية «الوجود في ذاته». كان يحدق طفلاً صغيراً يغوص في بركة بالنهر الذي يتدفق على امتداد أدنى الوادي بعينين غرقتا في الظلال حتى أمتزجتا بالماء العكر في سمكة تحيا في الماء العذب تعرف في المنطقة باسم «ايدا» وتستقر في شقوق الصخور وقاع النهر الرملي ضمت مجموعة الأسماك أجسامها معاً، وأفواهها المزمومة وخياشيمها المفتوحة جميعاً تشير إلى التيار المتهافت المنساب وراء الصخور، وبدت عيونها المتوهجة بنور أصفر شاحب في لون الزعفران قلقة إزاء الصبي الذي يرقبها واقفاً هنالك طالما ظل

ممسكاً بأنفاسه وعيناه اللتان لا يحجبهما غطاء مفتوحتان على اتساعهما وقد بدا من جديد لا مبالياً تماماً. كان الصبي الهزيل يمسك في يده التي حال لونها وتورمت بتأثير الماء منذ وقت طويل بندقية في شكل حربة، لكن الطرف الحاد لم يكن متصلاً كما أن الروابط المطاطية بجهاز الاطلاق كانت تآكلت، من ثم اكتفى بالتحديق في الأسماك دون أن تطرف عيناه، وثمة نور أصفر شاحب يتجلى تدريجياً في عينيه الغارقتين في الظلال. وكما لو لم تكن به حاجة إلى التنفس دأب على تعديل ميل جسده ليظل مواجهاً التيار المنساب إلى طاقتي أنفه ناقلاً إليه روائح كائنات الوادي التي لا حصر لها. وأدرك أن الطفل في أولى ذكرياته تلك لم يكن طفلاً بقدر ما كان جنيناً قبل «الميلاد». وفي غمار هذا الإدراك فقد الاهتمام بكشف النقاب عن الذكريات التي سبقت «الميلاد».

من المحقق أن ذكراه عن «الميلاد» ذاته أو على الأقل عن بدايته المحددة البداية على نحو قاطع هي بعث مأساوي نقشه غائراً في ذاكرته في وقت لاحق. الحق أنه كان أصغر كثيراً من أن يدرك في التو أهمية وصول ناقل البرقيات. ومع ذلك فحينما دفع بدم جديد في عروق ذكراه عن الميلاد بدا المشهد الافتتاحي الذي انبعث في ذهنه في التو كلمحة النسر المحلق كأنما رآه من خلال عدسة بث الصور لناقل البرقيات يلهث في مسيرته الدائبة الوئيدة من قرار الوادي إلى دار المزرعة. وبفرض أن زاوية النظر التي حدق منها هي أمر ممكن في الواقع فمن المحقق أنه كان يطل على الرجل القادم من مكتب القرية، حيث كان «النكرة» في السابق يحتفظ بمقره كأصغر عمدة في المقاطعة من فوق المكان الوحيد الآخر المرتفع في الوادي أو يمعن النظر في البعيد من أعلى التل الذي كانت أمه ترقاه بانتظام لرعاية مزار القرد. ومع ذلك فبما أن جوف المخزن الذي جلس فيه «النكرة» بالناحية الأخرى في مقعد الحلاق الدوار كان مرئياً بوضوح رغم العتمة بدا جلياً أن لمحة النسر المحلق في ذاكرته كانت خيالية، ولأن ناقل البرقية كان قد قرأها، فقد مضى مترنحاً يرقى التل دون أن يمنح ساقيه القصيرتين لحظة راحة واحدة، رغم أن أنفاسه تقطعت، وإن بدا واضحاً أنه يود لو انتهز الفرصة للانطلاق عدواً عائداً عبر الطريق الحجري المنحدر إلى الحقول النامية المزروعات الساجية وأن يهرب من هناك، بالسرعة الهائلة التي كان يتمتع بها كانجارو زار الوادي يوماً بصحبة سيرك متجول، إلى أعماق الغابة، كما لو كان على يقين من أن سكان دار المزرعة سينصبون له كميناً يلقى مصرعه فيه. كان قد تجاوز مرحلة الطفولة وانتقل إلى رحاب الصبا، وإذ يوشك على خوض غمار «الميلاد» الحق أطل من أعلى التل كما لو كان يتابع الرجل بمكبر صوت راصد للاتجاه. وقد تناهى إلى مسمعه

النحيب الذي لا يصدر عن أبناء الوادي إلا في أشد الحالات الطارئة فظاعة. أيها السيد المبجل! لقد مضينا وعدنا به الآن! هكذا تقول البرقية ها هنا إن الأبن الأكبر في دار المزرعة قد ترك صفوف الجيش في الصين. أيها السيد المبجل! لقد مضينا وعدنا به الآن!

«هذه هي! هذه هي العبارة الثانية التي كنت تصرخ بها في نحيبك خلال النوم! تقول «القائمة بأعمال منفذ الوصية»، وتضيف: سماعها يخلع القلب تحت جنح الليل، تجعلني أود لو اندفعت هاربة إلى ضوء القمر في فناء المستشفى صارخة بأعلى صوتي. لكن كما تعلمين لم تكن لوعة ناقل البرقية لتنقل عدواها إلي لأنني على عكس الآخرين جميعاً في دار المزرعة كنت بعد وصول البرقية متوهجاً بالحياة مشتعل الروح، مثلما سمكة قريدس نهرية وقعت في الشباك لتوها. كان أول ما وقع هو إرسال «النكرة» وأمي إلى كل منهما على حدة عدواً لإرسال برقية إلى منشوريا. كانت تلك هي المرة الأولى التي يتم الاعتراف فيها بي في داري باعتباري شخصاً يمكن أن يكون له بعض التأثير الفعلي، كان ذلك ميلادي بهذا المعنى أيضاً. وكان ما لفت نظري بطريقتي الطفولية هو أن أمي و «النكرة» يحاول كل منهما مساعدة أخي الهارب من صفوف الجيش بطريقته الخاصة مروراً بطرق منفصلة. كان من الطبيعي أن تكون لـ «النكرة» اتصالات في منشوريا، أما ما أدهشني فهو أن لأمي فيما يبدو معارف هناك وداخل صفوف كانتو أيضاً. إنني أعلم الآن بالطبع أنها كانت قد نشأت في بكين في دار رجل تبناها على الرغم من صلتها بعمل من أعمال التمرد ضد الأمبراطور، وأن «النكرة» الذي صرعته مقلتاها في أول رحلة له عبر البحر عاد بها إلى الوادي، وتزوجها رسمياً فور طلاقه من زوجته التي أقترن بها شاباً أيام كان عمدة القرية. وحينما أطمأن إلى أن المقام قد استقر بها في أغوار الغابة وشد وثاقها هناك طوال ما بقي من عمرها، انطلق عائداً للصين من جديد، وظل هناك مواصلاً نشاطه في مجال ما في منشوريا طوال سنوات. ومن المحقق أن برقية أمي قد وجهت إلى معارف أبيها بالتبني. لم يمض الوقت بها وبـ «النكرة» حتى شرعا في التنابذ والتلاحي في المخزن للمرة الأولى. ليست ذكراي عن هذه المشاجرة إلا ابتعاثاً لوقائعها استحدثته في وقت لاحق حينما أفلحت في النهاية في تكوين انطباع واضح عما كانا يتحدثان عنه بالاعتماد على الاشاعات التي تناثرت في الوادي، لكن أمي قالت على نحو ما أتذكر الواقعة الآن:

- إذا لم يبلغ الجانب الآخر سريعاً فسيلقى حتفه.

انفجرت باكية، فاعترى «النكرة» غضب هائل، رد عليها صارخاً:

ـ ماذا تقولين! لم يقع هذا إلا لأني سمحت لأمثالك بتربيته، أنت يا من يسري دم خائن في عروقك! إني اجترح كل ما بوسعي لكي تطلق عليه النار سريعاً ويعامل كما لو كان قد قتل في اشتباك مع العدو ليعود رماده إلينا في الوطن على الأقل.

ـ أتحاول جعلهم يقتلون ذلك الطفل قبل أن يصل إلى الجانب الآخر؟ أتريد أن يطلق الرصاص على ظهر ولدك بأوامر من سفاحين أمثال. . . . . و. . . . . وهذا هو ما طلبته في برقيتك؟ هذا الطفل ينطلق عدواً بأقصى ما يستطيع وحيداً محاولاً الوصول إلى الجانب الآخر وأنت تريد أن تطلق النار على ظهره!

بعد ذلك بوقت طويل، وحينما شرعت في قراءة المذكرات العسكرية اكتشفت أن الاسمين اللذين أتت أمي على ذكرهما كانا لآخر قائدين كبيرين في جيش كانتو. الحق أني كنت أصغر سناً من أن أدرك ما يراد بـ «الجانب الآخر». كان من شأن طفل نشأ في سني الحرب أن يعرف ما يراد بـ «العدو» لكنه لا يملك ناصية الخيال الذي يتيح له رسم صورة لأناس حقيقيين ومجتمع حقيقي على «الجانب الآخر» من الجبهة. كان كل ما استطعت تصويره لنفسي هو صخرة تشمخ عالياً في الأفق الممتد معانقة هضبة فسيحة الأرجاء. يقبل جندي شاب وحيداً وبأقصى سرعته نحو هذه الصخرة، فإذا ما استطاع بلوغها فلن يتم قلب آية كل القيم فحسب ويسمح بكل شيء في التو، وإنما سيشاد أيضاً بالجندي، يكال له المديح، يعرف سبيله إلى الخلاص ـ ذلك كان تتابع المشاهد الذي دونته في ذهني. على أي حال لم يكن «للنكرة» إلا ابنان فقط هما شخصي وأخي الأكبر. كان أخي الأكبر ابنه من زوجته الأولى التي طلقها، وبتعبير آخر بدت أمي وقد غضبت حد الشطط من أجل ربيبها! لكن هذه المعركة العائلية الحامية الوطيس لم تدم إلا أسبوعاً واحداً، حيث وصل إخطار، فلف الصمت دار المزرعة، وضرب أطنابه هنالك. ثم انطلقت أمي في ساعة مبكرة من صباح أحد الأيام، وقبل الغروب عادت حاملة رماد أول ضحايا الحرب من أبناء الوادي في صندوق خشبي أبيض تدلى من عنقها بقطعة من القماش القطني الأبيض».

مضى الصبي الذي لم يعد طفلاً عقب تجربة هذا الأسبوع مع أبناء القرية الآخرين جميعاً على وجه التقريب للقاء أمه عند القنطرة المفضية إلى خارج الوادي على الطريق الرئيسي، لكن أمه تجاهلته، كما تجاهلت الآخرين الذين انتظروا هناك في صف هزيل. وقفت هنيهة صامتة على القنطرة، حيث أوشك الموت أن يتخطفه. كان رأسها متشامخاً، راحت تحدج الوادي بنظرة صقر يرمق خصومه بأشد نظراته إفصاحاً عن الازدراء. لربما توقفت هناك لتستعيد شعورها بالأرض الراسخة، عقب رحلة شاقة طويلة بالعربة قطعتها

قادمة من عاصمة المقاطعة في عربة يقودها حراس الغابة الكوريون. حدّت عينيها في التو، فكست التجاعيد وجهها البيضاوي الناحل المسطح الذي شحب وجف على نحو مخيف حتى بدا قطعة من الورق، وحدقت عبر وجوه الناس الذين دنت منهم، عبرتهم وكل خطوة من خطاها لطمة خفيفة للأرض، حتى أن نعليها اللذين كانا يصدران صوتاً كالفحيح كانا بالكاد يمسان سطح الأرض. يممت شطر دار المزرعة. وعندما مرت تحت البوابة العظيمة المسقوفة لدى المدخل مع الصبي الذي غدا الوحيد الذي يسير وراءها، توقفت عند أدنى شجرة الصنوبر العملاقة السوداء حيث مفترق الطريقين المؤديين إلى المبنى الرئيسي وإلى المخزن، ثم التفتت إلى الوراء، كما لو كانت قد أصبحت الآن فقط مدركة لوجوده رغم أنه لم يبذل جهداً ليكتم وقع قدميه فيما هو يتبعها على امتداد الطريق. حدجته بعينيها المتوقدتين في المغيب كأنما أفزعها وجوده. وصاحت به بلهجة غير مألوفة تفارق تماماً اللهجة الشائعة في الوادي:

- لا تحسب أن لـ «النكرة» (كانت تلك هي المرة الأولى التي استخدمت فيها أمه هذا اللفظ) المختبىء في المخزن أي حق في هذا الرماد، فهو لم يعد له!

أسرعت دون أن تضيف كلمة واحدة نحو المبنى الرئيسي من جديد، فيما غرس عقبيه في الأرض مقاوماً ظهرها الهزيل الذي يدعوه للمضي وراءها، والذي راح يتضاءل سريعاً، مستجمعاً من أعماقه قوة كان حرياً بها أن تنثر الآلاف من أوراق الصنوبرة السوداء، وهتف بشيء لم يكن متوقعاً بالمرة وعلى نحو تفجر معه غضبه إزاء تجاهل أمه له طوال هذا الوقت:

- ليس في عروقي دماء خائن! تستطيعين أخذ رماد ذلك الخائن وإلقاءه في المرعى نعم، سيدتي! الآن سأمضي بدوري إلى المخزن وأتناسى هذا الرماد كلية! فليس في عروقي دماء خائن!

رغم أن أمه استنكفت عن الرد على الكلمات التي صرخ بها، إلا أنها التفتت للحظة، وهطعت برأسها نحوه، لكنها أشاحت بوجهها الذي يحاكي ورقة بيضاء جافة، والذي بدا مرتعداً متراقصاً من خلل المرشح الشفاف الذي شكله دمعه والغسق، وجذب خوذته المصطنعة فوق عينيه على النحو الذي وصفته أمه حينما سخرت منه. بدا صبياً مشاكساً من صبية الوادي في قميصه المنسوج من القنب وسراويله العتيقة التي أحكم ربطها حول ساقيه، كأنها سراويل نسائية، فيما مضى وحيداً نحو المخزن. منحه

السونكي الذي ربطه إلى إليته بحبل من القنب، الذي خاض به جده غمار الحرب الروسية اليابانية، وكان قد التقطه صباح اليوم بعيد انطلاق أمه إلى خارج الدار في الكيمونو الأسود من الحظيرة وأزال الصدأ الذي تراكم فوقه ـ منحه الثقة فيما هو يغذ السير.

«يقول: أحسست بطريقتي الطفولية أن بعض الناس من خارج الدار قد يحاولون إلحاق الدمار بالأيام السعيدة في المخزن التي كانت على وشك البدء بالنسبة لي ولـ «النكرة» وحدنا، وقد عزمت إن ظهروا على القتال دونما هوادة بذلك السونكي العتيق الذي استخدم في تقطيع العلف، والذي بدا كقضيب حديدي قاتم السواد. يبدو أنك قضيت وقتاً بديعاً في ذلك المخزن، أكان أبوك سعيداً لانضمامك له منذ البدء؟ يقيناً لم يكن كذلك، بل إني لم أحاول محادثته. كان هناك مصباح عار يتدلى من أعلى المدخل يلفه السواد كإجراء وقائي من الغارات الجوية. حينما أضأته ودلفت داخل المخزن حيث ضربت الظلمة أطنابها كان «النكرة» يضع على عينيه النظارة الواقية من الماء ذات الشريط اللدائني الذي يغطي النظارة التي أضعها على عيني الآن (كان قد أعدها أصلاً لمشاهدة كسوف الشمس في منشوريا) ليحدق في مؤخرة المخزن، أعتقد أنه كان قد عقد العزم بالفعل على منع أي كان من قراءة التعبير المرتسم على وجهه. حول مقعد الحلاق المتحرك الذي جلس عليه تناثرت أكوام من المجلدات بلغة أجنبية، ربما كانت تدور حول موضوع الزراعة، فقد قالت المذكرات العسكرية التي قرأتها فيما بعد إنه كان يعتزم إعادة «رفاقه» إلى الوطن، ومنحهم أرضاً بالوادي، وقطع أشجار أطراف الغابة لزراعة الأرض التي تحتلها، لكن من المحقق أنه في الوقت الذي شاركته فيه المخزن كان قد فقد إرادة قراءة هذه المجلدات، وإلا لما احتفظ بالنظارة على عينيه ليلاً ونهاراً، فلست أتصور أن بوسعه أن يميز شيئاً واحداً في ذلك المخزن والنظارة فوق عينيه. استشعر ضوءاً يبعث الضيق حينما أضأت المصباح عند المدخل، وعلى الفور وبّخني بلفظة «هش»! نطقها غاضباً كما لو كان ينحي دجاجة بعيداً. في غمار تعجلي إطفاء النور وفي حلكه الظلام ولأني كنت لا أزال منهكاً من جدالي مع أمي اشتبك نعلي المهترىء المصنوع من القش بعتبة المدخل وتعثرت فسقطت على الأرض الترابية الممتدة على مستوى درجتين إلى أسفل، وتدحرجت رأساً على عقب، فاصطدمت في النهاية مؤخرتي بـالمنصة الخشبية حيث وضع «النكرة» مقعده. لكن في هذه المرة لم يند صوت إطلاقاً عن «النكرة» كما لو كانت سنة من النوم قد أخذته في اللحظة التي أطفأت فيها المصباح، وظل رأسه الضخم المهيمن متشامخاً في الظلمة، لم يحرك عضلة واحدة. فغرت فمي، رحت استاف الهواء لأمنع نفسي من

البكاء؛ فقد انغرس السونكي المعلق على إليتي في بطني، وآلمني حتى ما عاد بوسعي الاحتمال. سفحت دمعاً بائساً حقاً، فبللت خدي الهضمين والتراب الذي يغطي الأرض. مكثت لبعض الوقت حيث كنت عاجزاً عن النهوض، لكني من ليلها، أصبح لي مرقد في المخزن ولجعل «النكرة» يظن أني اخترت السقوط من تلقاء نفسي ولم أتعثر وذلك لاختيار أفضل موضع للرقاد أتخذت فراشاً من القش وألواح الخشب والأغطية العتيقة في موضع سقطتي الذي رقدت فيه. عقب ذلك لم أمض إلى المبنى الرئيسي إلا لأجلب الوجبات التي أحملها إلى «النكرة». أصبحت أمي في عزلة وإن لم تقتصر عزلتها على الدار وحدها، فمنذ اليوم الذي عاد فيه الرماد، وكأنما الصلة الوحيدة المؤقتة التي ربطت اللامنتمية المتمثلة في شخصها بالوادي قد استمرت عبر ربيبها الذي مضى إلى الحرب في الصين. شرعت في تجاهل كل رجل وامرأة وطفل في الوادي حتى حين يكون أحدهم في مواجهتها تماماً وهجرت المجتمع كلية، الأمر الذي تركني وحدي مثقلاً في صباي بالانطلاق عدواً في أنحاء الوادي وسونكي جدي في موضعه فوق إليتي لأحصل على نصيبنا من مواد التموين ومدققاً في الزيادات التي تحق لنا، حريصاً على أن تحصل أسرتي وبصفة خاصة «النكرة» الذي تملكه تدريجياً هاجس الطعام، على ما يكفيها لتقتات به. الآن فيما أفكر في هذا الأمر يبدو لي أنه لم يأت عليّ حين من الدهر منذ ذلك الوقت تحملت فيه مثل هذه المسؤوليات الجسام عن أسرتي. قمت بمبادرة مني بالذهاب إلى مكتب القرية واستلام اللوحة المعدنية المنقوش عليها «ابن فقد في المعركة» وثبّتها عالياً لا على جدران المبنى الرئيسي وإنما على الباب المتوهج للمخزن بمسامير عتيقة، وقفت بالسونكي يتأرجح على جانبي، وقد شببت على أطراف أصابعي مطوحاً بمطرقة ثقيلة ضخمة. حينما تجمع الصبية الذين تبعوني قادمين من القرية في فضول نحيتهم بعيداً بمطرقتي كما لو كانت صولجاناً».

- ٥ -

«بزعم الإصابة بإعياء جسديّ مفاجىء يقضي النهار بأسره نائماً أو متصفحاً كتباً مصورة عن الحيوانات، في الوقت نفسه يحاول أن يظهر «للقائمة بأعمال منفذ الوصية» أنه لم يفقد اهتمامه بسرد «تاريخ العصر» الذي كان عاكفاً عليه. يقول: انظري إلى هذه الدبة المتوحشة من سيلان تهبط وادياً تغطيه الأغصان الجافة بصحبة ستة من الدببة الصغيرة. وعلى الرغم من أن رأس العائلة في هذه الحالة أنثى فإن هؤلاء الصغار الذين أحنوا رؤوسهم كأنهم غارقون في التفكير مسرعين في اهتياج خلال محاولتهم اللحاق بها

يذكرونني تماماً بنفسي في الأيام التي كنت فيها إلى جوار «النكرة». أتعتقدين أن للدب السيلاني شعراً طويلاً ينمو حول عينيه؟ إن هذه المجموعة تعدو بسرعة هائلة حتى ليفلت المشهد من بؤرة الكاميرا، على أي حال ربما كان في ذلك ما يجعل ما يحيط بعينها يبدو شعراً، ورغم وحشيتها إلا أن عيونها تبدو غارقة في الظلال والشجن على نحو لا يتناسب معها حقاً. انظري ما أشد ما تحدق في الأرض تحت حوافرها التي توشك أن تحلق عالياً! ألا يخلع هذا عليها مظهراً جاداً حافلاً بالاضطراب؟ إن الإنسان لا يبدو عليه هذا الذكاء وهو منهمك في العدو، لا يخالجني الشعور بأني أمضيت أيامي السعيدة كإنسان يعدو، وإنما كنت أقرب إلى واحد من هذه الدببة الصغيرة برأس ضخم وسيقان مستطيلة نحيلة وفم واسع مطبق في قسوة وسط وجه منقبض بل إني أتصور أنه من المحتم أنه كانت هناك خطوط حمراء فاتحة على ظهري في تلك الأيام. وددت لو وضعت زناراً حول وسط هذا الدب الصغير وعلقت فيه سونكيا يرجع إلى الحرب الروسية ـ اليابانية، أراهن أنه سيفلح في التمنطق بالسلاح الثقيل المقرقع بشكل ما ويواصل العدو حتى وإن أضطر إلى التضييق من نطاق خطوته قليلاً. ها! ها! ها! يتحدث على نحو ملتو تحت غطاء صور الحيوانات عن أيامه السعيدة. يبدو موشكاً على استئناف تصوير اللوحة التي يرسم ملامحها، لكنه يستمر في التكتم فيما يتعلق بالحياة الفعلية في المخزن. ثمة شعور دائب بالانتفاخ يراوده مع تضخم كبده. على الرغم من أنه لم يبق إلا القليل من اللحم أو الدهن حول معدته فهو يشكو من أن الأمر يبدو كما لو كانت هناك قنبلة يتزايد حجمها تدريجياً تأكل الطبقة الرقيقة تحت جلده، الأمر الذي يجعل التركيز الذهني مستحيلاً. يقول: سيكون مدعاة لتجديد النشاط إذا هوت هذه القنبلة التي كانت قبلاً كبدي من موضعها الحالي بطريق الخطأ! أما على النحو الذي تسير به الأمور، الشعور بانتفاخ هذه الصخرة يتنامى بداخلي بل ويتحكم في وعيي الباطن خلال رقادي، لم يعد حتى رقادي ينتمي إليّ غدت «القائمة بأعمال منفذ الوصية» أكثر اهتماماً بالتاريخ. تقول متكهنة بالحقيقة ومستحثة إياه في الوقت نفسه: أتساءل عما إذا كان هناك شيء خفي في حياتك بالمخزن لا ترغب في الحديث عنه حتى وإن تحدثت عن أيام سعيدة. أيمكن أن تكون هذه الذكريات الحزينة هي التي تخلق الشعور بالتضخم الذي يصيب حتى وعيك الباطن بعدم الارتياح؟ يقول: ها! ها! ها! إني لا أعتبر تلك الفترة من حياتي الأيام السعيدة الأولى في خمسة وثلاثين عاماً إلى جانب هذه الأيام السعيدة الأخيرة التي أمضيها ها هنا محتضراً دونما تعجل وإن يكن سريعاً جراء السرطان. أتتكرمين بأن تسألي الطبيب حقني لأركز قوة الحياة الباقية فيّ وأجعلها تحترق

سريعاً؟ ألا توافقين على أن المريض ينبغي أن يحظى بحرية اختيار حياة مخففة على امتداد فترة طويلة أو حياة مركزة لفترة قصيرة؟ على أي حال قد أشعر بالارتياح غداً وقد أصاب بحمى في الفجر، دعينا نبدأ من جديد إذن. يقولها ويشرع في الانديا ح إلى رحاب النوم».

ساعد «النكرة» في تركيب جهاز استقبال بالراديو في حجم الجواد، كان «النكرة» قد شحن في شنغهاي في الثلاثينات إلى الوطن جهازي استقبال من أفضل الأنواع الأوروبية التي كانت موجودة هناك في ذلك الوقت. الآن أقام منصة مستطيلة الشكل أمام كرسي الحلاق المتحرك، كانت تستخدم أصلاً في تربية دود القز ولا تزال تفوح برائحة السائل المتدفق من الدود، وفوق هذه المنصة قام بتفكيك الجهازين وإعادة تركيبهما في شكل جهاز واحد للاستقبال. حينما فرغ من ذلك وضع سماعتين حول رأسه الضخم وجلس مصغياً للجهاز طوال النهار. استغرق تجميع جهاز الاستقبال ثلاثة شهور للفراغ منه. عندما تم ذلك لم يكد «النكرة» يحرك النظارة التي استخدمها لرصد كسوف الشمس والسماعتين اللتين جعلتا رأسه الضخم أكثر ضخامة. كان الابن وقد وقع في شرك يقين جنون الاضطهاد الذي أوحى له بأن أحداً إذا تلصص إلى داخل المخزن لبدا «النكرة» وكأنه جاسوس يبث رسائل سرية، يقوم بجولات دائرية حذرة حول المبنى وسونكيه في خاصرته.

«تتساءل «القائمة بأعمال منفذ الوصية» بعد الانتظار صامتة لفترة يعتد بها فيما كتفاه يتحركان صعوداً وهبوطاً مع تنفسه وهو يكدح ليستعيد الطاقة التي كبده اياها ذلك المقطع الصغير من حديثه: هكذا لم يكن بمقدورك الاستماع للراديو بنفسك؟ يقول لم تكن لدي رغبة في الاستماع إليه، وإنما كانت مهماتي في تلك الأيام السعيدة وفيما يجلس «النكرة» هنالك مصغياً للراديو ومفكراً أن أحدق في مؤخرة رأسه الضخم وأن أحرسه ممن يتنطعون بمهام الارشاد في الوادي والذين يودون اكتشاف جاسوس أو اثنين لما يجلبه لهم ذلك من مجد وفخار. فضلاً عن ذلك فلم أكن مهتماً بجهاز الراديو. إذن فكيف ساعدت في تجميع جهاز الاستقبال؟ كان كل ما فعلته هو التقاط البراغي التي تنزلق عن منضدة العمل إلى الأرض حتى لا يظل «النكرة» ينهض طوال الوقت من كرسي الحلاق المتحرك الذي يقتعده، ولم يكن ذلك راجعاً إلى أنه من اليسير العثور على البراغي الصغيرة في عتمة ذلك المخزن، فما كانت تلك مهمة يمكن لكلب أن يقوم بها».

كافح طويلاً لجلب الطعام لـ «النكرة» ولأمه ولنفسه. كان يقف على الجانب الأيسر

من الدراجة الكبيرة رقم ثمانية، التي لم يكن بوسعه تماماً الوصول إلى دواستها حتى حين تم تخفيض المقعد، يدفع بساقه اليمنى تحت السناد الذي يحمل المقعد إلى أن تصل قدمه اليمنى إلى الدواسة اليمنى فيدفعها مائلاً بالدراجة مبعداً إياها عن نفسه ليعوض ثقله ويمضي بها على هذا النحو ساعات طويلة مضنية إلى أن يبلغ المدينة المجاورة محاذياً النهر في مسيرته، حيث يشتري بالجملة من حانوت الجزار الوحيد في المنطقة بناء على تعليمات «النكرة» ذيول الثيران والخنازير التي لا يأكلها أحد في المقاطعة اللهم إلا الكوريون الذين يعملون في اجتثاث أشجار الغابة. كانت ذيول الثيران تباع على الفور، وغالباً ما يستحيل الحصول عليها، وكانت أقدام الخنازير التي لم ينزع شعرها تشكل لفافة ضخمة مترجرجة يحكم ربطها إلى مؤخرة الدراجة، وينقلها إلى الدار. كان ابتياع اللحم ذاك هو بالفعل أول مهمة يعهد «النكرة» بها إليه. طوال أيام أعقبت إعداده لفراشه على أرض المخزن ظل موضعاً للتجاهل. ثم استيقظ ذات صباح على شعور واه بالقلق ليجد «النكرة» مطلاً عليه من الأرضية الخشبية الممتدة أمام مقعد الحلاق المتحرك. رد نظرته، ابتسم، استاء على الفور لجرأته لأن ابتسامته كانت موضع تجاهل، غمره الخجل، بينما هو راقد هناك فيما أصبح الآن صمتاً غامضاً خاطبه النكرة للمرة الأولى: أتستطيع ركوب دراجة؟

يمضي بالدراجة عبر الطريق الأشهب الذي غمرته شمس منتصف الصيف، أبيض كالثلج تحت ذرور المنحدر المسحوق، الطريق الطويل ذاته الذي تراءى في أحلامه قبل ذلك وفي أعقابه، إلى حانوت القصاب في المدينة المجاورة. لم يكن ذلك كل ما هنالك، وإنما كان يتوقف في الطريق إلى الدار عند كوخ حراس الغابة، الذين جلبوا عنوة من كوريا، وأرغموا على البقاء في عزلة، وحيل بينهم وبين العيش في أي جماعة أخرى أياً كان مدى بؤسهم. كان عليه أن يحصل من الكوريين على بضع جدائل قليلة من الثوم، ولأن شعوراً راوده بأن ذيول الثيران وأقدام الخنازير كان يمكن أن تكون طعاماً للكوريين لو لم يسبقهم «النكرة» إليها فقد خاف من أنهم قد يلحظون اللفافات المحملة على الدراجة أمام كوخهم مباشرة. وحين أفلح أخيراً في عبور القنطرة إلى الوادي حرص على ألا يكتشف الصبية الآخرون جدائل الثوم البيضاء المربوطة بحبل إلى معدته العارية تحت قميصه. عندما ذاع بين صبية الوادي أولئك أن بركة السماد المؤلف من البقايا البشرية تفوح فيها رائحة غريبة وأقبلوا لاستطلاع الأمر، احتل مكاناً أمام غطاء المجرى خارج الدار المتصل بالمخزن والمخصص لاستعمال «النكرة» وحده، راح يلوح بالسونكي العائد للحرب

الروسية ـ اليابانية كما لو كان سكيناً لقطع اللحم، وأبقى العدو الذؤوب بعيداً، بل وجعله في النهاية ينطلق عدواً بعيداً تماماً عن المنطقة التي يدعوها أهل الوادي بتل دار المزرعة.

في اليوم الذي وصل فيه بأول ممولة على الدراجة رقم ثمانية من ذيول الثيران إلى الدار، خرج «النكرة» من المخزن في واحدة من المرات القليلة التي تجاوز فيها عتبته، وذلك للقيام بنفسه بعملية الطهي. كانت سقيفة الطهي تنتصب إلى جوار بئر مكشوفة وخلفها شجرة الصنوبر المعتمة العملاقة بين المخزن والمبنى الرئيسي، وهو ما كان أمراً طيباً لكل من أمه التي ما كانت ترغب في رؤية شيء يجلب مرآة سوء الطالع كذيل ثور وبالنسبة لـ «النكرة» ذاته الذي ما كان له وقد أصبح طاهياً مؤقتاً إلا أن يفقد شيئاً من مكانته. وبوجه تعلوه لحية لم تحلق منذ أيام، ومعتمراً غطاء رأس أحد مستكشفي الأدغال في أفريقيا، ومرتدياً سترة المواطنين الكاكية، وقد أحكم تزريرها حتى العنق، وضع النظارة الواقية، على عينيه لحمايتهما من شمس الظهيرة والتيار المنبعث من الآنية الضخمة المتقدة بشحم الخنزير الذي أعدته أمه، وخرج «النكرة» من المخزن بخطى تحاكي خطى دمى الجنود الخشبية التي كانت شائعة آنذاك، والتي تتحرك إلى الأمام في خطى متكلفة حينما تضعها على منحدر. ودنا في بطء من سقيفة الطهو، وقد تدلى من قبضته اليمنى التي أطبقها في إحكام على الطرف المقطوع لحم زاهي الحمرة ودهن أصفر وعظم أبيض هو ذيل ثور بكامله له جلد أسود بسيف قصير في غمد من الخشب الأبيض. أما الصبي الذي كان انطلاقه دونما توقف متشبثاً بالدراجة فقد غمر بالعرق قميصه وسراويله القصيرة ونموذج الخودة الذي يعتمره، فغسلها في النهر، وضعها لتجف على ما بقي من جذع صفصافة حمراء بعد قطعه، وراح ينتظر في الحديقة مرتدياً السروال الصغير القطني الذي يرتديه صبية الوادي حينما يستحمون في النهر ولا شيء سواه وسونكيه في يده. حينما مر به «النكرة» وقد بدا وجهه البدري الكبير شاحباً ومنتفخاً في ضوء الشمس أصدر أمراً بصوت خفيض أجش:

ـ اجمع لي بعض الأعشاب البرية ذات الرائحة، اجمع كل الأعشاب التي لا تطعمها للماعز لقولك بأن رائحتها بالغة الشدة!

انطلق شبه عار كما هو في الحال مثل حيوان يعدو، لكنه حين دلف إلى أجمة رطبة حارة عند حواف الغابة، وشرع في التقاط الأعشاب ذات الرائحة، خالجة فجأة شعور بأن ذلك عمل غير مشروع لم يقدم عليه من قبل شخص محترم في الوادي، بل وربما خيانة

صريحة وتدنيس لحرمة الحياة النباتية المنتشرة في الغابة. عندئذٍ بدا تباهيه المتشامخ لإفلاحه في الحصول على اللحم الذي طلبه «النكرة» وكأن شيئاً يفسده، كأنه ينحدر باتجاه عار لا يمكن محوه على وجه التقريب. ومع ذلك ورغم أنه لم يكد يمس في حياته قط الأعشاب البرية ذات الرائحة إلا أنه نجح بإرشاد غريزة الذواقة في جمع «باقة مزدهرة» كأوفر وأكثر ما يمكن جمعه في الوادي عبقاً، تضم نباتات طماطم ذابلة تعلوها ثمار صفراء في حجم كرات البينج ـ بونج، اقتلعها جميعاً من جذورها، وانطلق عائداً إلى «النكرة».

«يقول: لم ينقض وقت طويل قبل أن أصبح أنا نفسي محنكاً في إعداد يخنة ذيل الثور. أتعلمين أني حين أفكر في الأعشاب ذات الرائحة التي جمعتها في ذلك اليوم يراودني شعور بأن «الباقة المزدهرة» قد شملت كل شيء لا غنى عنه في إعداد يخنة ذيل الثور، وإن كان يستحيل العثور عليها في ذلك الوادي؟ لم تقتصر فحسب على الكرفس والبقدونس، إنما كذلك ضمت الغار الجاف، بل خالجني كذلك شعور بأنه من المحتم أن لدى «النكرة» زجاجة نبيذ مخبأة لاستخدامها في إعداد ذيل الثور الذي استخدم شحم الخنزير صلصة له، أو أنه قد أعد مخزوناً من الحساء مقدماً وبمقدوره بالفعل الانتقال دونما عناء إلى المرحلة الثانية من الإعداد بطهو اليخنة كاملة. أدركت أنني سأثير سخرية أمي إذا ما تركت كتابة شيء يجافي الحقيقة على هذا النحو، ولذا فلن أدرج ذلك في الصورة التي أقصها وإن كنت أشعر بأنه الصواب بالنسبة لي».

كان ما بدا له في ذاكرته كما لو كان في صورة تعرضت للضوء كثيراً آنية طهو ضخمة غارقة في ظل معتم فوق موقد يتقد بحمرة قاتمة في الضوء المتراجع ووجه «النكرة» الغارق كذلك في الظلال الغميقة وغطاء رأسه الأبيض اللامع ورأسه الضخم المحني كأنما في حداد، فيما راح يحدق في الآنية عبر نظارته التي غشّاها حتماً البخار المتصاعد، وقف خلف «النكرة» على بعد خطوات وجسمه شبه العاري معرض للشمس مصغياً إلى الأزيز الصادر عن قطع لحم ذيل الثور وهي تتقافز وتتلاطم في الآنية، متشمماً في اشمئزاز رائحة اللحم الحيواني القوية على نحو لا يوصف. تحدر العرق دونما توقف على ظهره. كما لو أن الاقتاب المدببة على ظهر الديناصور تنحت في ظهره هو. ووقف على هذا النحو وقتاً طويلاً ودونما حراك تحت شمس الصيف، في التو على نحو ما يحدث دائماً في الوادي،تجاوز موضع الشمس نقطة بعينها فوق الغابة. أقبل الغسق ومضى في طرفة عين، انحدرت ظلمة ثقيلة على نحو مفاجىء، فغدت نار الموقد أكثر حمرة، شرعت الكلاب العجفاء التي غدت عقوراً وعاشت في زمرة عند أطراف الغابة في النباح.

أخيراً التفت «النكرة» ووجهه الغارق في الظلال مظلم عدا الأجزاء التي تلتمع في حدة من نظارته، وسأل بصوت بالغ الوقار، كما لو كان جذله أمام موقد الطهي من عمل شيطان يسلب اللب وقد فارقه الآن:

ـ هل تستطيع أن تسندني؟

كان الصبي يرتعد في مهب الريح الباردة المقبلة من بطن الوادي، وتقدم إلى الأمام في توتر، ولا يزال مدركاً في غمار عريه، وإن كان عرقه قد جف منذ وقت طويل، لما يحس أنه آثار الاقتاب التي تعلو ظهر الديناصور، ووضع «النكرة» يده على أم رأسه كما لو كان يمسك بنهاية وتد، وشرع في السير خطوة فأخرى نحو مدخل المخزن. بمقدوره حتى الآن أن يتذكر بحيوية هائلة وواقعية متدفقة بالحياة أنه كان يحدث نفسه بأن عنقه سيتحطم لا محالة تحت الثقل الذي تنوء به إذا ما استمر في السير على هذا النحو وأنه أراد رغم ما في ذلك مما يبعث على السخرية أن يهتف: يحيا الامبراطور؟ لعل «النكرة» يقر بأن ابنه الصغير هو الوريث الحق لدمه.

«تبدأ «القائمة بأعمال منفذ الوصية» في التململ فيسألها لائماً: أتظنين أنني أصطنع هذا؟ إنني رجل يحتضر لاصابته بسرطان الكبد، فلم يتعين عليّ أن أروي قصصاً مصطنعة؟ فضلاً عن ذلك فإني مقبل على الجزء الذي يدور حول كيفية اكتشاف طبيب الوادي لاصابة «النكرة» بسرطان المثانة، يبدو لي أنني عندما أتأهب للحديث عن السرطان فإن بمقدورك إبداء قليل من الاحترام، ليس لي وإنما لسرطاني!».

تقدما ببطء تجاه مدخل المخزن، لكن قدمي «النكرة» اللتين كانتا ترتفعان وتهبطان في تثاقل كأنهما قائما فيل سيرك يخطو صاعداً فوق برميل، لم تتمكنا من الخطو عبر عتبة الباب الصفيق المتوهج العريضة والمرتفعة، عندما ركع الصبي على ركبتيه فلامس الأرض التي احتفظت بدفء الظهيرة، ولف ذراعيه حول ربلة الساق الغليظة التي كان «النكرة» لا يزال يكدح محاولاً في صبر رفعها، حاول إمداده بالقوة لرفعها. هوى «النكرة» على ظهره في مشهد بعيد عن الوقار، كأنه طفل صغير، وإن صحب سقوطه ارتطام هز الأرض. ثم قفز قضيبه الضخم المسود من فتحة سراويل ردائه «الشعبي» وتبول فأكثر. ظل الصبي راكعاً على ركبتيه، وقد جمده الشعور بالإخفاق، وبلل البول النفاذ الرائحة جانبه وفخذه الأيمنين العاريين. مسح أصابعه متردداً، ثم لأنها ظلت دبقة حكها بصدره. كان بسبيله بصعوبة إلى إدراك أن شيئاً أكثر كثافة ولزوجة من البول ظل عالقاً بها حينما أصدر «النكرة»

الراقد بظهره على الأرض، والذي كان يحاول بإحدى يديه على نحو ما آن يبعد قضيبه الذي تراخى بعد التبول وتعذر تبينه فوق سراويله الغارقة في البول ـ أمراً بصوت أكثر وقاراً وتماسكاً عن ذي قبل:

ـ امض، واستدع ذلك الطبيب الدجال، وأبلغه أن مثانتي مصابة!

إنبعث الفتى واقفاً بقفزة واحدة، وسابق الريح منحدراً على الدرب الحجري على نحو ما هو عليه دون أن يتوقف لالتقاط أنفاسه حتى بلغ دار الطبيب، وحينما رأى في الضوء المتسرب عبر الباب الزجاجي من الداخل أن جسمه العاري كان غارقاً في الدم، انفجر باكياً.

«يقول: منذ ذلك الصيف من عام ١٩٤٤ وحتى ذلك اليوم المحدد في العام التالي حين أقبل الجنوذ الذين هجروا ثكناتهم ليصحبوه، لم يغامر («النكرة») بالسير خطوة واحدة خارج المخزن. في تلك الليلة، حينما وصل الطبيب العجوز الذي كان يعالج مثانته منذ ما قبل الحرب من الوادي إلى المخزن، أبلغ «النكرة» تواً وعجز جنائزي يخالج صوته قوله:

ـ أيها السيد المبجل! لقد مضيت وجلبت على نفسك أخيراً سرطان المثانة، نعم، سيدي!

حينما خضب الدم في بول «النكرة» يدي، وذلك مع بدء الإضطراب الذي ساد تلك الليلة، داهمني هاجس يقول بأن ذلك من المحتم أن يكون ضرباً من النذر المهمة، ثم عقب ذلك بخمسة وعشرين عاماً حينما اكتشفت أني أصبت بالسرطان بدوري، ألقيت نظرة فاحصة على يديّ اللتين تحولتا إلى لون فاتح الحمرة، فهمت مغزى ذلك النذير الدموي. إن لحياتي تواصلاً رائعاً، ألا توافقين على ذلك وخاصة في التفاصيل؟ ما الذي وقع للطعام؟ الطعام؟ فاجاه السؤال وأربكه. وليخفي حرجه ولأنه لا يزال مضطرباً ويشعر بدوار في رأسه وعجز عن تشكيل الكلمات بوضوح شرع في الضحك: ها! ها! ها! أدرك أن عملك يقتضي أن يكون المرء واقعياً في المقام الأول. مع ذلك فإذا ما كنت لا تدركين أي فارق في الأهمية بين سرطان المثانة واليخنة لأنك تعتقدين أن كل ما أحدثك به ملفق وتنظرين للأمر كله بمقتضى هذا، أياً ما كان طابعه الدموي، فتلك مشكلة حقاً. لكن أتعلمين أني أحب يخنة ذيل الثور، وقد ساعدتك في إصلاح أمرها مراراً عديدة. وطالما ظلّت تلك الآنية المتخمة بذيل الثور على النار فستبقى في ذهني. ها! ها! ها! الناس الذين لا يزال أمامهم عمر طويل يعيشونه هم مرحون ويأخذون الأمور مأخذاً يسيراً، فأقدامهم راسخة في الأرض! كانت

أمي على هذه الشاكلة أيضاً. في تلك الليلة كانت هي التي لا يزال أمامها عمر طويل تحياه والتي لم تقبل إلى المخزن لزيارة المريض رغم أن الطبيب أعلن أنه مصاب بسرطان المثانة من الحرص بحيث مضت لتتفقد يخنة ذيل الثور في سقيفة الطهو. وعلى الرغم من أنها لم تكن ترغب في مشاهدة شيء فظيع كذيل ثور فربما حركها الاحترام الذي كنا نبديه نحو الطعام بصفة عامة في تلك الأيام. وفي صباح اليوم التالي حينما مضيت تلبية لأمر «النكرة» لأتفقد سقيفة الطهو وجدت اليخنة معدّة. ولما لم تكن لدي أدنى فكرة عن كيفية غرفها من الآنية الصغيرة التي وضعتها أمي فيها فقد حملت الآنية بما فيها إلى «النكرة» حيث يرقد في المخزن في الحجرة ذات الأرض الخشبية. ثم أردت العناية بمعدتي. فلم أجد بداً من الذهاب إلى المطبخ في المبنى الرئيسي. ولما كانت أمي قد واصلت إعداد وجبات الغداء والعشاء للمعتكفين في المخزن فلا بد أن نصيبي من وجبة عشاء البارحة التي لم أتناول منها شيئاً في انتظاري هذا الصباح. ودلفت إلى المطبخ، فألفيت أمي في الغرفة المجاورة تصلح الزخارف وتصقلها لاستخدامها في عيد الخريف بمزار القرد. منذ مجيىء رماد أخي إلى الدار رمقت أمي الوادي وما فيه بعين فاترة بما في ذلك مشاهد الطبيعة، بل وما كانت لترفع عينها لترى إلى أين تمضي بها قدماها، لكنها بدأت تعنى بمزار القرد بإخلاص حقيقي ولا تزال حتى اليوم دائبة على ذلك! حين طلبت إفطاري ردت علي متصلبة كما لو كانت تتدرب على تمثيل سطور في دور بمسرحية رافعة عينها فحسب، لترشقني بالنظرات خلال حديثها:

- لقد ألقيت الخضر التي احتفظت بها لإعداد ما يكفي من العصيدة للأسرة بكاملها في ذلك الوعاء من ذيل الثور القذر، من ثم فلم يعد لدينا ما نأكله.

هكذا أمسكت بقطعتين مما يمكنك تسميته خبزاً، ذرة مطحونة جيداً مضافاً إليها قليل من دقيق القمح، مضيت بهما إلى الحديقة محدثاً نفسي بالتهامهما مع الخضر التي من المحتم أنها سقطت في قاع الحساء الباقي في الآنية الكبيرة. لكني حينما دسست يدي في الآنية وجدت أن كل ما كان في ذلك الحساء العكر قد طهي تماماً دون أن تبقى إلا بقايا من ألياف. للحظة أوشك الفزع المنساب عبر أصابعي المنقبة في قاع الآنية أن يدفعني للتعاطف مع سخط أمي، والحق أني بعد أن انتهيت من ابتلاع ذلك الخبز الذي يحاكي كتل الخشب ببعض الماء سحبته من البئر لم أعد للمخزن لبرهة. كان ذلك راجعاً من ناحية إلى قيام «النكرة» بإعمال أسنانه في يخنة ذيل الثور صباح اليوم التالي لاكتشاف إصابته بالسرطان في مثانته، ممسكاً بقطع ذيل الثور تلك برائحتها المشؤومة التي غلبت «الباقة المزهرة» التي جمعتها من حافة الغابة - من نهاياتها بين إبهامه المستدير وسبابته نازعاً

اللحم عن العظم، وملتهماً إياها قطعة بعد الأخرى دون أن يعرض عليّ مشاركته في أصغر قطعة، كما كان راجعاً من ناحية أخرى إلى خوفي من أن رائحة شيء كهذا، التهم في واد تحيطه غابة وفضلاً عن ذلك في الصباح المبكر ستجلب علينا كل تلك المخلوقات الشبحية التي سكنت أعماق الغابة سنوات طوالاً. عقب ذلك وفي المناسبات النادرة التي نحصل فيها على ذيل ثور، وحتى حين تكون أقدام خنزير هي كل ما لدينا، كان يتعين علي أن أقوم بالطهي بنفسي، لأن حالة (النكرة) الصحية لم تعد تسمح له بمغادرة المخزن للقيام بالطهي أو بأي شيء آخر. يقيناً كنت أنفذ تعليماته، وكان ذلك أمراً يسيراً؛ فكل ما علي القيام به هو إلقاء اللحم في آنية ضخمة بها ماء يغلي مقطعاً قطعاً صغيرة غليظة على نحو ما جئت به من عند الجزار، أنتظر قليلاً، أضيف الشعير أو أي نوع آخر من الحبوب، وما يوجد من خضر قليل استطيع اختلاسه من أمي التي لم تعد تهمل بترك بصلها وجزرها دونما اهتمام، وبعض الملح وفصوص قليلة من مادة لم تشق طريقها تحت أي ظرف من الظروف إلى مطبخ أمي هي الثوم. ومن المحتمل أن تعليمات «النكرة» بخصوص هذا الطهي المبسط كانت تبسيطاً لتجاربه في الصين قصد به السماح له ببعث هذه التجارب في الوادي. يقيناً لم يكن هناك في أي مكان بالوادي أحد يقترب طعامه من طعام حراس الغابة الكوريين قدر اقتراب طعامنا. كان الكوريون متماسكين في ظل ظروف عمل يتعين وصفها بأنها شاقة، كذلك «النكرة» على الرغم من سرطان مثانته المتقدم غدا بفضل لحم الوعاء الفريد ذاك بالثوم وعلى نحو مطرد أكثر بدانة حتى لم يعد ثمة جلد كاف لتغطية بدانته».

- ٦ -

«عندما يبدأ أغسطس تنتابه حالة اهتياج، لم يكن النوم فيما يبدو يخلصه منها، فعلى الرغم من أنه لم يعد ينتحب بصوت عال كذي قبل، إلا أنه كان يصرخ تكراراً كأنما انتابه فيما يبدو غضب هائل. غير أنه يصر في حديثه مع «القائمة بأعمال منفذ الوصية» التي يداخلها الشك في التأكيد على أنه لا يذكر ما كانت عليه أحلامه. تقول: في خلال هذه الأيام القليلة الماضية أعربت مراراً عن خشيتي من عدم قدرة أمك على النجاة بعمرها من حرارة هذا الصيف، وأتساءل عما إذا كانت لأحلامك علاقة بهذا الأمر؟ يرد قائلاً بهدوء موضوعي: لا يمكن أن يكون الأمر على هذا النحو، فلست أدري الآن وأنا أحتل مكاناً في النهاية يمكنني أن أوجه منه اللطمة لأمي للمرة الأولى في حياتي ما الذي يمكنني أن أفعله إذا لقيت حتفها متقدمة عني بخطوة واحدة. لكن الاهتياج يعاوده بعد دقيقة واحدة، يقول: الحق أن بمقدور أمي أن تقرر انتهاك العقد المبرم بيننا وأن تنتحر بمهارة تجعل الأمر يبدو

وفاة بسبب الشيخوخة، ولن يكون باستطاعتي الذهاب إلى مكان الحادث لتحري الأمر، إنها قادرة على الإضراب في يسر عن الطعام حتى الموت والبدء في دحرجة ما قد يكون واهناً بقدر كاف من الأعضاء داخل جسدها على منحدر هين لن تعود قط لارتقائه من جديد، ولديها فوق الكفاية من الخبث للقيام بذلك! أقد وعدت وأمك أحدكما الآخر بأنكما لن تقدما على الانتحار؟ يقول: حينما كنت بالمدرسة الثانوية تيقنت أمي من أنـي لن يكون بمقدوري الانتحار وذلك عن طريق إيلامي وإذلالي بعمق بالغ حتى أن مواقفي الأساسية من المجتمع المحيط بي تشوهت على نحو فقدت معه شكلها تماماً. كيف يمكن ألا ترتد منقلبة عليها القوة التي اضطرت لإعمالها في مواجهتي للوصول إلى هذا؟ ألا يرقى ذلك إلى مرتبة الارتباط بعقد مشترك؟ لكني لكي أدينها على نحو فعال لانتهاكها للعقد يتعين علـي الإمساك بها متلبسة بفعل محاولة الانتحار على نحو ما أمسكت بي! مع اقتراب ذلك اليوم من شهر أغسطس الذي مضى به وبـ «النكرة» فيه قبل ربع قرن من الزمان عشرة من الضباط والجنود الذين تركوا صفوف الجيش إلى خارج الوادي في عربة، يندلع اهتياجه منذ ما قبل الفجر وحتى وقت متأخر من الليل، يتعين على «القائمة بأعمال منفذ الوصية» أن تمضي إلى مقر الممرضات مراراً لطلب علاج يفلح في تهدئته، إصراراً منه على أن يعيش من جديد يوم منتصف الصيف ذاك في مناخ وظروف طبيعية مشابهة بقدر الإمكان يدفعهـا لإيقـاف مكيف الهواء في حجرته الخاصة، يقول: تعلمين أن ليس بمقدوري قط أن أحيا ذلك اليوم الصيفي من جديد على نحو ما كان. ترى كيف تستطيعين استدراجي بعيداً عن ذلك الصيف الأخير؟

لكن في غرفة المستشفى التي حرمت الهواء المكيف يتسارع معدل إعيائه، يمضي النهار بأسره متنهداً، ثم ينال منه التعب فيغفـو دون أن يقص كلمـة واحدة. ينغمس في الأحلام، فينبعث صارخاً في غضب. صبيحة ليلة كهذه يشكو من لون من الصعوبات لم يقربه من قبل قط. عندما أحاول بأقصى ما أستطيع أن أتذكر بوضوح الضبـاط والجنـود الذين وضعوا «النكرة» في العربة رغم النزيف السرطاني في مثانته ومضوا به خارج الوادي كما لو كانوا ينتزعون جذراً من الأرض يبدون لي أحياناً في ذاكرتي وخاصة الضباط مرتدين زياً يحاكي تماماً زي جنود الاحتلال. لقد كانت لدي دائماً صورة مزدوجة للجنود، جانب منها للمشاة اليابانيين قبيل الحـرب مباشـرة والجانـب الآخـر للجنـود الأمـريكيين خلال الاحتلال، ومع أن الصورتين منفصلتان إلا أن لهما طريقة في الاندماج على نحو مراوغ. لن يكون بمقدوري أبداً أن أصف أزياء أولئك الضباط والجنود الذين جاءوا إلى الوادي

بأي قدر من الدقة. رغم ذلك فإن هذا الجزء شديد الأهمية! ليس باستطاعتي دونه أن أجعلك تقبلين ما أقوله بحسبانه شيئاً قابلاً للتصديق! إن الذروة المؤتلقة لأيامي السعيدة تضرب جذورها هناك، وكل ما أتيته منذ ذلك الوقت تأثر بالقوة المنبعثة من هناك، حتى موتي الوشيك يأتلق في النور المنبعث من هناك لا من أي موضع آخر. على هذا النحو مضى في حديثه مضطجعاً عاجزاً عن التحكم في اهتياجه المتصاعد، ومرتجف الأطراف، مع ذلك فحينما تحاول «القائمة بأعمال منفذ الوصية» مساعدته بالبحث على سبيل المثال عن مجموعات مصورة عن نماذج وعادات زمن الحرب، بحيث يمكن له أن ينشط ذاكرته على نحو موضوعي، فإن استجابته الوحيدة، إن أبدى استجابة على الإطلاق، تتمثل في الرفض والعناد. يصيح في ضيق وعيناه محمرتان كثمار الرقوق: إنني أعتزم رواية «تاريخ العصر» الذي عايشته بنفسي على نحو محدد، والذي استمرت تجربته في الحياة بأعماقي، ولئن شرعت في كسوة ذاكرتي غير المتيقنة بسجلات مصورة أعدها من لست أدري فخبريني كيف يمكنني إنجاز «تاريخ للعصر» يتمتع بأي قوة بالنسبة لي ولأمي! الحق أنه ليس أمراً يسيراً بعد كل هذه السنوات أن أستحضر بالكلمات مشاعري في وقت متأخر من ذلك الأصيل حينما ظهر أولئك الضباط والجنود في الوادي، وعبروا القنطرة مقبلين من الطريق الرئيسي، ودنوا في صف واحد متصلب، وسمعتهم فيما كنت أقف وسط الكبار الذين انتقلوا إلى الوادي، وكانوا أشد كسلاً من أن يعملوا، مع صبية الوادي الآخرين يعلنون أنهم لم يحضروا إلا من أجل «النكرة» ثم طلبوا أن يصحبهم أحد إليه، فبدت السعادة وكأنها تشحنني بكهرباء ساكنة وحتى وقت كل جزء من لحمي ودمي على الرغم من أني كنت مصعوقاً بهذا التطور المفاجىء وغير المتوقع. ليس من اليسير كذلك استحضار الطريقة التي كان أولئك الجنود يتحركون بها، خطاهم السريعة المتصلبة حتى حين يقطعون خطوات قلائل أو أصواتهم الهاتفة: كفى هراء! حينما يصدر بعضهم الأوامر للبعض الآخر، والعودة إلى ذلك الفتى من الوادي الذي كنته في أغسطس من عام ١٩٤٥، وانعاشه تدريجياً بدم جديد إلى أن يسترد العافية التي كانت له. ذلك أن أمي هاجمت ذلك الفتى السعيد حد الانتشاء في أعماقي بإصرار هائل حتى دفعتني في النهاية إلى حافة الفناء. طوال مدة مديدة بدأ القضاء عليه وكأنه الهدف الوحيد لما بقي من عمرها من أعوام، وقا عكفت على تحقيقه بضراوة تفوق ضراوة السرطان الذي ينهش كبدي! لكن من المحقق أنك قاومت؟ هكذا إذا استحضرت كل الأشياء الكامنة داخلك والتي حاولت حمايتها من أمك خلال طفولتك وتحدثت عنها واحداً وراء الآخر، ألن يقدم لك هذا جميع المداخل

التي تحتاجها؟ ألاحظ مؤخراً أنك تؤدين لـ «تاريخ العصر» الذي أدبجه ما يفوق كثيراً مجرد تدوينه. للمرة الأولى تقريباً منذ اعتكافه في سرير مرضه يعرف عن شيء يقرب من عرفان حقيقي بالجميل. وفي غمار اهتياجه وضيقه يكشف كذلك عن صراحة غير متوقعة منه. تقول «القائمة بأعمال منفذ الوصية»: ذلك لأني أخشى أنك إذا فقدت الاهتمام بهذا المشروع الآن ستغوص بعمق إلى قرار سرطان الكبد في خيالك، فلا تطفو من جديد أبداً. ها! ها! ها! يعود إلى حرصه ومكره من جديد، فيحاول ذر الرماد في العيون لتغطية الصراحة التي كشف النقاب عنها لتوه. يقول لم أدرك أن بمقدورك أن تكوني عاطفية على هذا النحو البديع. الآن يعيد إحكام قبضته على ما يحتاجه للحديث عن نفسه بموضوعية باردة. يسترجع في غمار هذه العملية، ودون شك بدعم من رغبته في مناوأة «القائمة بأعمال منفذ الوصية»، بعضاً من حيويته كذلك، غير أنه في الوقت الراهن سيعتمد على هذه الحيوية لتنقله إلى رحاب النعاس. حينما يستيقظ من سنة النوم هذه وتكون قوته ومعنوياته في الحضيض فلن يستطيع معاودة النوم، لسوف يستأنف سرد قصته في منتصف الليل إذا ما استيقظت كاتبته الراقدة على فراشها الخشن إلى جوار سريره بدورها وبقيت إلى جانبه».

فيما هو يمضي بالضباط والجنود مرتقياً الدرب الحجري نحو دار المزرعة القابعة فوق قمة التل، وقد تبعه أطفال الوادي جميعاً على وجه التقريب، وقد استعادوا صداقتهم له في التو من خلال ظهور الغرباء، أدرك في انبثاقة قلق كالشرر اقتحمت للحظة غمار الاهتياج المتلاطم في رأسه أن أمه قد عكفت مسرعة على إغلاق الأبواب الصفيقة التي لا تستخدم إلا مرات قلائل كل عام حين يدنو إعصار من الدار، لا في الطابق الأرضي وحده وإنما كذلك في الطابق العلوي الذي لا يقطنه أحد بل وفي العلية كذلك، كأنما كان يقود جيشاً مهاجماً من الوادي. ونكس عينيه إلى الدرب فيما هو ينطلق صعداً آملاً في الحفاظ على ارتفاع معنوياته. وعند البوابة المسقوفة بمدخل دار المزرعة صرخ أحد الضباط بالأطفال أن يمضوا بعيداً. لم يكن ثمة ما هو غير مألوف بالوادي فيما يتعلق برفع الصوت عالياً، لكن إذا ما صرخ أحدهم، اللهم إلا في مشاجرة عائلية، فإنه ينكمش خجلاً من صوته المرتفع الذي بلغ أسماع المخلوقات المتربصة في أغوار الغابة. في النهاية يصل إلى حل وسط مع من أثار غضبه، رغم أنه ربما كان محقاً تماماً. أما الطرف الآخر فتظل الذكرى قابعة في أعماقه سابحة في السخيمة أياً كان التنازل الذي قام به من صرخ في وجهه، إذ يظل أبعد ما يكون عن نسيان ذلك. وفي غمار الحياة الجماعية للوادي يرقى لقب «الجعجاع» إلى مرتبة لطمة رسمية توجه لمن حكم عليه بأنه خرج على آداب الجماعة على

نحو لا يمكن نسخه أو الغاؤه. هكذا أفعمه رنين الأصوات التي رفعها الغرباء دونما حياء في وجه جمع من أطفال الوادي بالسخط والازدراء وشعور بالظلم، ثم جاء دوره عند مدخل المخزن الذي يقطنه «النكرة» ليقال له بصوت عال: ابق في الخارج! رغم ذلك نجح على نحوٍ ما في قمع غضبه مؤقتاً والسيطرة على شعوره بالهوان إزاء إساءة السلوك الصارخة تلك. وحينما فتح باب مطبخ الدار برفع الرتاج الداخلي بمسمار عتيق، انطلق ليتحدى أمه حيث قبعت دونما حراك في ظلمة الغرفة المجاورة:

ـ أمي! أمي! تماماً كما ظننت، تماماً كما ظننت، أمي، جاء رجال الجيش من أجل «النكرة» تماماً كما ظننت.

تهدج صوته بالانفعال وهو يحادث الظلمة، لكن أمه تجاهلت انفعاله، واكتفت بالرد قائلة:

ـ تماماً كما ظننت! على الأقل يمكنك الحديث على وجه لائق، من المحقق أنه قد بقي عندك قليل من الحياء!

ومع ذلك سيطر متذرعاً بالصبر حتى على نزعة العداء التي أثارها هذا الرد، وواصل مناشدتها مبادلته حديثاً يقوم على أساس الشعور بالابتهاج الذي كان يمكن أن يغمرهما معاً.

ـ أماه! أماه! لدي قصاصة من الورق خبأتها في موضع سري تضم قائمة بكل الناس الذين قالوا إن «النكرة» جاسوس، أو تناقلوا الشائعات عن أنه يكتب رسائل للجرائد يقول فيها أننا سنخسر الحرب، وكنت أفكر يا أماه في هذه القائمة منذ مجيء الجنود من أجل «النكرة» على نحو ما ظننت!

ـ ليس لدى «النكرة» القدرة على أن يكون جاسوساً، كما أنه يفتقر إلى روح المبادرة التي تجعله يبرز إلى الميدان ويقول إننا بسبيلنا إلى الهزيمة في الحرب. أوه، إنه يكتب للجرائد بالفعل. شيئاً حول جعل سايبان وتينيان وجوام معاقل دائمة في مواجهة العدو ونقل القصر الامبراطوري إلى هناك حتى وإن كان ذلك يعني ترك اليابان بأسرها بلا دفاع أمام هجوم أمريكي، هراء من هذا القبيل، والله وحده يعلم ما الذي دفعه إلى هذا الحديث أو من كان يظنه شريكه في تجاذب أطراف الحديث ثم اختبأ في المخزن لأنه يخاف الشرطة السرية ومجيئها لاعتقاله، لكن كل ما حدث هو أن قلة من رجال الشرطة الريفيين أقبلوا ليبلغوه بأن عليه التوقف عن هذا، نعم، سيدي!

ـ أماه! أماه! لقد أقبل رجال الجيش من أجل «النكرة» أماه، تماماً كما ظننت تماماً كما ظننت!

حينما هتف بهذه الكلمات الأخيرة مناشداً الظلام الذي احتفظ بحرارة النهار حيث جلست أمه دونما حراك ربما والعرق يغلل جبينها، اندفع إلى الخارج من جديد نحو ضياء المغيب الوليد. وانسل إلى ما وراء المخزن، متجنباً الجنود في مهارة رغم وهج الشمس التي كانت لا تزال تتقد بالحمرة والتي أطبقت على صدره وأوقفته في مساره للحظة كجرذ أعمى، ثم تسلق السقف، وجثا على يديه وركبتيه، وحاول الإصغاء إلى بضع كلمات مما دار في المؤتمر الذي عقده الضبّاط مع «النكرة». ولم يمض وقت طويل قبل أن تلتف حول ساقه قبضة جندي كان يسير حول المخزن ربما لحراسته أو تخلصاً من الملل، وجذبه بعيداً عن السقف، في مواجهة عجزه عن العثور على مخبأ آخر يمكنه فيه الصمود وحده في مواجهة العالم. واندفع من جديد مسابقاً الريح دون أن يرعوي إلى مدخل مطبخ الدار المظلم. حدث أمه في صوت متوتر ومهتاج إلى حد ربما بدا معه وكأنه ينخرط في البكاء بقوله:

ـ أماه! أماه! لقد أصبح الموقف من الحرج بحيث أنهم بسبيلهم إلى التمرد، لسوف يقودهم («النكرة») تماماً كما ظننت، تماماً كما ظننت. إننا في موقف متأزم، وقد اختاروا («النكرة») قائداً لهم! خير لنا أن نلقي نظرة فاحصة على قائمة الذين قالوا إن (النكرة) جاسوس أو ممن يرغبون في أن نخسر الحرب، خير لنا أن نجمل أسماءهم أماه، لسوف نحكم القبض على الأعنة، ذلك أن الأمر، أماه، سيكون تماماً كما ظننت!

ألقى خطابه المتوهج هذا فيما يشبه الهذيان، لكن أمه ربما كانت تغط في نومها؛ فقد كان الصمت واللامبالاة اللذان التحفت بهما تامين، فيما هي تقتعد الأرض الخشبية وساقاها تحتها. وفي مواجهة التجاهل الذي قوبل به انبعث واقفاً، وأغلق باب مدخل المطبخ من الداخل، ثم اقتعد عتبة الحجرة المرتفعة الخشبية الأرض وقد ولى ظهره ناحية أمه، وتدلت قدماه الحافيتان فوق الأرض المتربة، وراح يحدق شارداً في الفراغ الممتد أمامه وعيناه مرفوعتان إلى أعلى وقد حجبتهما إلى حد ما جفونه ورأسه الذي يشبه المطرقة غائر بين كتفيه ومرفوع إلى أعلى في زاوية غريبة، تماماً على النحو الذي تظهره فيه الصور الملتقطة له خلال طفولته، محاولاً الانغماس في حلم يقظة حول دوره في هذا الموقف المتأزم باعتباره جندياً شاباً مسلحاً بسونكي، وشرع ينتظر. وكان الغسق قد ضرب اطنابه فجأة، وتهاوت أصوات الأطفال والدواب في الوادي في هوة الصمت حينما فتح أحد الضباط الباب الخشبي عند مدخل المطبخ عنوة وأطل إلى الداخل، وضوء ذهبي يوشك

على الانذياح في العتمة يؤطر كتفيه العريضتين، ورأسه وجسمه غارقان في العتمة. وهتف:

- أيتها السيدة... إن السيد المبجل يرغب في حضورك!

السيدة... ! كان ذلك لقباً لم يسبق له أن سمع به قط. كان على وشك القول بأن هذا اللقب خطأ، وذلك بعد أن أتيحت له أخيراً فرصة ارضاء توقه إلى تقديم مساعدة حقيقية للجنود، عندما ردت أمه على غير توقع من قلب الظلام بإجابة عادية تماماً، ثم انتصبت واقفة وبدت كما لو كانت تهندم الكيمونو الذي كانت ترتديه.

«لا زلت حتى الآن أذكر بجلاء تام الطريقة التي انبعثت بها أمي من الحجرة المظلمة والحفيف الذي أحدثه قماش الزنار المتصلب الذي تأتزر به حينما أحكمت لفه حول خصرها ووقع قدميها الواهن، لكني حينما أحاول التركيز على الأزياء الرسمية التي كان هؤلاء الجنود يرتدونها حينما ظهروا في الوادي لا تتراءى أمامي إلا صورة غامضة. وفي بعض الأحيان يخيل إلي أنه من المحتم أنهم كانوا يرتدون ثياب الجيش المنسوجة من ذلك القماش الكاكي الذي يبدو بالغ الغلظة. وفي أحيان أخرى يداهمني يقين بأنهم كانوا يرتدون قمصاناً بنية قاتمة مفتوحة العنق، غرقت في العرق حتى أفزعنا مظهرها، وقد ثبتت شرائطهم على ياقاتهم. يتحدث في عناء منعقد الجبين على نحو يستثير الفراغ الخاوي في خياله خلف نظارته الواقية حيث تحسم قراراته. ولما كان آخر شيء يتوقعه فيما يتعلق بمشكلته هو استجابة نشطة من جانب «القائمة بأعمال منفذ الوصية» فإن الهجوم الذي شنته يجيء مفاجأة تامة له.

- من الطبيعي ألا تتذكر بوضوح زي هؤلاء الجنود. ففي اليوم الذي أقبلوا فيه إلى الوادي لم يكن جندي واحد منهم يرتدي زياً عسكرياً، لا الزي الكامل ولا ملابس الميدان ولا أي نوع آخر، والأمر كذلك بالنسبة للضباط. وشعر في التو بخطر محدق، الآن انبعث في أعماقه قلق لم يستشعره منذ وقت طويل، ذلك التوتر الخاص المصاحب للشعور بأن شراً داهماً يتربص به الدوائر ليسحق قرار هويته ذاته، قلق كان فضلاً عن ذلك، وشأن ذكرى رائحة، يمكن ابتعاثه في أعماقه في أي وقت من خلال عدد لا حصر له من تجارب طفولته انبعث متصاعداً إلى مستوى الطوفان مع شيء آخر يلملم أطراف ذلك القلق، إن هي إلا هنيهة حتى ليحوله إلى شعور بالعجز المطلق، ويحتج وقد توتر صوته على نحو يثير الإشفاق.

- رويدك لحظة! لو أن فصيلة من الجند سافرت علانية دون أرديتها الرسمية لأوقفتها

الشرطة في عاصمة المقاطعة قبل وصولها إلى الوادي، كذلك تصادف وجود حامية للجيش في تلك المدينة، الأمر الذي لعلمك الخاص يعني أن الشرطة السرية منتشرة على امتداد المكان. ولم يحاول أولئك الجنود بحال إخفاء هويتهم كجنود! كانت الحرب قد انتهت في ذلك اليوم، انتهت الحرب لتوها! قالت القائمة بأعمال منفذ الوصية: إنك تتحدث عن رغبتك في أن تترك بعد رحيلك «تاريخاً للعصر» كشاهدة أخيرة دون أن تضمنه إلا الحقيقة، وتكد في إنجازه حتى تنفد قوتك الجسدية والروحية، ثم إذا بك تغرس في أكثر الأجزاء أهمية كذبة ستبدو جلية على الفور للشخص الذي تريده أن يقرأ تاريخك أكثر من أي شخص آخر - وذلك أمر لا أستطيع فهمه أيضاً، بإخلاص لا أستطيع فهمه أيضاً، فقد انطلق هؤلاء الجنود حتى القنطرة الفضيّة إلى الوادي بشاحنتهم العسكرية في مساء الخامس عشر من أغسطس، ولا يمكن أن يكونوا قد عبروها بالشاحنة لأن الفيضان كان قد اكتسح في أشد أوقات الحرب احتداماً جانباً من دعائمها ولم يتم اصلاحها، وقد اصطحبوك مع أبيك عائدين إلى عاصمة المقاطعة في اليوم التالي أي السادس عشر من أغسطس.

وكانت الحرب قد انتهت في مساء الخامس عشر من أغسطس، تلك حقيقة واضحة كالنهار، وبالتالي لا يمكنك أن تحمل ذاكرتك مسؤولية هذا الخطأ بالتحديد، ويبدو أن الأوصاف التي ذكرتها عن العربة الخشبية التي نقلوا أباك فيها والملابس التي كنت ترتديها حينما غادرت الوادي وكل هذه التفاصيل دقيقة، ويبدو أنك لم تتناول بالتحريف إلا تاريخ اليوم، لكن لِمَ توقع نفسك في مثل هذا المأزق بمواصلة تكرار كذبة كهذه؟ هذا هو ما لا أستطيع فهمه كذلك! وكان راقداً في الفراش على ظهره وحيداً عاجزاً، وداهمه التوق إلى أن يثقب ملاءات الفراش ملتوياً برأسه وإليتيه شأن أحقر حشرة تحيا في طين سطحي لين. ويلوذ بالحشية. تناهى أنينه واهناً: منذ متى وصلت أمي من الوادي إلى المستشفى؟ أطال بها الوقت حتى الآن لتقرأ الصورة بكاملها؟

- ٧ -

«يقول الشخص القابع حتى الأرض على وجه التقريب في أقصى يسار حجرة مرضه بتجرد هادىء وبلهجة غريبة تخلق انطباعاً بموضوعية كلية باردة على الرغم من إضافات التأكيد المنتمية إلى لهجة أهل الوادي: أقبل الجنود في الخامس عشر من أغسطس نعم، سيدتي! تلك هي الحقيقة، وغادروا الوادي بصحبة «النكرة». وهذا الولد في صباح السادس عشر منه، نعم، سيدتي! راح يصغي وإن لم تخل ملامحه من الدهشة للصوت مباشرة لأول مرة منذ عقد من الزمان. ولم يكتشف فيه لمحة واحدة من الكراهية المقنعة

والسخرية الخفية التي استذلته طويلاً مخلفة لديه عقدة الشعور بالاضطهاد، وما كان الشعور الذي خلفه لديه إلا الشعور بسيدة ريفية بسيطة تتحدث. ثمة ضرب من العادية المعتدلة والجديرة بالتوقير يخالج الصوت، شعور بشيخوخة مؤلمة. ومن المحقق أنه تساءل عما إذا كانت صورة الأم العدوانية التي ألقت ظلها المقيت على الشطر الأفضل من أعوامه الخمسة والثلاثين لا تعدو أن تكون وهماً من أوهامه، فقد رد مباشرة على الكلمات الصامتة التي ندت عن شفتي أمه المطبقتين. وداخله الحرج أمام أمه للمرة الأولى إزاء وضعه النظارة المغطاة بالشريط اللدائني على عينيه، لكن طالما أنه يحدق عالياً في السقف عبر العدستين الأسطوانيتين فليس من المحتمل أن تلج أمه مجال الرؤية. وربما بمقدوره إلى هذا المدى على الأقل أن يرفض موضوعياً قبول ظهورها غير المتوقع، لم يكن الأمر راجعاً إلى أنها تحادثه مباشرة، فما كانت تتحدث إلا لتقدم للشخص الذي يدون «تاريخ العصر» الذي يضعه دليلاً، دليلاً سلبياً تماماً. وبالمثل كان هدفه الرئيسي من مقاطعتها هو أن يستخرج ويدقق تفاصيل «التاريخ» لكي يؤكدها. كانوا مبكرين في ذلك الصباح، راحوا يغنون معاً لا نشيداً من أناشيد الجيش، وإنما أغنية أجنبية، ربما كانوا يحاولون القول بأنهم ما عادوا جنوداً. وحملوا حوض الشحم ذاك المصاب بسرطان المثانة إلى عربة خشبية، بل وأخذوا هذا الولد معهم ربما كرهينة. كان ذلك عملاً وضيعاً وشائناً، انطلقوا من الوادي، بل وجروا هذا الولد معهم بخوذته المصطنعة مرخاة على أذنيه وسونكي صدىء مكسور مربوط إلى جانبه، والله وحده يعلم فيم كان يفكر! كان ذلك في صباح السادس عشر من أغسطس، راحوا يترنمون بلحن من ألحان باخ حفظوه من حاكٍ، نعم، سيدتي! كان تفكيك أجهزة المذياع والحاكي وإعادة تركيبها هو الشيء الوحيد الذي يتقنه «النكرة» ـ كان على الأقل متوسطاً في المهارات اليدوية ـ كان لديه جهاز مذياع وحاك في المخزن. وكان الجميع يعلمون أنه في ليلة الخامس عشر من أغسطس لن تقع أي غارات جوية أخرى، هكذا تجلى المناخ النفسي السائد على امتداد الوادي في الأنوار المكشوفة والمتوهجة إلى مسافات بعيدة واجتماع الناس حول أجهزة المذياع، لكننا كنا وحدنا الذين نملك جهاز حاك سليماً بل وبعض الأسطوانات كذلك نعم، سيدتي! طوال تلك الليلة بأسرها راح الجنود الذين جاءوا من أجل «النكرة» يستمعون للأسطوانات فيما هم عاكفون على الساكي[1] الذى حملوه معهم في الشاحنة. كان «النكرة» يجمع اسطوانات

---

(١) الساكي: شراب كحولي ياباني، يعد من الأرز المختمر، يقدم عادة وهو حار، يقول الذواقة أنه يعادل في نوعيته شراب «العرق» المعروف، وإن كان أقوى مفعولاً وأشد وطأة. (هـ. م).

باخ منذ ما قبل الحرب، لكنه باعها أو قايضها لقاء الطعام، ولا يمكن أن يكون قد بقي لديه أكثر من اسطوانتين أو ثلاث، لكن الأسطوانة التي كان أولئك الجنود يستمعون إليها مرات ومرات حتى الصباح التالي بل وحفظوا عن ظهر قلب المقاطع التي ترددها الجوقة قبيل انصرافهم، تصادف أنها إحدى اسطوانات باخ، نعم، سيدتي! أقول الجنود لكن الضباط الشبان كانوا من فتية الكلية الحربية، ولا يزالون يتباهون كثيراً بشريط لمنتصر الأحمر!».

منذ عودة رماد أخيه لم تطأ قدما أمه الدرب الحجري المنحدر نحو الوادي. بالإضافة إلى ذلك فإن أجهزة المذياع التي بقيت بعد الحرب في ذلك الوادي القابع في أعماق الغابة كانت بصفة عامة قادرة فحسب على التقاط ضوضاء لا تعلو على طنين ذبابة، فكيف يمكن إذن أن تكون أمه قد سمعت من تل دار المزرعة أجهزة المذياع تلك تجمع الناس حولها في مناخ نفسي «انتشر على امتداد الوادي»؟

«في وقت متأخر من ليلة الخامس عشر مضيت إلى أربع أو خمس دور في الوادي كان أصحابها يملكون عربات ذات ثلاث عجلات، وفي كل مكان أقف فيه كنت أقول: صباح الغد سيأتي أولئك الجنود السابقون الذين خسروا الحرب لتوهم ليصادروا عربتكم! كان من المفترض أن هناك بثاً مهماً في الخامس عشر، لذا جلست غالبية العائلات خارج الدور في الأروقة مصغية لأجهزة مذياعها معظم الليل، ومن الطبيعي أنه لم تكن هناك برامج تثير الاهتمام، يقيناً أنه لم يكن هناك بث يتضمن قدراً كافياً من الصدق ليلقن أياً كان في تلك الغابة ما يتعين عليه القيام به منذ ذلك الوقت فصاعداً، لكن الناس ما كانوا ليتركوا أجهزة مذياعهم، لأنه بين الحين والآخر يشق صوت طريقه إلى الأجهزة عبر الخمود. حينما قمت بجولاتي قام الجميع بما نصحت به، وأخفوا عرباتهم، ذلك هو السبب في أن الجنود اضطروا في الصباح الباكر إلى نشر كتل من جذوع الأشجار وتحويلها إلى عجلات، شدوها إلى صندوق خشبي للسماد، وضعوا في أرضيته وسائد حملوا «النكرة» إليها. لو أن ذلك كان في أي وقت قبل الخامس عشر لكان الناس في الوادي قد أخفوا أنوارهم، ولراحوا يصغون للمذياع في هدوء في أعماق دورهم، ولكان المناخ النفسي العام في الوادي مختلفاً تماماً، نعم، سيدتي!».

ليسلم بذلك في الوقت الراهن، ليفترض أن أولئك الجنود الذين رفضوا قبول الهزيمة تمردوا وعلى رأسهم «النكرة» في السادس عشر من أغسطس، إذ لا يمكن بالنظر

إلى حداثة سنة أن يكون حسه بالتوقيت دقيقاً للغاية في نهاية الأمر، لكن ذلك لا يغير بحال من جوهر الحادث. لقد شكل ضباط شبان رفضوا الاعتراف بانتهاء الحرب والرجال الذين تبعوهم فصيلة رفضت قبول الهزيمة، وأقبلت سعياً وراء قيادة «النكرة» ـ يقيناً لم يكن ثمة ما هو غير طبيعي في هذا! أخذاً في الاعتبار أن قدراً كبيراً من المعلومات والبراهين قد اتلف خلال فترة الاحتلال، فليس من المستبعد أن طياراً أمريكياً مزهواً بالانتصار كان في السادس عشر من أغسطس يحوم مدمدماً في سماء مدينة مستسلمة قد قصف عربة خشبية غريبة المظهر، تحمل رجلاً يرتدي «سترة شعبية» بل وممتشقاً حساماً. باختصار فإن المشكلة الرئيسية لم تتأثر بكون الحادث قد وقع في السادس عشر من أغسطس وليس قبل الخامس عشر منه. الحق أن الضباط والجنود يحتمل على نحو أكبر أن يكونوا قد عهدوا بقيادة انتفاضة إلى رجل مدني بعد الحرب ساخطين على الاستسلام مما يمكن أن يكونوا قد حركوا صفوف وحدتهم للانضمام إلى مدني خلال الخدمة العاملة في وقت الحرب.

على أية حال، ذات صباح في أغسطس، وقبيل شحوب السماء مع ارتجافة أول خيط من النور، نقل الفتى والجنود «النكرة» إلى العربة الخشبية التي أعدوها، وانطلقوا عبر الوادي الغارق في الظلام ببطء سلحفاة خطوة فأخرى. وعند مدخل الوادي رفعوا «النكرة» بالعربة الخشبية إلى الشاحنة، واندفعوا يرقون ممر المنحنيات التسعة والتسعين، وقد غدوا الآن زمرة من الأنصار المنتفضين. وفيما راحت الشاحنة تغذ السير انبعث الجنود يغنون في جوقة واحدة ودون نظام بعينه مراراً وتكراراً الشذرات والمقاطع التي حفظوها من أغنية بلغة أجنبية. أما الفتى، الوحيد الذي لم يستطع في البداية مشاركتهم الغناء، فقد راح يمسح مراراً وتكراراً بمناشف عتيقة، حمل ملء ذراعيه منها بل ودسها في صدوع العربة، البول الدبق والدم النازف الذي استمر يغرق معدة «النكرة» وحوضه. لكن لم يستطع مسح ما حول كفليه اللحيمين المطمورين تحته دون مساعدة من الجنود. ولم ينقض وقت طويل قبل أن تنغمس الوسائد الموضوعة على الأرض بين كفلي «النكرة» وفخذيه في بريكة من دم تفوح منه رائحة كريهة. داخله الفزع خشية أن ينزف «النكرة» دمه كله، لكنه كان من المستحيل أن ينقل فزعه إلى الرجال؛ ذلك أنهم رغم استمرارهم في دعم الصندوق الخشبي المتأرجح المتصدع من الجوانب الأربعة كانوا قد حولوا مؤقتاً انتباههم عن «النكرة» بشجاعة لا يملكها إلا الجنود، وعكفوا على رفع عقائرهم بالغناء. من المحقق أن الألم كان ضارياً، لكن «النكرة» تحمّله في صمت مغمض العينين وبدنه اللحيم يرتطم جيئة وذهاباً بجدران الصندوق كأنه كرة مطاطية داخل مكعب. وداهمه الخوف من أن يكون

قد قضى نحبه بالفعل، فضغط وجهه إلى عنق «النكرة» الغليظ، ففغم أنفه العرف الطيب الغريب الذي يكمن في قرار رائحة الدم والعرق الباعثة على الغثيان، وصاح: ما الذي تعنيه الأغنية، هه؟ عندها أوضح «النكرة» الذي لم يرد على أسئلته أبداً خلال الوقت الذي قضياه معاً في المخزن، بل والذي بدا أنه لا يحتمل أن يسمح له حتى بطرح سؤال واحد - أوضح وقد انعقدت حبات العرق وتحدرت على وجهه الخزفي الشاحب الذي لم تعرف التجاعيد سبيلاً إليه، وما تزال عيناه مغمضتين وبدنه الهائل يرتطم بألواح الصندوق الخشبية وهكذا قبل الأمر بعناية تفيض بحنو الأب. يقيناً إن ما وعته ذاكرته على نحو مباشر لم يكن إلا قسطاً صغيراً مما قيل: كلمة «ترانين» تعني «دمع» و «تود» تعني «يموت» إنها كلمات ألمانية، سمو الامبراطور يكفكف دمعي بيده، ألا أقبل أيها الموت! أنت يا أخا النعاس الشافي هلم! فسمو الامبراطور سيكفكف دمعي بيده، هذا هو ما يغنونه. إننا ننتظر توّاقين أن يكفكف سموه دمعنا، هذا ما يغنون!

«تراجع القائمة بأعمال منفذ الوصية طبيباً له إلمام بالموسيقى، تحدد عنوان مغناة باخ، تستعير الاسطوانة، يقول مصغياً للاسطوانة متلمساً، بالاستعانة بأبيات الشعر المطبوعة على الغلاف، المقاطع التي ظلت تتردد في سمعه ربع قرن من الزمان: يراودني شعور بأن هذه المغناة جزء من السبب في أني لم أدرس الألمانية في الكلية، وأتساءل إن لم يكن قد سيطر على وعيي الباطن خوف من أنني إذا تعلمت الألمانية فإن الغناء الذي تردد ذلك اليوم، والذي قبع في رأسي، قد يشرع في نقل معنى يعني عكس ما أوضحه «النكرة»!».

رغم أنه كان قد خطا لتوه الخطوة الأولى على ذلك الممر الوعر الذي يصل الطفولة بالصبا إلا أنه فهم كل ما قاله «النكرة» في ذلك اليوم فوق الشاحنة. أدرك الأمر داخل رأسه الصغير المعتمر خوذة مصطنعة، والملتهب لا بالحر فحسب، وإنما كذلك بما أفضى به إليه. أشعلت كلمات «النكرة» عاطفة الطفل عنده في منبعها ذاته، فارتجف بدنه وروحه في سنواتهما العشر، وقد تدفقا حقاً بالحياة فوق شاحنة مسرعة، وتوهجا، وشحنتهما كهرباء هائلة كأنما انقضت عليهما بارقة. عندما خرجت الشاحنة العسكرية من الوادي الراقد في الغابة الكثيفة وشرعت ترقى ممر المنحنيات التسعة والتسعين تخلصوا من العتمة العميقة الخضرة التي تفرضها الأشجار الدائمة الخضرة، التي وقفت كالجدران أمام أنظارهم. وغدا بمقدورهم الإطلال عبر مدى من الأشجار الصغيرة تنفض أوراقها رغم جفافها، تحت شمس الصيف، إلا أنها استبقت بريقاً أخضر شاحباً. الآن هوذا يحدق في

مشاهد الطبيعة بعيني طائر جديدتين، بالعينين الحادتين لباز أو صقر راحل. كانت أوراق الأشجار على امتداد البصر ترتجف دونما انقطاع. وما لم يلحظه قط خلال إقامته في الوادي الذي تتحلقه الغابة، هو أن أوراق الأشجار ترتجف باستمرار حتى حينما تسكن الريح، أدركه الآن بوضوح فيما هو يغادر أعماق الغابة أخيراً ويوشك في العاشرة من عمره أن ينهي حياته. إن الأوراق على كاهل الأشجار تتحرك دوماً! لسوف أذكر ذلك حتى ألقى حتفي، إلى أن أموت مقاتلاً في صفوف الجيش الذي يقوده «النكرة» نحو الانتفاض! فيما هو يفكر في هذا، لاحت طائرة مقاتلة قادمة من اتجاه المدينة منزلقة على ارتفاع منخفض فوق الممر، فبدأ الجنود في الصياح:

- أنظروا كم هو مندفع، ما عاد يكترث بما يحدث!

- خير لنا أن نحصل على الطائرات التي نحتاجها سريعاً قبل أن يحطمها أبناء الحرام أولئك!

- نحتاج على الأقل إلى عشر طائرات، عندئذٍ نستطيع التحليق فوق القصر وإطلاق انفسنا كالصواريخ!

- هدفنا هو الجونشي[1] الجونشي لنا جميعاً!

الجونشي لنا جميعاً - اخترقت الأشواك الملتهبة في قرار الكلمات فؤاده الصغير، استقرت هناك، استمرت في الاتقاد، منحت الحرارة التي امتدت في أعماقه عينيه الحادتين قوة. غدا بمقدوره أن يرى من ركن إلى آخر بالمنحدرات التي أفضت منحدرة نحو الممر الذي دارت حوله الطائرة المقابلة وخلفته وراءها، مئات الملايين من أوراق الأشجار تميل إلى أعلى في مهب الريح العارمة التي كانت قد هبت، وأن يرى بجلاء وبلا حدود الجوانب السفلى لتلك المئات من ملايين الأوراق الملتوية إلى أعلى تلتمع في ضوء فضي مطفأ. ومن المحقق أن تلك اشارة، لسوف يقود «النكرة» جيشنا في انتفاضة ولسوف نلقي جميعاً حتفنا، وهؤلاء الجنود ينشدون قائلين بأنهم يرغبون في الموت بأقصى سرعة وأنهم ينتظرون مقدم سموه ليكفكف دمعهم بيديه.

دوت ضربات قلبه قوية، تدفق ضغط الدم في أوعيته حتى هدر في طبلتي أذنيه، كان

---

(١) جونشي: كلمة يابانية تعني الانتحار باسم الامبراطور، على نحو ما كان يفعل طيارو الكاميكاز خلال الحرب (هـ. م.).

كل ما أمكن سماعه على الجانب الآخر من ستارة الدوي الصاعق تلك هو صمت الأشياء جميعاً. رفع، شأن ابن مقرض، رأسه، وراح يديره دائباً ومحدقاً في الجنود بمحبة واشفاق من خلل عينين أوشكتا أن تنخرطا في البكاء. وعلى العكس من كل الجنود الآخرين الذين طرقوا الوادي خلال الحرب بمن في ذلك طلاب الكلية الحربية الذين استقطروا الزيت من جذور أشجار الصنوبر والذين عاملوا «المواطنين الصغار» برقة متناهية، كان هؤلاء الجنود بالشاحنة قد التزموا البرود والخشونة معه منذ البداية، بل وتصرفوا كما لو كان مخلوقاً قذراً، كذلك كانوا قد عكفوا على الشراب دائبين في المخزن منذ البارحة، وراحوا يغنون في خمار، وكانوا بصفة عامة أبعد ما يكونون عن صورة الجندي التي ظل يكبرها حتى الآن، لكنه عفا عن مثل هذه النقائص، قبلها بأشد ما تكون الرقة، رأى فيهم مثال الجنود «الحقيقيين» بعينه. ذلك أنهم لم يكونوا فحسب جنوداً لا يهابون الموت، وإنما ينتظرونه تواقين للقائه، غدا بمقدوره الآن أن يؤكد خياراً قام به في مكان ما من الطريق قوامه أنه على وشك الموت كعضو في زمرتهم. هكذا استطاع دونما عناء أن يتجاوز مصدر عاره سنوات طويلة: كلا من تردده الذي لم يستطع الاعتراف به لأحد في غمار إجابته الدورية على السؤال اليومي الذي يطرح عليه بالصف الدراسي: أتموت سعيداً من أجل الإمبراطور؟ أجل، أموت سعيداً، وخوفه آخر الليل حين يتصور الموت الفعلي في الحرب. لم ينقض وقت طويل قبل أن يقلد الضباط والجنود مغنياً معهم بصوته المتهدج:

ألا أقبل أيها الموت، أنت يا أخا النعاس والشافي،

هلم، وادفعني إلى الأمام!

«لست أدري ما إذا كان هذا الولد الراقد هناك في الفراش مغنياً على هذا النحو جاداً أم ماذا، لكن كلمة «هيلاند» لا يمكن أن تعني بحال «امبراطوراً»! أما عن كفكفة دمعهم فإن أولئك الجنود قد تقدموا إلى حيث غدوا على استعداد لقصف الشخصية التي يفترض أنها ستقوم بكفكفة الدمع بالقنابل، نعم، سيدتي! عندما أقبل ذلك الضابط إلى الدار ناداني بلقب أبي الحقيقي، الأمر الذي جعل الشك يساورني، فدفعني إلى المضي للمخزن، حينما وصلت هناك لم يستطع «النكرة» حتى النظر إليّ؛ ذلك أنه كان يوشك أن يطلب مني مطلباً بشعاً، فضلاً عن استدراجي إلى هناك بحيلته الصغيرة. لكن الجنود أداروا دونما هوادة مقعد الحلاق الذي يقتعده، نعم، سيدتي! لذا نكس عينيه سريعاً، ثم جرؤ على أن

يقول لي بصوت مخمور، وقد كست وجهه لحيته النامية الحمراء كاللفت جراء الساكي الذي أغرقوه به :

ـ سنحقق ما حاوله أبوك وأخفق في إنجازه، لسوف نختلس عشر طائرات مقاتلة من مطار تابع للجيش، ونغير علاماتها حتى تبدو كمقاتلات أمريكية، ونقصف القصر الامبراطوري بالقنابل، لم يعد هناك سبيل آخر لدفع الشعب الياباني للنهوض من جديد وحماية الجوهر الحق لأمتنا! بعد كل ذلك الحديث المتعاظم عن حلم مجنون، تساءلت عما سيحدث عقب ذلك، علمت أن أول شيء سيطلب مني القيام به هو تسليم أسهمي لأرصدة المعركة، طيب، كان من الوضاعة والانحطاط بحيث أني شعرت أن ليس بوسعي الإصغاء إليه للحظة أخرى. هكذا ختمت الصيغ المكتوبة التي قدمها لي بخاتمي على نحو ما طلب مني نعم، سيدتي! لم أكن قد علمت بالأمر في ذلك الوقت إذ لم يكن بالإمكان أن نتلقى برقيات أو شيئاً من هذا القبيل، لكن أبي بالتبني أطلق النار على نفسه في هابرين يوم دخول الاتحاد السوفياتي الحرب. كان أبي بالتبني هو الذي منحني تلك الأسهم، وكان قد اختارها لأنه خمن أنها من النوع الذي ستساعد الحكومة المصفق على الوفاء بقيمته حتى إذا خسرنا الحرب. لا بد أنه كانت له سيطرة على مصرف المنطقة، فقد رتب أن يقوم المصرف بكل شيء. طيب. لقد دفعني «النكرة» إلى وضع خاتمي على الأوراق التي تقضي بصرف قيمة تلك الأسهم، وجعلني فوق ذلك أحرر رسالة في هذا الشأن، ثم أخذ الأوراق، وأخذه هؤلاء الجنود، مضوا به في صندوق خشبي مثير للسخرية جعلت له عجلات من كتل منشورة من جذوع الأشجار. وكان يتألم على نحو بالغ السوء، وأفترض أنه قد تناول العقاقير المخدرة التي ابتاعها في الصين، ربما حشا أنفه بها، لأنه كان يترنح كالبلبل، نعم، سيدتي! كان عملاً ضارياً، لكني لم أتدخل فيه، إنما رحت في قرارة نفسي أحادث ذاتي قائلة : الآن سترى! في أي لحظة سترى ما يحيق بك! آه، يا له من عمل ضار، ما أقسى النحو الذي سيستغل به ذلك المتعاظم! أما الولد، الذي لم تكن لديه بالطبع فكرة عن أي شيء من هذا القبيل، فكان ممسكاً بمناشف عتيقة يمسح بها الدم عن مثانة «النكرة» وسونكيه يقرقع إلى جانبه، وقد بدا عليه التجهم والإصرار حد الشحوب، الله وحده يعلم ماذا كان يحسب الأمر! طيب، إذا كنت تتساءلين حقاً عما إذا كان الجنود الذين أخذوا «النكرة» معهم قد انطلقوا بتلك الشاحنة إلى أحد مطارات الجيش، اختلسوا طائرات مقاتلة، حلقوا إلى طوكيو، فإنهم لم يأتوا شيئاً من هذا القبيل! فقد وقع تبادل لاطلاق النار عند مدخل المصرف، وقتل

«النكرة» والجنود جميعاً... نعم، سيدتي! لم يقتل أي من الضباط، لكنهم لم يعاودوا الظهور قط. لا أدري ما حدث للأسهم، ربما لم يتيسر بيعها في غمار الفوضى التي أعقبت الاستسلام، ربما بيعت وهرب أحدهم بالنقود، لم تظهر الأسهم ولا النقود عقب ذلك، لذا أحسب أن أولئك الضباط استولوا على النقود وفروا بها، أراهن أن هذا هو ما خططوا للقيام به طوال الوقت، نعم، سيدتي! أظن أن «النكرة» قد أحس بذلك أيضاً، وما اعتزم القيام به هو الانطلاق عبر خطوات تلك الانتفاضة الزائفة، ثم ارتقاء صندوقه الخشبي والعودة للدار عاكفاً على العناية بمثانته صائحاً: لقد خانني الضابط والفتى يعلم القصة بحذافيرها ثم يعاود الاختباء في جوف ذلك المخزن مرة أخرى! لكن البعض ظن أن «النكرة» وعصبته انطلقوا إلى المصرف للسطو عليه أو كانوا يعتزمون السطو عليه بأنفسهم واعتقدوا أن أحداً سبقهم. على أي حال بدلاً من اخطار الشرطة في غمار تلك الفوضى التي أعقبت الاستسلام مضوا بشاحنتهم العسكرية واطلقوا النار على «النكرة» وزمرته عند خروجهم من المصرف. وكان «النكرة» يمتشق حساماً بيمينه ويلوح بيساره في اهتياج كأنما كان يهتف: توقفوا! توقفوا! لكنهم يقولون إنه أردي قتيلاً قبل أن يستطيع التلفظ بكلمة، نعم، سيدتي!».

كانت معركة ضارية حقاً في الشوارع، فوق الرؤوس كانت طائرات مقاتلة، ربما كانت يابانية، ربما كانت أميركية، ومن المحتمل أنها كانت للجانبين، تنداح مسرعة على ارتفاع منخفض للغاية حتى أن هديرها هز الشوارع كان هو الوحيد الذي عاش المعركة بأسرها، وفهم مغزاها تماماً. الآن وفيما هو يفحص من جديد في ضوء المغزى الحقيقي لتلك المعركة حقيقة أن الانتفاضة قد وقعت بالفعل في السادس عشر من أغسطس، أدرك للمرة الأولى أهمية هذا التاريخ دون غيره، وفهم بوضوح أكثر من ذي قبل هيكل التتويج الاحتفالي لأيامه السعيدة. في الخامس عشر من أغسطس عام ١٩٤٥ هبط الامبراطور مسرعاً إلى الأرض يعلن الاستسلام بصوت بشر فان. في السادس عشر من أغسطس كان سموه يحوم صاعداً في ارتقاء سريع مرة أخرى، ومع أنه كان من المحتم أن يلقى حتفه ذات يوم في قصف بالقنابل، إلا أنه سيبعث الآن حقاً باعتباره الجوهر القومي ذاته، وعلى نحو أكثر يقينا عن ذي قبل، أكثر الهية سيغطي مثلما زهرة اقحوان كلية الوجود اليابان وشعبها جميعاً. سيتجلى سموه مفصحاً عن ذاته مثلما زهرة اقحوان ذهبية ينيرها من الخلف نور أرجواني هائل متألف كانبثاقة فجر. منذا الذي يقول إن الآلهة العديدة التي شمخت في تاريخ أرضنا لم تطلب في ذلك اليوم من الامبراطور، الذي تدنى ليتحدث بصوت رجل

فان، أن يمر بالتطهير الطقوسي الذي يمنحه الموت قصفاً بالقنابل على أيدي شهداء على متن طائرة لكي يسمو إلى العلا من جديد كبرياء جوهرنا القومي.

الحق أن القصر لم يقصف بالقنابل. إنما اصطدم «النكرة» بالعدو وجهاً لوجه وهو على رأس وحدة صغيرة مختارة، لا على صهوة جواد يقيناً، وإنما في صندوق خشبي مرفوع على كتلتين خشبيتين منشورتين مثل بكرتين وقد شهر حسامه عالياً، فأرداه الرصاص قتيلاً. ماذا إن كانت المعركة قد دارت رحاها أمام مصرف سحبت منه بعض الأرصدة بسلام، وليس في مطار يجري الإستيلاء فيه على الطائرات المقاتلة لتغيير علاماتها، إلى أي حد يمكن أن يقلل ذلك من قيمتها؟ أو قد تم خوض غمار معركة في شارع بأي مكان آخر في اليابان بأسرها في السادس عشر من أغسطس عام ١٩٤٥ حتى وإن كانت أمام مدخل مصرف يمكن أن تسفر عن مصرع «النكرة»؟ لقد مضى النكرة وجيشه إلى المصرف للحصول على المال بصورة مشروعة، رغم أن موقفهم كان يمكن أن يكون مبرراً إذا ما لجأوا إلى أي وسيلة كائنة ما كانت لتحقيق هدفهم. أما نجاحهم من عدمه فيقبع في رحاب الغموض،ذلك أنه مع خروجهم من المصرف والعربة الخشبية تقل «النكرة» في مقدمتهم فتح عليهم النار جيش آخر كان قد وصل في شاحنة عسكرية مختلفة، بل وشاركت في الهجوم الطائرة المقاتلة المحلقة على ارتفاع منخفض فوق الرؤوس، فقضى على جيش «النكرة» قضاء مبرماً. لم شن الجيش الآخر هجومه؟ ألم يكن حقاً وحدة يسيطر عليها جواسيس الحلفاء وقد نال منهم الخوف من أن ترتد عليهم مناوراتهم لانهاء الحرب في المرحلة الأخيرة؟ كان (النكرة) يعتزم تمويه مقاتلات يابانية لتبدو طائرات أمريكية، فلم لا يكون آخر قد حاول القيام بعكس هذه التجربة؟ من المحتمل إلى حد بعيد أن «النكرة» قصف فلقي حتفه على يد طائرة مموهة لتبدو مقاتلة يابانية وإن كان أمريكي هو الذي يقودها. من المحتمل أنها كانت الطائرة ذاتها التي لاحت لهم فيما هم يعبرون ممر المنحنيات التسعة والتسعين، وواصلت تعقبهم، ثم شنت هجومها أخيراً.

كشف «النكرة» في لحظة موته قافزاً وراء حدوده كفرد من أقحوانة ذهبية تمتد عبر ٦٧٥,٠٠٠ كيلومتر مربع يحيطها ويعلوها، أجل، فجر أرجواني يشمخ في السماء حتى ليغطي تماماً جزر اليابان، والآن الجانب الآخر، أي الجيش المهاجم، فتح النار أولاً على شاحنتهم، فقد تعرض الجنود إلى جوار الصبي لمذبحة على الفور، وقدر له وحده أن ينجو منها. كان «النكرة» قد طلب ذلك من الآلهة في الأعالي؛ إذ كان من الضروري أن يشاهد شخص، شخص مختار، الأقحوانة الذهبية وهي تغطي صفحة السماء ببريقها لحظة

موته . الحق أن الصبي شاهد التجلي سامقاً في السماء دون أن يحجب النور مثلما تفعل سحابة ، وإنما مضفياً المزيد من الألق على وهج الشمس البراق في السماء الصيفية الزرقاء ، التي تكشف عن الأقحوانة الذهبية وخلفها النور الأرجواني . وحينما أزال نور الزهرة وهم «أيامه السعيدة» تحولت في التو إلى هيكل خالد لا يتحطم من نور . ومنذ هذه اللحظة وطوال ربع القرن الذي كان بقي من عمره قبع دوماً في هذا الصرح النوراني الذي كان أيامه السعيدة . واجه «النكرة» ابنه المختار بين القعود والقيام في العربة ، وسيفه مشهر في يمينه ، ويسراه مندفعة أمامه منبسطة حتى أن كل إصبع أبيض سمين تجلى في وضوح ، وتحدث على النحو التالي دونما مبالاة بالأعداء الذين يطلقون النار عليه : **هل رأيت ما ينبغي أن يرى؟ تذكر طوال ربع القرن المقبل الذي ستحياه ما قد رأيته دائماً، لقد تحقق كل شيء . رأيت ما ينبغي أن يرى أنج وتذكر! هذا هو دورك، لا تجترح شيئاً آخر! لقد تحقق كل شيء!** حينما فرغ «النكرة» من حديثه انقضت طائرة مقاتلة ومدافعها الرشاشة تدوي. فغدا الرأس الناتىء من العربة ثمرة رمان مستديرة فاقعة الحمرة مليئة بالثقوب. أما الفم الذي كانت مؤخرته لا تزال مفعمة بالظلمة المحمرة فقد التوى مفتوحاً بصرخة لم يقدر لها أن تدوي في الأسماع .

«حينما ينتزع الشخص الذي رقي فراشه نظارته فجأة ويرفعها حتى منابت شعره يسارع بإغماض عينيه في مواجهة الوهج المؤلم ، لكنهما كانتا قد تمزقتا ألماً بالفعل . ظننت أنه يهرف بهذا الهراء لأنه محموم، لكن عينيه كانتا في حالة عادية! ينبعث الصوت الذي كان حتى الآن قد صدر من طرف فراشه البعيد في الظلمة فوق رأسه. وقبل أن يعيد تثبيت نظارته يمسح أبهامان ناحلان خشنان الدمع بمهارة من ركني عينيه المغمضتين . وجهه بالغ النحول حتى ليبدو كوجهه حينما كان صبياً صغيراً في نهاية الحرب ، عندما لم يكن هناك ما يكفي ليقتات به ، نعم ، سيدتي ! في العتمة الممتدة فوق رأسه من حيث يتناهى الصوت يتبين صورة تحاكي صورة فوتوغرافية غارقة في الضوء اللامع شعر فاحم السواد ، عينان جاحظتان من محجريهما كعنبتين رماديتين ، وجه بيضاوي هضيم يحفه اللحم البشري ، جلد جاف تجرد من القدرة على التعبير. تختلط هذه الصورة في خياله سريعاً بسلبية الصورة الأخيرة التي التقطت لـ . . . . . . قبل إعدامه ، فعلى الرغم من أنه كان في السادسة والعشرين إلا أنه يقال إن المحاكمة الوحشية وحكم الإعدام قد جعلا شعر الراهب الشاب يتحول إلى البياض ، وإذا كان قد قال كل هذا متمالكاً قواه العقلية ، إذن فيتعين تفنيد ما قاله ! يقولها الشخص مقعياً قريباً من الأرض مرة أخرى وراء الناحية البعيدة

للفراش. أن ترى ما ينبغي أن يرى. لقد عثر أبي الحقيقي على بيت الشعر هذا في كتاب «حكاية الهايكة» حينما طالعه في غيابات السجل وأرسله إلى أقاربه الذين كانوا يوشكون على فقدانه، نعم سيدتي! أبمقدورك أن تتصوري «النكرة» ملتفتاً إلى هذا الطفل الصغير البائس ومنشداً إياه أبياتاً من عيون الشعر الياباني؟ لقد افتعل هذا الولد ذلك الحوار المنافي لطبائع الأشياء لأنه تعلق بالأمل في أنه سيعفيه من المسئولية عن حادث السادس عشر من أغسطس ذاك، نعم، سيدتي! لو أني كنت أعلم أنها سوف تأسر عقله طوال تلك السنوات لما تركته قط ينطلق في ذلك الصباح متشنج التصميم، شأن أبله ركبه الحمق، وسونكيه يقرقع خلفه! لقد كان أمراً وحشياً، نعم، سيدتي! لقد أتى «النكرة» الكثير من الموبقات والأعمال الوضيعة، وقد عقد حول رأسه عصابة توشيها رايته الصغيرة التي تحمل شمساً ناهضة من خدرها، وشعره المتدلى على ظهره مثل زهرة أقحوان في الصين ومنشوريا، لكن أشد الأعمال التي اقترفها وضاعة كان جر هذا الولد إلى تلك الانتفاضة الزائفة! لقد اتخذ الاحتياط المثير للسخرية والجلي والوضيع المتمثل في اصطحاب حفيد. . . . . معه لأنه حسب أن ذلك سيسهل عليه إقناع الناس بأنه كان حقاً على استعداد لقصف القصر بالقنابل. من المحتم رغم حداثة سن هذا الولد أنه فهم الأمر تماماً، ذلك أنه بينما كان «النكرة» والضباط في المصرف عاكفين على عملية استبدال الأسهم وقبل أن يحدث أي شيء داهمه الفزع حد الموت، فقفز من الشاحنة العسكرية تلك حيث طلب منه الانتظار وانطلق عدواً، ومن المحقق أنه قام بذلك وإلا لكان لقي حتفه بمجرد بدء تبادل إطلاق النار، فلم يقتل السائق فحسب، وإنما لقي جميع الجنود الذين ظلوا في تلك الشاحنة حتفهم، ربما بالرصاص! إن هذا الولد لم ينطلق عدواً بعد بدء تبادل النار، فقد راوده الشعور بأنه يستغل لإضفاء الصدق على الانتفاضة الزائفة بأسرها. كان ذلك هو الوقت الذي لاذ فيه بالهرب. خالجه الخوف في قرارة نفسه حول دم الخائن الذي يسري في عروقه، فراح يتساءل متى يؤثر ذلك الدم فيه. وحينما قيل له إنه بالفعل في طريقه إلى قصف القصر قرر أن المسئولية بكاملها هي مسئوليته، لأن الدم الذي يتدفق في بدنه أدى إلى نوعية التحرك الذي قلب تاريخ البلاد رأساً على عقب، والذي جعله يرغب في أن يعدو بعيداً كأقصى ما يستطيع حتى عن بدنه، نعم، سيدتي! حينما أطلقت النار على «النكرة» حتى الموت فيما هم يدفعون العربة الخشبية خارجين من المصرف، ربما كان هذا الولد هو الذي شعر بالارتياح أكثر من أي شخص آخر! فعندما انطلق بي رجال الشرطة الذين حملوا إلي النبأ بالسيارة إلى مسرح الجريمة في وقت متأخر من ذلك اليوم، كان ذلك

الصندوق الخشبي ذو العجلات الخشبية التي تشبه بكرات ضخمة منتصباً في بقعة طالها القصف إلى جوار المصرف وقد لطخه الدم وجثة «النكرة» المتصلبة ناتئة صانعة زاوية كقلم حبر ألصقه أحدهم في الصندوق. لكن هذا الولد لم يكن عاكفاً على الاهتمام بالجثة، وإنما أقعي في ظل شاحنة مع فريق الإنقاذ الذي حمل جثث الجنود بعيداً. وبين الحين والآخر يختلس نظرة عجلى باتجاه الصندوق محدقاً عبر الغسق، وما من أحد كانت لديه أدنى فكرة عن أنه ابن الرجل الصريع في ذلك الصندوق الخشبي! لقد خدع الجميع في ذلك اليوم، فريق الإنقاذ، الشرطة، الجنود، منذ ذلك الحين دأب على الخديعة دونما هوادة. لم أحدثه قط بكلمة عن الدم المتدفق في عروقه حتى الآن، فقد أفلح في الوصول إلى ذلك بنفسه، وشرع في التخوف منه من تلقاء ذاته. لم يكن «النكرة» أو هذا الولد جادين فيما يتعلق بقصف القصر بالقنابل. بل إن مجرد مداعبة الفكرة جعلهما يفزعان إلى حد أنهما شرعا في التعثر باحثين عن مخرج من الأمر. ليس هناك معنى للقدح في «النكرة» الآن بعد كل هذه السنين، لكني لازلت عاجزة عن فهم الكيفية التي وجد بها الوقاحة التي أبلغ بها شخصاً لم يستطع الحياة في أي مكان على هذه الجزر لا لشيء إلا لأنه كان من سلالة رجل اتهم بالخيانة العظمى، ونجح بالكاد في الحياة عبر البحار بأن أصبح منتمياً بالتبني لمناضل سياسي اشتراكي متطرف في وطنيته. في الوقت نفسه سنحقق ما حاوله أبوك وأخفق في إنجازه - الآن إن لم تكن تلك وقاحة فلست أدري ما هي! خاصة أنه لم يكن حتى جادا في الأمر، إنما كان يحاول فحسب انتزاع المال مني! في الوقت نفسه لم تكن لدي الطاقة لاكتشاف ما إذا كانت الأسهم قد بيعت من عدمه، إنما افترضت أنها لم تبع ولا تزال لها بعض القيمة وأننا سنحيا في بحبوحة من العيش عقب الحرب. لكن «النكرة» حرص على التيقن من أنني وهذا الولد سنعرف الشظف بعد الحرب، ثم يقول لي: **سنحقق ما حاوله أبوك وأخفق في إنجازه**. إلى هذا الحد كان دنيئاً وضيعاً، نعم، سيدتي! إن هذا الولد بالطبع وضيع ودنيء بالقدر ذاته، بل إنه يخشى أن قد يكون هناك أمبراطور في عالم يابان ما بعد الموت، وإذا ما قال له الأمبراطور هنالك ربما لا تكون قد تمردت على الأمبراطور في عالم الأحياء، إنما لذت بالهرب عن طريق الانتحار، الأمر الذي يعني أنك لم تكن من الرعايا الحقيقيين كذلك، فإن الروع يساوره بأنه لن يحير جواباً، ذلك هو السر في أنه لن ينتحر، إنما هو يحاول أن يلقي الأمر على كاهلي، وهو ما يبدو لي وقاحة بالغة ووضاعة كذلك، ألا تقولين بذلك إذا وضعت موضع الاعتبار أنني ابنة. . . . ! الآن لا يكاد الولد يستطيع انتظار الموت جراء السرطان، فيوم وساعة يلقى حتفه هما كل ما يستطيع التفكير

فيه، وذلك يدفعه إلى الاستثارة للحد الذي لا يمكنه معه الامتناع عن ترديد أغنية مرحة، أتعلمين لم؟ لأنه يراهن على أنه سيستطيع الهرب أخيراً ولن يصبح مسئولاً، نعم، سيدتي! أنت على حق أنت على حق تماماً! تهتف بها «القائمة بأعمال منفذ الوصية» التي لزمت الصمت لبعض الوقت. أتعلمين أنه جعلني أعد مراراً وتكراراً بأني سآخذ طفلنا وأتزوج من أمريكي حينما يموت! بل مضى وعثر على أمريكي ترك صفوف الجيش هارباً، وآويناه في الدار فترة طويلة كواحد من العائلة. وفي عدد من المرات تظاهر بالسكر وشرع في التصرف باهتياج محاولاً جعلي أقدم على إغواء الأمريكي، إنه يأمل في أنه إذا ما غدا طفله مواطناً أمريكياً فإن دمه هو سيتحرر من الأمبراطور وشبح اسم . . . . . . فجأة يصرخ بصوت يحاكي جرساً متصدعاً والنظارة الواقية تتقافز على قصبة أنفه: **إنني أعفيك من منصبك كقائمة بأعمال منفذ الوصية!** أصغى إليه وهو على هياجه وضيعاً ودنيئاً كعهده! يتناهى الصوت من وراء الجانب البعيد من فراشه. سأحمل الطفل عائدة إلى الغابة. تعالي معنا، أيتها العزيزة، لسوف نحيا معاً. في هذه المرة سأحدث الطفل يقيناً عن جد أبيه . . . . . إن عاجلاً أو آجلاً سيغير اليابانيون موقفهم مما حدث، وإني لأعتزم العيش حتى أرى ذلك، نعم، سيدتي! هذا هو الحلم، لا بد أن هذا هو الحلم. لقد خمنت الحلم الذي يجعلني أصرخ وأبكي! يصيح منخرطاً في البكاء متقلباً في فراشه. إنه الحلم حقاً. حينما كان طفلاً اعتاد أن يرى أحلاماً قاسية وأن ينتحب. لا يزال يحلم ويبكي بلا جدوى! الآن يتناهى الصوت المهدهد المسطح من وراء الجانب البعيد من الفراش مواسياً، ها هو الآن في الخامسة والثلاثين من عمره، يا له من شيء قاس! حينما كان طفلاً حلم بأن مدرس المدرسة الابتدائية يسأله: **إذا أمرك الأمبراطور أن تلقى حتفك فهل تموت؟** كان ينتحب، **يكرر الرد القاسي في رقاده نعم سأموت، سأموت سعيداً**. وها هوذا في الخامسة والثلاثين من عمره لا يزال ينتحب كما لو كان المدرس يطرح عليه السؤال ذاته، إنه لأمر قاس، نعم، سيدتي!».

- ٨ -

«يحكم وضع سماعتين جديدتين على أذنيه إلى جوار النظارة ذات الشريط اللدائني التي استمر كالمعتاد يضعها على عينيه، يعكف طوال اليوم على الإصغاء إلى تسجيل متكرر لغناء فيشر ـ دايسكو لمغناة باخ، يرفض كل محاولات الاتصال به من قبل الآخرين اللهم إلا تلك التي لا يسيطر عليها بوعيه من قبيل العلاج الطبي لجسمه. ويكف الشخص الذي أعفى من مهام منصبه كقائم بأعمال منفذ الوصية عن الوجود في وعيه. مع

ذلك فثمة أوقات يستأنف فيها سرده لـ «تاريخ العصر» كما لو كان المسجل الذي يردد بلا انتهاء مغناة باخ يمكن في الوقت نفسه أن يسجل ما يمليه، أو كما لو كان هناك ناسخ ينتظر إلى جوار فراشه، كذلك يروح يغني أغنيته المحببة «الأيام السعيدة» التي ما انفكت تتناهى إليه عبر السماعتين، ولو أنه كان ملماً باللغة الألمانية لتأثرت الكلمات التي يلفظها كذلك».

في الليلة التي اقتحم فيها مجنون ملتح يشبه إلى حد كبير «النكرة» حجرته بالمستشفى قذفه بماكينة تشذيب طاقتي الأنف من طراز روتكس، فقطع لحية المقتحم بشكل منتظم، الأمر الذي افترض أنه سيسمح له بتتبعه. لكن ذلك كان بالنسبة لشخص حاذق مثله أمراً يشي بالتسرع والإهمال، ذلك أن المقتحم الملتحي لم يكن مجنوناً وإنما مجنونة! من المحقق أنها قد ألقت باللحية المستعارة التي أجتز شعرها، ومع ضياعها ضاع المفتاح الوحيد للأمر إلى الأبد، كان بسرعة غير مألوفة قد انتهك حجب المجنونة ليرى من خلالها الرجل الملتحي في اللحظة ذاتها التي اكتشف فيها عبر أسلوب المخلوقة فيما هي تحادثه، ويا للغرابة، من أدنى الجانب البعيد من فراشه، ربما مقعية على الأرض، شيئاً مشابهاً رغم اختلاف الكلمات للصوت الذي صرخ به مزبداً في تلك الليلة: ما أنت بالله؟ ما أنت؟ ما أنت؟ من المحقق أنه ليخفف من غلواء العجوز التي كان جنونها جلياً للناظر في التجرد غير العادي من التعبير في وجهها البيضاوي الهضيم تحت شعرها الأشيب كان قد صرخ بها مثلما رد صارخاً على الرجل الملتحي: إنني سرطان، سرطان، سرطان الكبد ذاته هو أنا! وأنهى الأمر في التو.

«لا يمكن أن يكون لدى الطرف الآخر بعد تلقي الصراخ في وجهه الكثير مما يشكو منه، وإذا شئنا التنويع على بيت شعر يلقيه ممثل دراما إنجليزية «مثلما هناك وفرة في عالم الأحياء كذلك هناك وفرة في عالم الأموات» لقلنا على وجه اليقين إن الوفرة في عالم رجل السرطان قائمة بالفعل في هذا العالم وفي حالة جسده خاصة، حيث ينتشر السرطان بسرعة تفوق سرعة الصوت. وفي الحق أن وفرته هي وفرة السرطان! لا يخالجه شك في أن سرطانه الذي خلقه التعود قد انتشر بالفعل في غدده اللنفاوية وأغشيته المخاطية جميعاً أو أن خلايا السرطان تلك تغطي جسده طبقة فوق أخرى مثل خارطة طرق مليئة بالتفاصيل. من الناحية الأخرى، ناحية السرطان، ناحية الألم الذي يستشعره في الوقت الراهن قبل أن يكتمل تحوله إلى رجل سرطان فثمة على وجه اليقين لذة مساوية في المقدار، الشعور بالضغط على الأعضاء المجاورة الذي يعاني منه مع تضخم كبده ولو أنه أصبح الكبد ذاته لأثراه

دونما شك فرح وحيوية السرطان المنتشر. ويراوده الأمل بشكل ما في أن يتذوق قدراً مهماً كان ضئيلاً من تلك اللذة قبل أن يكمل تحوله إلى رجل سرطان.

دنا من لحظة الموت التي سيكتمل فيها تحوله أخيراً متحكماً في عينيه بالنظارة الأسطوانية ودافعاً السماعتين في أذنيه. تعرضت المادة الأكثر حيوية في جسده حتى هذه اللحظة، أي السرطان، مع مقدم الموت لتغير مراوغ عظيم الأهمية. فانداحت في حركة هادئة متولدة ذاتياً باتجاه التحلل والانحلال، حركة تحاكي الفقاعة الأولى من غاز الميتان في انبعاثها إلى سطح الماء، نذيراً بالتحلل. وفيما هو يستمتع بهذا الشعور في بؤرة بدنه ذاتها يظل يضرب ذراعيه الناحلتين وصدره، دونما هوادة وعلى أمل التيقن من وجود أقصى ما يستطيع أن يمس من الجلد في اللحظة القصيرة الباقية وأقصى ما دون ذلك من عضل ذاو. ما من شيء يمكن أن يهزه الآن بمثل هذا العمق أو يغذيه بمثل هذا الزخم قدر بهجة معايشة نذير تحلل جسده باعتباره الإحساس بالوجود ذاته، وبقدر ما يحس فإن مشاعره حتى الآن نحو السرطان الذي يسيطر على ما يزيد عن نصف جسده وروحه هي مشاعره تجاه أخ حقيقي. في اللحظة التي يتم فيها أخوه الحبيب مهمته الهائلة سيشرعان على نحو لا سبيل إلى مقاومته في التحلل معاً. سيبدأ السرطان البراق والمنتعش بالمقارنة بالجسد الذي أستخدمه طوال خمسة وثلاثين عاماً في التحلل في ميعة صباه. إنه يقر بأن محاولته لإعادة بناء حياته قد لقيت الهزيمة من خلال ظهور قناص غير منتظر، لكن ذلك لم يعد يضايقه، لأنه بالمساعدة المدمرة من جانب السرطان أزال اللحم الزائد الذي أثقل به جسده الحقيقي عبر السنوات الخمس والعشرين الماضية، وعاد قاطعاً الطريق إلى جسده في الثالثة من بعد ظهر السادس عشر من أغسطس ١٩٤٥. وفي غمار حديث هذه المرأة المجنونة المرهق بكامله كان الشيء الوحيد الذي يحمل أي مغزى هو أنه قد غدا من النحول بحيث استرد وجهه الذي كان له في صباه مع نهاية الحرب. ويرفع عقيرته بصوت حاد في تقليد لصوت ندي لفتى في مطلع العمر ويعكف على الغناء لنغن أغنية مرحة مرة أخرى، فالأيام السعيدة أقبلت من جديد! يتحول اللحن من خلال الموسيقى التي تتردد بلا توقف عبر السماعتين إلى لحن قريب من الصيحة القائلة باللغة الألمانية: «سيكفكف مخلص دمعي» إلى الصيحة المتوسلة التي فهمها على أنها تغني: سمو الأمبراطور يكفكف دمعي بيده، بل وفي بعض المرات وبدلاً من الأيام السعيدة أقبلت من جديد يغني: ألا أقبل أيها الموت! أنت يا أخا النعاس الشافي هلمّ! وقبل أن يمضي وقت طويل سيلتهم السرطان يقيناً الطبقات الخارجية التي لا طائل من ورائها للجسد والروح والتي أخفت جوهره الحق

منذ السادس عشر من أغسطس ١٩٤٥، سيهمس بصوت يخترق المسافة كلها من قرارة جسده إلى روحه: الآن إذن، هوذا أنت، ما من حاجة كانت تدعوك إلى أن تصبح أي شيء آخر غير هذا، لنغن أغنية مرحة مرة أخرى، فالأيام السعيدة أقبلت من جديد، في تلك اللحظة سينتشر أمامه ذلك الأصيل الصيفي الرائق في عام ١٩٤٥ باعتباره «آنا» مرناً حقاً يمكن اختيار شكله حيثما يحلو للمرء، قبل ثوان من إكماله تحوله إلى رجل سرطان سيلج منتشياً رحابة ذلك «الآن».

راح وسونكيه يقرقع إلى جانبه يزحف نحو الدرج الحجري عند مدخل المصرف حيث ينتظر «النكرة» وقد رقش الرصاص جسده ويد تمتشق حسامه عالياً والأخرى ممتدة لتعانقه وقد أطلقت عليه النار في ظهره ومضى يحتضر، عيناه مفعمتان بالدموع وبدمه لا تريان كل الأشياء في الواقع،لكن زهرة الأقحوان الهائلة التي فجرت ساطع الحمرة تضيء الظلمة وراء جفنيه المغمضين بإشراق يفوق اي نور قُدّر له أن يراه. ما عاد بعد على يقين مما إذا كان الشخص الذي ينتظره عند قمة الدرج الحجري هو «النكرة» لكنه إذا ما استطاع أن يزحف متراً واحداً آخر محتفراً الأرض الحارة بيديه اللتين هشمتهما الطلقات فسوف يبلغ قدمي الشخص الذي ينتظره على نحو لا سبيل إلى الخطأ فيه كائناً من كان، ولسوف يكفكف دمعه ودمه.

«يعمد طبيب واسع الحيلة أثار ضيقه رفضه إزالة السماعتين عن أذنيه إلى ايصال مكبر صوت بشريط التسجيل وايصال السماعتين بناقل للصوت، يشرع في الحديث من خلالهما: لقد حان الوقت الذي يجب أن نبدأ فيه التزام الأمانة أحدنا مع الآخر فيما يتعلق بحالتك المرضية، يجب أن تتفهم وأن تتعاون. إن حالتك... بعد أن قطع الاتصال سريعاً بوعيه غدا أصم في مواجهة المزيد من الازعاج من العالم الخارجي. لاهثاً وبالصوت الحاد لصبي في العاشرة على شفا الموت ومحرفاً اللحن بأكثر من شكل واصل الغناء: لنغن أغنية مرحة مرة أخرى، فالأيام السعيدة أقبلت من جديد!».

الجزاء

كنت عاكفاً مع أخي الصغير بقطعتين من الخشب على حفر الأرض الهشة التي تفوح برائحة الشحم والرماد عند سطح المحرقة، المحرقة المؤقتة في الوادي التي لم تكن تتجاوز قطعة أرض مسطحة أزيلت منها الأشجار الصغيرة النامية. وكان قرار الوادي قد تلفع فعلاً بعباءة الغسق والضباب الباردة برودة ماء النبع الذي يتدفق في الغابة، لكن جانب التل الذي نقطنه، القرية الصغيرة الملتفة حول الطريق الحجري، كانت تستحم في ضياء له لون النبيذ. انتصبت واقفاً من جثوتي، تثاءبت في وهن وقد فغرت فمي، انبعث أخي واقفاً كذلك، تثاءب هوناً، وابتسم لي.

توقفنا عن «الجمع» وألقينا بعصاتينا إلى الشجيرات الصيفية الكثيفة النامية، وارتقينا الدرب الضيق جنباً إلى جنب. كنا قد جئنا إلى المحرقة بحثاً عن البقايا، العظام البديعة الشكل التي يمكننا استخدامها كأوسمة تزين بها صدورنا، لكن أطفال القرية كانوا قد جمعوها كلها، فعدنا خاويي الوفاض. سيتعين عليّ أن أنتزع بعضها من أحد أصدقائي بالمدرسة الابتدائية. تذكرت أنني أطللت قبل يومين من بين حصور الكبار الذين تجمعوا متجهمين حول قطعة الأرض هذه على جثة إحدى نساء القرية، وقد تمددت على ظهرها، فيما تضخم بطنها العاري مثل تل صغير، والتعبير المرتسم على محياها مفعم بالحزن في ضوء المشاعل. أحسست بالخوف، فأمسكت بذراع أخي الناحل، وانطلقت مسرعاً، وبدت رائحة الجثة، شأن السائل الدبق الذي ينسرب من أنواع معينة من الخنفساء حينما نعتصرها بأصابعنا المتصلبة، وكأنها تنبعث حية في طاقتي أنفي.

كانت قريتنا قد اضطرت إلى البدء في إحراق الجثث في العراء مع امتداد الموسم

المطير، فقد هطلت أمطار صدر الصيف بعناد حتى غدت الفيضانات أحداثاً تقع كل يوم. جينما سحق انهيار في الصخور الجسر المعلق الذي كان أقصر طريق إلى المدينة أغلق ملحق المدرسة الابتدائية بقريتنا، توقف تسليم البريد، وعمد الكبار في القرية حينما تكون الرحلة أمراً لا مجال لتجنبه إلى الوصول للمدينة عن طريق اجتياز طريق ضيق ملتو على امتداد السلسلة الجبلية المترامية بينهما، لم يكن ثمة موضع لنقل الموتى لإحراق جثثهم في المدينة.

لكن انقطاع قريتنا العتيقة المؤلفة من دور يعكف أصحابها على أنفسهم دون مبالاة بما نالوه من تقدم لم يسبب كبير ضيق لها، فما كنا نلقى معاملة الحيوانات القذرة في المدينة فحسب، وإنما كان كل ما نطلبه في حياتنا اليومية متراكماً في المجمعات السكنية والتجارية الصغيرة المنتشرة على المنحدر المطل على الوادي الضيق، فضلاً عن هذا فقد كنا في بداية الصيف، وسرَّ الأطفال إغلاقُ المدرسة.

كان هارليب يقف عند مدخل القرية، حيث يبدأ الطريق المرصوف بالأحجار الصغيرة وهو يضم إلى صدره جرواً. انطلقت عدواً وإحدى يدي فوق كتف أخي عبر الظل المعتم الذي تلقيه شجرة الجنكة الهائلة لأحدق في الجرو الذي يحتضنه هارليب.

هز هارليب الجرو، جعله يزمجر، قال:

ـ انظرا! تطلّعا إليه!

كانت الذراعان اللتان مدّهما هارليب نحوي مكسوتين بعضّات يتخللها دم وشعر الجرو، وبرزت العضّات كذلك كزهور لم تتفتح على صدره وعنقه الغليظ.

قال متعاظماً: انظرا!

قلت منقبض الصدر دهشة وأسى:

ـ وعدتني بمطاردة الجراء الجبلية معي ومضيت وحدك!

قال مسرعاً:

ـ بحثت عنك، لم أعثر عليك. . .

ـ لقد عضك حقاً!

قلتها ومسست الجرو بأصابعي، فتوهجت عيناه غضباً كعيني ذئب، وانتفخت طاقتا أنفه. وتساءلت:

- هل زحفت متسللاً إلى الوجر؟

قال مفاخراً:

- لففت حزاماً جلدياً حول عنقي حتى لا يمسك بزوري.

تراءى أمامي هارليب بوضوح في سفح التل المتقد الحمرة المتشح بالغسق خارجاً من الوجر المؤلف من العشب الذاوي وأغصان الشجيرات، وحزام جلدي يلتف حول عنقه، والجرو في يديه، بينما كلب جبلي يعمل أنيابه فيه عضاً.

قال والثقة تتردد قوية في صوته:

- طالما أنها لا تطبق على زورك فكل شيء على ما يرام، وقد انتظرت حتى لم يعد في الداخل إلا الجراء.

قال أخي منفعلاً:

- لقد رأيتها تجري عبر الوادي، خمسة كلاب.

- متى؟

- بعد الظهر.

- لقد انطلقت بعد ذلك.

قلت مجرداً صوتي من الحسد:

- لونه أشهب بالتأكيد.

- أمه اقترنت بذئب.

كانت نغمة صوت هارليب شهوانية، لكنها واقعيه للغاية.

تحدث أخي، وكأنه غارق في حلم:

- أتقسم على ذلك؟

قال هارليب مؤكداً ثقته:

- تعوّد عليّ الآن، ولن يعود إلى أصدقائه.

التزمت وأخي الصمت.

وضع هارليب الجرو على الطريق الحجري، أطلق سراحه.

- راقبا! انظرا!

لكننا بدلاً من خفض بصرينا إلى الجرو تطلعنا إلى السماء فوق الوادي الضيق.

كانت طائرة ضخمة على نحو لا سبيل إلى تصديقه تعبر السماء بسرعة مخيفة، وحوّل الهدير الهواء إلى موجات أغرقتنا لبرهة قصيرة. وشأن حشرات سقطت في الزيت عجزنا عن الحركة في غمار الصوت.

صرخ هارليب:

- إنها طائرة معادية، العدو هنا!

حدقنا في السماء، صحنا حتى تحشرجت أصواتنا:

- طائرة معادية...

ولكن فيما عدا السحب المتألقة على نحو معتم في الشمس الغاربة كانت السماء خالية. التفتنا إلى جرو هارليب في اللحظة عينها التي كان فيها ينبح على الطريق المكسو بالحصى بعيداً عنا، وجسمه يتراقص، ألقى بنفسه وسط الشجيرات النامية على امتداد الطريق، سرعان ما اختفى. وقف هارليب هنالك مصعوقاً وقد تأهب جسمه للمطاردة. انبعثت وأخي ضاحكين حتى غلى دمنا مثل خمر على النار.

رغم حزن هارليب إلا أنه أضطر للضحك بدوره.

تركناه، وانطلقنا عدواً إلى المخزن المتربص في الغسق مثل حيوان عملاق. وفي العتمة بالداخل كان أبي يعدّ عشاءنا على الأرض المتربة.

هتف أخي بأبي الذي كان يولينا ظهره:

- شاهدنا طائرة! طائرة معادية كبيرة وضخمة!

غمغم أبي دون أن يلتفت إلينا. ورفعت بندقية صيده الثقيلة من الحامل على الحائط معتزماً تنظيفها، ارتقيت الدرج جنباً إلى جنب مع أخي.

قلت:

- أمر سيىء ما جرى لذلك الكلب.

قال أخي:

- وتلك الطائرة أيضاً.

كنا نقطن الطابق الثاني للمخزن التعاوني في منتصف القرية، وفي الغرفة الصغيرة التي كانت تستخدم يوماً لتربية ديدان القز، عندما تمدد أبي على الحشايا المصنوعة من القش وأغطيته الممتدة على الأرضية المؤلفة من ألواح خشبية غليظة كان الفساد قد بدأ

يدب إليها، رقدت وأخي على الباب العتيق الذي جعلناه مرقدنا، والذي شغلته قبلنا أعداد لا حصر لها من دود القز تركت لطخاً على الجدران الورقية لا تزال تفوح برائحتها وقضمات من ورق التوت الملتصقة بالعروق في السقف، الذي تراءت لنا عبره حشور من البشر متزاحمة حتى الاكتظاظ.

لم يكن لدينا أثاث على الاطلاق، كان هناك البريق الكئيب المنبعث عن بندقية أبي، الصادر لا عن ماسورتها فحسب وإنما عن مقبضها كذلك، كأنما كان الخشب المدهون بالزيت صلباً كذلك يؤلم كفك إذا لطمته بها. ولتحديد اتجاه ما في مسكننا البائس كانت هناك جلود أبناء عرس غير مدبوغة ومدلاة في مجموعات من العروق الخشبية العارية. وكان هناك العديد من الفخاخ؛ إذ كان أبي يكسب ما يقيم أودنا من صيد الأرانب والطيور وكذلك الخنازير البرية في الشتاء حينما يتراكم الجليد وصيد أبناء عرس بالفخاخ وتسليم جلودها غير المدبوغة إلى مكتب الصيد بالمدينة.

وفيما كنت عاكفاً مع أخي على تلميع مقبض البندقية بخرقة مبللة بالزيت رحنا نحدق عبر الشقوق فيما بين الألواح الخشبية نحو السماء المظلمة في الخارج، كأنما يمكن أن ينقض هدير طائرة هابطاً من هناك كرة أخرى، لكنه كان من النادر أن تعبر طائرة سماء القرية. وعندما أعدت البندقية من جديد إلى الحامل على الحائط أوينا إلى مرقدنا متكومين معاً وانتظرنا، وخواء أمعائنا يهددنا، مقدم أبي حاملاً وعاء الأرز والخضر عبر الدرج.

كنت وأخي بذرتين غرستا عميقاً في لحم غليظ وجلد خارجي خشن، بذرتان خضراوان غضتان رقيقتان يغلفهما غشاء يرتجف ويتسلخ لدى أول تعرض للضوء. وخارج الجلد الخارجي الخشن قرب البحر الذي لاح مرئياً من فوق الأسطح شريطاً ناحلاً متألقاً في البعيد في المدينة وراء الجبال المتشامخة المنسابة مترامية الأطراف، كانت الحرب مهيبة ومفزعة كأسطورة عاشت عبر القرون تستحر نافثة هواءً فاسداً، لكنها لم تكن بالنسبة لنا إلا غياب الشباب عن قريتنا والبيانات التي كان ساعي البريد يسلمها في بعض الأحيان عن جنود قتلوا في المعارك. لم تتخلل الحرب الجلد الخارجي السميك ولا تغلغلت في اللحم الغليظ، حتى الطائرات «المعادية» التي شرعت مؤخراً تعبر السماء فوق القرية لم تكن بالنسبة لنا إلا نوعاً نادراً من الطيور.

أيقظتني قرب الفجر ضجة ارتطام هائل ودوي مروع في الأرض. شاهدت أبي ينهض مقتعداً غطاء فراشه فوق الأرض شأن وحش يتربص في ليل الغابة ويوشك أن ينقضّ

على فريسته وتتألق عيناه بالرغبة ويرتجف بدنه بالتوتر. ولكنه بدلاً من أن يثب تهالك على الأرض، وبدا كما لو كان قد غرق في النوم من جديد.

انتظرت طويلاً مرهف السمع، لكن ذلك الدوي لم يتردد مرة أخرى. ورحت أتنسم في هدوء الهواء الرطب الذي يضوع برائحة الفطر والحيوانات الصغيرة، وانتظرت صابراً في ضوء القمر الشاحب الزاحف عالياً في السماء فوق سطح المخزن. انقضى وقت طويل شرع أخي الذي كان غارقاً في النوم وجبينه الذي يغلله العرق يضغط جانبي ـ في التململ كان ينتظر بدوره أن ترتجف الأرض وتدوي من جديد، وكان الانتظار المتطاول أثقل مما يستطيع احتماله، وأرحت كفي على عنقه الرقيق كنبتة رشيقة، رحت أهدهده في خفة، استرخى على وقع حركة ذراعي الهادئة، فاستكان في رحاب النعاس.

حينما أستيقظت من نومي كان نور الصباح ينهل وافراً من شقوق ألواح الجدران الخشبية جميعاً والجو غدا بالفعل حاراً. كان أبي قد غادر الكوخ، واختفت بندقيته من مكانها على الحائط. هززت أخي، فأيقظته، وانطلقت دونما قميص إلى الطريق الحجري. كان الطريق والدرج الحجري يسبحان في فيض من نور الصباح. وقف الأطفال بأعين نصف مغمضة في وهج الشمس شاردين، أو متلمسين مواضع البراغيث في شعر الجراء، أو منغمسين في الجري هنا وهناك، لكن الكبار لم يكن لهم وجود. مضيت وأخي إلى سقيفة الجدار تحت شجرة القراص المخضرة. في الظلمة داخل السقيفة لم تكن ألسنة اللهب تمتد من النار المتقدة بالفحم على الأرض المتربة، لم يكن الكير يفح ولا الحداد يرفع الصلب المتوهج محمراً بذراعيه العجفاوين اللتين لوحتهما الشمس، وكان الصبح ينشر أجنحته، والحداد ليس في حانوته... لم يسبق لنا أن رأينا ذلك يحدث قط. وعدت مع أخي جنباً إلى جنب على الطريق الحجري في صمت. خلت القرية من الكبار، ربما كانت النسوة في الانتظار في قرار دورهن المعتمة، وحدهم الأطفال أنطلقوا يسبحون في فيض من سنا الشمس، فأطبق القلق جاثماً على صدري.

لمحنا هارليب حيث استرخى على الدرج الحجري الممتد حتى سبيل القرية، فأقبل مسرعاً ملوحاً بذراعيه، كان يبذل جهداً كبيراً في ادعاء الأهمية، حتى تناثر لعاب دبق من شفتيه المفتوحتين.

ـ أنتما! هل سمعتما بالأمر؟

صاح بنا لاطماً كتفي:

ـ هل سمعتما؟
قلت بصورة غامضة :ـ سمعنا؟

ـ طيارة الأمس تلك ارتطمت البارحة، فسقطت في التلال، وهم يبحثون عن جنود العدو الذين كانوا فيها، مضى الكبار جميعاً يبحثون في التلال عنهم ومعهم بنادقهم!

ـ هل سيطلقون النار على جنود العدو؟
تساءل أخي بصوت حاد.

أوضح هارليب الأمر مضطراً:

ـ لن يطلقوا النار؛ فليس لديهم الكثير من الذخيرة، وهدفهم الإمساك بهم!

قلت:

ـ ما الذي وقع للطائرة في رأيك؟
توهجت عينا هارليب وهو يسارع بالقول:

ـ ارتطمت بأشجار التنوب، وتهاوت متداعية، لقد رآها ساعي البريد، لعلك تعرف هذه الأشجار.

كنت أعرفها، فأزهار التنوب شأن أعناق النجيل تزدهر في تلك الغابات في هذا الوقت من العام، وفي نهاية الصيف تتكون أكواز التنوب مثل بيض الطيور البرية، تحل محل شواشي النجيل، فنجمعها لاستخدامها أسلحة لنا. عند الغسق إذن، أو في السحر ستطلق الطلقات البنية القاتمة على جدران المخزن فينبعث دويها الخشن المفاجىء...

ـ أقصد هل تعرف الغابات.
ـ بالتأكيد، هل تريد الذهاب؟

ارتسمت بسمة ماكرة على شفتي هارليب، وتشكلت تجاعيد لا حصر لها حول عينيه، حدجني في صمت، فأحسست بالضيق.

قلت محدقاً فيه بنظرة متوهجة:

ـ إذا كنا سنذهب فعليّ ارتداء قميصي، ولا تحاول الانطلاق قبلي لأني سألحق بك تواً!

تحول وجهه كله إلى بسمة متكلفة، أوغل الشعور بالرضا راحلاً في صوته:

ـ لن يذهب أحد، فقد حظر على الأولاد الذهاب إلى التلال، سيحسبونك خطأ من جنود

الأعداء ويطلقون عليك النار!

تهدل رأسي، رحت أحدق في قدمي الحافيتين على الأحجار المتقدة في شمس الضحى، في الأصابع القصيرة الضخمة. ونزت من بدني خيبة الأمل كأنها النسغ في شجرة، جعلت جلدي يتوهج حاراً، مثلما أحشاء دجاجة ذبحت لتوها.

قال أخي:

ـ كيف يبدو العدو في اعتقادكم؟

تركت هارليب، عدت عبر الطريق الحجري، وذراعي حول كتف أخي، كيف يبدو العدو؟ في أي المواقع يتربص في الحقول والغابات؟ كان بمقدوري الشعور بالجنود الأجانب مختبئين في كل الحقول والغابات التي تحيط بالوادي وصوت تنفسهم المكتوم يوشك على الانفجار متحولاً إلى زئير، وجلدهم المغلل بالعرق ورائحة أجسادهم الفظة تغطي الوادي كالبهار.

قال أخي بصوت حالم:

ـ آمل ألا يلقوا حتفهم، آمل أن يمسكوا بهم ويحضروهم إلى القرية.

كنا جائعين تحت فيض الشمس، وقد جف ريقنا وتقبضت عضلات معدتينا. ربما يحل الغروب قبل عودة أبي، لسوف يتعين علينا أن نجد طعاماً لنا. مضينا إلى خلف المخزن، إلى البئر ذات الدلو المكسور، وشربنا مستندين بأيدينا إلى الأحجار الباردة المبللة الناتئة للحائط الداخلي كأنها بطن خادرة منتفخة. عندما جلبنا الماء للوعاء الحديدي المسطح وأوقدنا النار ودسسنا أذرعتنا في التبن المكوم في مؤخرة المخزن، اختلسنا بعض حبات البطاطس. فيما كنا نغسلها أحسسنا بها في أيدينا صلبة كالحجارة.

كانت الوجبة التي شرعنا في التهامها، عقب جهودنا التي لم تستغرق طويلاً، بسيطة غير أنها وفيرة في الوقت ذاته. أمعن أخي التفكير هنيهة، وهو عاكف على نهش حبة البطاطس التي أمسكها بيديه مثل حيوان مغتبط، ثم قال:

ـ أتظن الجنود تسلقوا أشجار التنوب؟ لقد رأيت سنجاباً على فرع شجرة تنوب؟

قلت:

ـ سيكون من اليسير الاختفاء بها لأنها مزدهرة.

قال أخي مبتسماً:

- كذلك السنجاب اختبأ على الفور بدوره.

تصورت أشجار التنوب تغطيها البراعم مثلما شواشي النجيل، والجنود الأجانب جاثمين في أعلى الفروع يرقبون أبي والآخرين من خلال الأوراق الخضراء المنتصبة كالأبر، لسوف يبدون وبراعم التنوب ملتصقة بأردية طيرانهم الفضفاضة مثل سناجب بدينة متأهبة للبيات الشتوي.

قال أخي بلهجة الواثق مما يقول:
- حتى إذا كانوا مختبئين في الأشجار فإن الكلاب ستعثر عليهم وتنبح.

عندما امتلأنا تركنا الوعاء على الأرض المتربة، وبه البطاطس الباقية وملء قبضة من الملح، واقتعدنا الدرج الحجري عند مدخل المخزن، جلسنا طويلاً يراودنا النعاس، وعند الأصيل مضينا لنستحم في النبع الذي يغذي سبيل القرية.

عند النبع كان هارليب متمدداً، وقد بسط ذراعيه وساقيه على أعرض الأحجار وأنعمها، وسمح للبنات الصغيرات في مثل عمرنا بأن يداعبن قضيبه المتورد، كما لو كان عروساً صغيرة. بين الحين والآخر، وبوجه محمر كالبنجر، وضاحكاً بصوت حاد كطير صارخ، كان يلطم إحدى البنات على مؤخرتها العارية بكفه.

جلس أخي إلى جوار هارليب، مضى منتشياً يرقب هذا الطقس المرح، أما أنا فنثرت الماء على الأطفال قبيحي الهيئة الذين كانوا يستمتعون بالشمس ناعسين حول النبع. ارتديت قميصي دون أن أجفف نفسي، وعدت إلى الدرج الحجري عند مدخل المخزن مخلفاً آثار أقدامي المبللة على الطريق الحجري. جلست هنالك دون حراك وقتاً طويلاً محتضناً ركبتي بين ذراعي. وراح ترقب كالجنون يهدر صاعداً هابطاً محاكياً شعوراً حاراً بالخمار تحت جلدي، ومضيت أتصور نفسي حالما مستغرقاً في اللعبة الغريبة التي بدا هارليب مرتبطاً بها على نحو غير مألوف. لكن حينما ابتسمت البنات وسط الأولاد العائدين من النبع في خفر لي، وإعجازهن تتأرجح مع كل خطوة يسرنها ويطل لون غير مستقر يحاكي ثمار الخوخ المهروسة من طيات مهابلهن الهزيلة العارية، أمطرتهن بالحصى والسباب وجعلتهن ينكمش خوفاً وفزعاً.

مكثت في موضعي ذاته حتى غمرت الوادي شمس تلتف بالحمرة، وسحابات في لون حريق الغابة تتدحرج في السماء، لكن الكبار واصلوا الغياب. فأحسست بأني سأجن انتظاراً.

علا الشحوب المغيب ،وهبّت ريح باردة الملمس يطيب لجلد احترق لتوه أن يستشعر وقعها من الوادي. ومسّت مطالع ظلمة الليل الأولى ظلال الأشياء ، وعاد الكبار والكلاب النابحة أخيراً إلى القرية القابعة في رحاب الصمت ، والتي مس عقلها الانتظار المؤرق. انطلقت عدواً مع الصبية الآخرين للترحيب بمقدمهم ، فرأيت زنجياً وافر البدن يتحلقه الكبار ، فداخلني الخوف مثلما تصيب المرء لطمة.

أقبل الكبار على القرية متحلقين «الطريدة» مثلما تحلقوا الخنزير البري الذي اصطادوه في الشتاء ، وقد أطبقوا شفاههم في حزم على أسنانهم ، وانحنت أكتافهم حتى أوشكت أن تشي الحزن. لم يكن «الطريدة» يرتدي رداء الطيران الحريري المحروق الحمرة أو ينتعل حذاء الطيران الجلدي الأسود ، وإنما يرتدي سترة وسراويل كاكية ، وينتعل حذاء طويلاً قبيحاً بادي الثقل. كان وجهه المتألق السواد مشرعاً نحو السماء التي لا يزال النور يخضبها. وتعثر في مشيته وهو يجر نفسه ويدفعها للسير قدماً. وكانت سلسلة شرك الخنازير محكمة القيد حول عقبيه كليهما ، تصدر صليلاً فيما هو يواصل المسير. وسرنا نحن معشر الأطفال وراء الكبار ملتزمين الصمت الذي يلفهم ، وتقدم الركب وئيداً نحو الميدان أمام المدرسة ، توقف في هدوء ، شققت طريقي وسط الأطفال إلى المقدمة ، لكن عمدة قريتنا العجوز نهرنا بصوت عال ، فتراجعنا حتى أشجار المشمش في ركن الميدان. وقفنا هنالك عاقدين العزم على ألا نتراجع أكثر من ذلك ، واصلنا من تحت الأشجار التحديق عبر العتمة في جمع الكبار. وفي الدور المبنية من الطوب اللبن والمطلة على الميدان أقعت النسوة ملتفات بمآزرهن مرهفات السمع في اهتياج لغمغمة الرجال العائدين من المطاردة الخطرة لـ «الطريدة». وكزني هارليب حدة في أحد جنبيّ من الخلف ، اجتذبني بعيداً عن الأطفال الآخرين إلى الظل العميق لشجرة الكافور.

ارتعد صوته لفرط الانفعال وهو يقول:

ـ إنه زنجي ، أترى! ظننته جندياً عادياً ، إنه زنجي حقيقي ، آنظر!

ـ ماذا سيصنعون به ، أيطلقون عليه النار؟

صاح لاهثاً من وقع المفاجأة.

ـ يطلقون عليه النار ، يطلقونها على زنجي حقيقي حي!

قلت مؤكداً دون أن يراودني اليقين:

ـ يطلقونها عليه لأنه عدو.

أمسك بتلابيب قميصي ، صاح بي في صوت أجش نائراً رذاذ لعابه على وجهي:

- عدو! أتسميه عدواً! إنه زنجي، وليس عدواً!

انبعث صوت أخي المذهول وسط جمع الصبية:

- انظر! شف هذا! انظر!

استدرت وهارليب، حدقنا نحو الجندي الزنجي الواقف على مقربة من الكبار، رحنا نرقبه في ذعر؛ فقد تهدل كتفاه ومضى يتبول. كان جسمه قد بدأ يذوب في ظلمة المساء الكثيفة مخلفاً وراء السترة والسراويل الكاكية التي كانت تحاكي بشكل ما رداء سابغاً، ومال برأسه جانباً وواصل التبول، وحينما تصاعدت سحابة من صيحات الدهشة من الأطفال الذين يرقبونه من خلفه اهتزت إليتاه على نحو بائس.

تحلق الكبار الزنجي من جديد، اقتادوه على مهل بعيداً، فتتبعناهم لمسافة قصيرة. توقف الموكب الصامت المحيط بـ «الطريدة» أمام مدخل التحميل عند أحد جوانب المخزن. هناك تثاءب، منفتحاً عن سواد كأنه وجر تسكنه الوحوش، هو الدرج المفضي إلى القبو حيث تحفظ حبات كستناء الخريف على امتداد الشتاء عقب قتل الدويدات الكامنة تحت قشرتها الخشنة بالديسالفيد الكربوني. هبط الكبار وما زالوا على تحلقهم للزنجي إلى القبو في وقار كأنما يوشك طقس على البدء، أغلقت دفعة من الذراع الأبيض لأحدهم الباب المسحور الثقيل من الداخل.

أرهفنا أسماعنا لالتقاط صوت يندّ عن الراحل، رحنا نرقب ضوءاً برتقالياً يدلف داخل الكوة الطويلة الضيقة التي تصل بين القبو وسطح الأرض. لم نستطع استجماع الشجاعة التي تمكننا من التلصص عبرها. استنفد الانتظار القصير القلق قوانا. لم يتناه إلينا دوي طلقة، وإنما لاح محيا العمدة الغارق في الظلال وراء انفراج الباب المسحور، نهرنا، فاضطررنا للكف حتى عن الأطلال من الكوة. انطلق الأطفال حاملين معهم توقعات ستملأ ساعات الليل بالكوابيس على الطريق الحجري دون أن تند عنهم كلمة استياء واحدة، والخوف الذي أيقظه وقع أقدامهم يزحف وراءهم مطارداً.

تركت مع أخي هارليب مترصداً في ظلمة أشجار المشمش، وقد عقد العزم على رصد الكبار و «الطريدة» وذهبنا إلى مقدمة المخزن. صعدنا الدرج مستندين إلى الحاجز الدائم الرطوبة إلى عليّتنا. قدر لنا أن نحيا في الدار ذاتها التي يقطن بها «الطريدة» هكذا كان الأمر! عجزنا عن التقاط صوت صراخ في القبو رغم ارهافنا السمع في العلية. لكن الحقيقة الهائلة المفعمة بالخطر، والتي لا مجال قط لتصديقها، تمثلت في أننا نجلس فوق

مرقد يعلو القبو الذي اقتيد الجندي الزنجي إليه. اصطكت أسناني خوفاً ومرحاً، كان أخي المتكوم تحت الغطاء يرتعد كما لو كانت نوبة برد قد أصابته فيما كنا ننتظر مقدم أبي للدار مجتراً إرهاقه وحاملاً بندقيته الثقيلة. ورحنا نبتسم معاً للحظ العجيب الرائع الذي أصابنا. كنا قد شرعنا في تناول حبات البطاطس الباردة الصلبة التي تعلوها قطرات المياه، والتي بقيت من وجبتنا السابقة، لا لنتغلب على جوعنا وإنما لنشغل أنفسنا عن الضجيج العاصف في صدرينا برفع أذرعنا وخفضها والإمعان في المضغ حينما صعد إبي الدرج. وراقبته مع أخي وقد أخذتنا الرعدة، وهو يضع البندقية على الحامل الخشبي على الجدار ويتهالك على الغطاء المفروش على الأرض لكنه لم يفه ببنت شفه، اكتفى بالتطلع إلى وعاء البطاطس الذي كنا عاكفين عليه. بوسعي القول بأنه كان مرهقاً حتى الموت، وقد أخذ الضيق منه كل مأخذ، لم يكن ثمة ما يمكن لنا كأطفال أن نفعله إزاء هذا.

قال محدقاً فيّ وجلد زوره ينتفخ كالجوال تحت لحيته:

- هل نفد الأرز؟

قلت بصوت واهن:

- نعم.

زمجر متضايقاً:

- الشعير أيضاً؟

قلت غاضباً:

- ليس هناك شيء!

قال أخي على استحياء:

- ماذا عن أمر الطائرة؟ ما الذي حدث لها؟

- احترقت. كادت أن تشعل النار في الغابة.

ندت تنهيدة عن أخي وهو يتساءل:

- كلها؟

- لم يبق إلا الذيل.

غمغم أخي:

- الذيل...

تساءلت:

- هل كان هناك آخرون؟ أكان يطير وحده؟

ـ قتل جنديان آخران، أما هو فقد هبط بالمظلة.

ـ مظلة..

قالها أخي غارقاً في حلم، استجمعت أطراف شجاعتي:

ـ ماذا ستفعلون به؟

ـ نحتفظ به إلى أن نعلم برأي المدينة في أمره في قفص القبو؟

ـ تحتفظون به في قفص؟مثل حيوان بري؟

قال أبي جاداً:

ـ إنه كالحيوان، وتفوح منه رائحة الثور الكريهة.

ـ سيكون من الجميل أن نراه.

قالها أخي وهو يرمق أبي من طرف عينه، لكن أبي هبط الدرج ملتزماً صمتاً جهماً.

اقتعدنا الإطار الخشبي لمرقدنا في انتظار عودة أبي بما يقترضه من أرز وخضر ليطهو لنا ملء وعاء من العصيدة الحارة. كنا أكثر إرهاقاً من أن نشعر حقاً بالجوع، وكان جلد جسمنا كله ينتفض ويتقافز مثل ذكر كلب في حميا التسافد، لسوف نحتفظ بالجندي الزنجي. وضعت ذراعي حول ساقي، أردت أن ألقي بملابسي وأهتف ـ لسوف نحتفظ بالجندي الزنجي كالحيوان!

صباح اليوم التالي هزني أبي فأيقظني دون أن يتلفظ بكلمة. كان الفجر يبزغ لتوه، أنسل ضوء غليظ وضباب ثقيل من شقوق ألواح الجدران جميعاً، تمالكت حواسي فيما كنت ألتهم إفطاري البارد. راح أبي، وبندقية صيده معلقة على كتفه وسلة غذائه مربوطة إلى خصره، يرمقني فيما كنت أتناول طعامي منتظراً فراغي منه، وقد بدت صفرة كثيبة في عينيه، إذ لم ينل كفايته من النوم. عندما رأيت حزمة جلود أبناء عرس ملفوفة في جوال بال عند ركبته أوشكت أن أغص بريقي، وحدثت نفسي بأننا ذاهبان إلى المدينة، يقيناً أننا سنبلغ السلطات بوجود الزنجي.

هدأت دوامة من الكلمات في حلقي السرعة التي كان بمقدوري تناول الطعام بها لكني رأيت فك أبي الأسفل القوي الذي تكسوه لحية خشنة يتحرك دونما توقف كأنما يمضغ بعض الحبوب، فعلمت أنه عصبي المزاج وأن الضيق قد بلغ منه لقلة نومه. كان السؤال عن الجندي الزنجي مستحيلاً، إذ كان أبي قد حشا بندقيته عقب العشاء بطلقات جديدة ومضى للحراسة ليلاً.

كان أخي يرقد وقد دفن رأسه تحت غطاء تفوح منه رائحة القش الرطب، حينما أنتهيت من طعامي تحركت في الغرفة على أطراف أصابعي حريصاً على عدم إيقاظه، أرتديت قميصاً أخضر غليظ القماش فوق كتفيّ العاريتين، ودسست قدمي في الحذاء القماشي الذي لا أستخدمه عادة. رفعت الحزمة المستكنة بين ركبتي أبي على كاهلي، وأسرعت هابطاً الدرج.

انداح ضباب خفيض فوق الطريق الحجري المبلل مباشرة. كانت القرية التي لفها الغمام تغط في نومها، وحل الإعياء بالدجاج فلزم الصمت، حتى الكلاب لم تنبح. لمحت أحد الكبار يحمل بندقية مستنداً إلى جذع شجرة المشمش أمام المخزن ورأسه يتهاوى تحت وطأة النوم. وتبادل أبي والحارس كلمات قلائل بأصوات خفيضة. اختلست نظرة إلى كوة القبو المتثائبة المنفتحة على الظلمة كأنها جرح، فأحكم خوف رهيب قبضته علي، فالجندي الزنجي يمد يده عبر الكوة ليمسك بي. أردت مغادرة القرية سريعاً. وعندما شرعنا في السير صامتين على أحجار الطريق تخللت الشمس طيات الضباب، ولسعتنا بشعاع حار خشن.

لكي نصل إلى طريق القرية الممتد على سلسلة الجبال انطلقنا صعداً في الممر الضيق ذي الأرضية الحمراء إلى غابة التنوب، حيث عدنا من جديد إلى قرار ظلمة الليل انحدر علينا الضباب الذي أفعم فمي بطعم معدني قطرات كبيرة كالمطر، مما جعل من المتعذّر عليّ التنفّس، وبلل شعري مشكلاً قطرات شهباء لامعة على نسالة قميصي المجعد القميء. لم يكن ماء النبع الذي انسرب بين الوريقات المتحللة الزلقة تحت أقدامنا سيئاً للغاية، وتعيّن علينا أن نلتزم الحذر حقاً حتى لا تخدش جلدنا فروع السرخس الصلبة العصيّة الانثناء.

عندما خرجنا من غابة التنوب إلى طريق القرية، حيث كانت الشمس تأتلق والضباب يتبخر، أزحت آثار الضباب عن قميصي وسراويلي القصيرة بحذر كأنما كنت أنفض قراداً لاصقاً. وبدت السماء صافية وضارية الزرقة. وقد تألقت الجبال النائية، في لون خام النحاس الذي عثرنا عليه في منجم خطر مهجور في وادينا، بحراً عميق الزرقة يتدافع نحونا، وطالتنا قبضة وحيدة شهباء من ماء البحر الحقيقي.

راحت طيور برية تشدو في الأرجاء كافة حولنا. تلاعبت الريح بالفروع العليا لأشجار الصنوبر مصدرة حفيفاً كالأنغام. ودهس أبي بحذائه فأراً جبلياً، فقفز هذا من كومة

وريقات كنبع رمادي ينبثق ماؤه عالياً، فملأني للحظة خوفاً، واندفع في وثبة حادة إلى الأعشاب البراقة على امتداد الطريق.

طرحت على أبي سؤالاً ناظراً إلى ظهره العريض:

ـ هل سنبلغ عن الزنجي لدى وصولنا إلى المدينة؟

قال أبي:

ـ إحم؟ نعم...

ـ هل يجيء مفوض الشرطة من المدينة؟

دمدم أبي قائلاً:

ـ لا أحد يدري، إلى أن يصل الأمر إلى مكتب مدير الشرطة ويستطيع أحد أن يحدد ما سيحدث.

ـ ألا نستطيع الاحتفاظ به في القرية؟ أهو خطير؟ أتعتقد أنه كذلك؟

نحاني أبي جانباً بالتزامه الصمت. أحسست أن دهشتي وخوفي اللذين استشعر بهما ليلة الأمس حينما اقتيد الجندي الزنجي إلى القرية يبعثان من جديد. ما الذي يفعله في ذلك القبو؟ يغادر الجندي الزنجي القبو، يذبح الناس وكلاب الصيد في القرية، يشعل النار في الدور. عمني الخوف حتى أخذتني الرعدة. لم أكن أرغب التفكير بالأمر، تجاوزت أبي وعدوت لاهثاً أهبط المنحدر الممتد.

في الوقت الذي بلغنا فيه الطريق المستوي،كانت الشمس قد علت كبد السماء فبدت الأرض الحمراء التي عرتها انهيارات صغيرة على جانبي الطريق كليهما خشنة في لون الدم متألقة تحت الشمس. انطلقنا قدماً والضياء الوحشي يلهب جبهتينا العاريتين، انبثق العرق من جلد جبيني، تحدّر من خلل شعري القصير، انسال من جبهتي إلى وجنتي.

عندما دخلنا المدينة ألصقت كتفي بورك أبي المرتفع، وسرت متجاوزاً استفزازات الأطفال في الشارع. ولو أن أبي لم يكن موجوداً لهتف الأطفال هازئين بي وقذفوني بالحجارة. لقد كرهت أطفال المدينة، مثلما كان حرياً بي أن أمقت أنواعاً من الخنفساء ذات أشكال لا أملك قط الارتياح لها ولا أحس حيالها إلا بالنفور، أطفال ناحلون تحت ضياء الظهيرة المتدفق على المدينة بعيون غادرة. لو أن عيني أحد الكبار ما كانت ترقبني من مؤخرة أحد المحال المعتمة لكان بوسعي يقيناً أن أصرع أحدهم فألقيه أرضاً.

كان مكتب المدينة مغلقاً في استراحة تناول الغداء. أدرنا الطلمبة في الميدان أمام المكتب، وشربنا بعض الماء منها، ثم اقتعدنا المقاعد الخشبية تحت إحدى النوافذ التي كانت شمس الظهيرة تنصب متوقدة منها، وانتظرنا طويلاً. أخيراً أقبل موظف عجوز بعد أن تناول غداءه. عندما تبادل الحديث مع أبي بأصوات خفيضة وولجا مكتب محافظ المدينة، حملت جلود أبناء عرس إلى الموازين الصغيرة المترخية خلف نافذة استقبال. هناك كانت الجلود تحصى وتدرج في دفتر حسابات أمام اسم أبي. راقبت بعناية فيما كانت موظفة قصيرة النظر تضع نظارة غليظة تدون عدد الجلود.

حينما انتهت هذه المهمة لم أدر ماذا أصنع. كان الأمر سيطول بأبي، لذا مضيت في جولة تفقدية، وقدماي الحافيتان تحدثان صوتاً على أرض القاعة أقرب إلى صوت كؤوس التفريغ إذ حملت حذائي في يدي، باحثاً عن الرجل الوحيد الذي أعرفه في المدينة، والذي كان غالباً ما يحمل إخطارات إلى قريتنا. كنا ندعو جميعاً هذا الرجل الأعرج بـ«الكاتب» لكنه كان يقوم بأشياء أخرى كثيرة مثل مساعدة الطبيب حينما تجرى لنا فحوص طبية في ملحق المدرسة بالقرية.

ـ طيب، أليس هذا هو «الضفدع»؟

هتف بها «الكاتب» ناهضاً من المقعد وراء مكتبه، الأمر الذي جعلني أغضب قليلاً، لكني مضيت نحوه على أي حال. ولما كنا ندعوه بـ «الكاتب» فلم يكن بمقدورنا أن نشكو من تسميته لكل منا نحن أبناء القرية بـ «الضفدع». وأسعدني أنني عثرت عليه.

قال مقرقعاً بساقه الصناعية تحت المكتب:

ـ هكذا أمسكتم بزنجي!

قلت مسنداً يدي على مكتبه حيث كان طعام غدائه ملفوفاً في جريدة مصغرة.

ـ نعم...

ـ هذا شيء يستحق الاهتمام حقاً!

أردت أن أومىء متعاظماً، نحو شفتيه اللتين خلتا من الدم، مثلما يفعل الكبار، وأن أتحدث عن الجندي الزنجي، لكني لم أستطع العثور على كلمات أكشف بها النقاب عن الزنجي الضخم الذي اقتيد عبر الغسق إلى القرية كطريدة وقعت في الشرك.

تساءلت:

ـ هل سيطلقون النار عليه؟

أومأ «الكاتب» بذقنه ناحية مكتب المحافظ، قال:
ـ لست أدري، من المحتمل أنهم يقررون ذلك الآن.
قلت:
ـ هل سيحضرونه إلى المدينة؟
قال متجنباً سؤالي المهم:
ـ تبدو عليك السعادة البالغة لإغلاق الفصل الدراسي، والمعلمة أكثر كسلاً من أن تقوم بالرحلة إلى هناك، فكل ما تفعله هو أن تشكو، إنها تقول إن أطفال القرية قذرون وتفوح منهم رائحة كريهة.

شعرت بالخجل من القذارة التي تغضن عنقي، لكني هززت رأسي متحدياً. وأجبرت نفسي على الضحك. التوت في ارتباك ساق «الكاتب» الصناعية الناتئة من تحت مكتبه. كنت أحب التطلع إليه وهو يتقافز على امتداد الطريق الجبلي بساقه اليمنى السليمة وساقه الصناعية وعكاز واحد فحسب. ولكن هنا كانت الساق الصناعية غريبة شأن أطفال المدينة.

قال ضاحكاً وساقه الصناعية تقرقع من جديد:
ـ ولكن ما الذي يعنيك، فطالما المدرسة المغلقة ليس لديك ما تشكوه، أليس كذلك أيها «الضفدع»! ألست تؤثر ورفاقك اللعب خارج الدور على أن تعاملوا مثل كومة قذارة في الصف؟!

قلت:
ـ المعلمات كذلك على القدر نفسه من القذارة.
كان هذا صحيحاً، إذ كانت النسوة القائمات بالتدريس قبيحات وقذرات، كن كذلك جميعاً. ضحك «الكاتب». كان أبي قد خرج من مكتب المحافظ، وراح يناديني بهدوء. ربت «الكاتب» على كتفي، فربت على ذراعه، ومضيت عدواً.

هتف فيما كنت منصرفاً.
ـ لا تدع الأسير يهرب، أيها «الضفدع»!
قلت لأبي فيما نحن عائدان عبر المدينة السابحة في سنا الشمس:
ـ ماذا قرروا أن يفعلوا به؟
ـ أتظن أنهم سيتحملون أيّة مسئولية!

هتف أبي بهذه الكلمات كأنها بصقة يلفظها وكأنما يوجه إليّ لوماً. ولم يندّ عنه المزيد. وقد دفعني مزاجه العكر إلى التزام الصمت تحت ظلال أشجار المدينة القبيحة الذاوية وبعيداً عنها. حتى الأشجار في المدينة، شأن الأطفال في الشوارع، بدت غادرة وغير مألوفة.

عندما بلغنا الجسر عند حافة المدينة اقتعدنا الحاجز الخفيض، وأخرج أبي غداءنا من لفافته صامتاً، وجاهدت نفسي لأحول بينها وبين إلقاء الأسئلة على أبي. ومددت يداً نالها قليل من القذارة نحو اللفافة المنشورة على حجره. تناولنا طعامنا المؤلف من كبيبات الأرز ولا يزال الصمت يلفنا.

فيما كنا على وشك الانتهاء من طعامنا أقبلت بنت صغيرة ذات عنق بديع كعنق طائر. تأملت سريعاً حال ملابسي وملامحي وانتهيت إلى أنني أكثر وسامة وصلابة من أي طفل في المدينة. ومددت قدميّ كليهما أمامي وقد دسستهما في حذائي، وانتظرت مقدم البنت، وقد اندفع دم فائر يغني في أذني. للحظة قصيرة تطلعت إليّ مقطبة، ثم سارعت بالفرار، فجأة تبددت شهيتي، وهبطت الدرج الضيق قرب الجسر، سرت نحو النهر لأرتشف جرعة ماء. كانت شجيرات الأفسنتين تنمو كثيفة على امتداد الضفة. وشققت طريقي جاهداً بينها إلى حافة النهر، لكن الماء كان راكداً، قذراً، بني اللون، راودني شعور بأنني مخلوق هزيل بائس.

في الوقت الذي كنا فيه قد غادرنا الطريق الممتد من الجسر وخلفنا وراءنا غابة التنوب وبلغنا مدخل القرية، كانت سيقاننا قد تصلبت ووجهانا قد علاهما الغبار والعرق. وأرخى المغيب سدوله على الوادي تماماً، كانت حرارة الشمس تتأرجح في جسدينا؛ فبدا الضباب الثقيل مصدر ارتياح لنا. تركت أبي يمضي في طريقه إلى دار عمدة القرية ليبلغه بما كان، وصعدت إلى الطابق الثاني للمخزن. كان أخي يقتعد مرقدنا وقد غلبه النعاس. مددت يدي، وهززته مستشعراً العظام الهشة في ظهره العاري تحت راحتي. انكمش جلده هوناً تحت يدي الحارة، تراجع الارهاق والخوف منسحبين من عينيه اللتين فتحهما فجأة.

قلت:

- كيف حاله؟

- لم يصنع شيئاً إلا الرقاد في القبو.

قلت بلطف:

- هل شعرت بالخوف في وحدتك؟

هز أخي رأسه نافياً والجد مرتسم في عينيه. فرجت المصراع الخشبي قليلاً، صعدت إلى حافة النافذة لأتبول. لفني الضباب كأنه مخلوق تدب فيه الحياة، وانسل سريعاً إلى طاقتي أنفي. اندفع بولي قافزاً لمسافة طويلة، مرتطماً بأحجار الطريق، حينما لطم النافذة الناتئة من الطابق الأول أرتد وبلل في دفء أطراف أصابع قدمي وفخذي الناحلين المرقشين بالبثور. وراح أخي يرقب المشهد منكباً وقد ضغط برأسه على جانبي مثلما يفعل حيوان صغير.

ظللنا على هذا الوضع لبرهة قصيرة، ندّت تثاؤبات قصيرة عن حلقينا الضيقين، ومع كل تثاؤب انهالت قطرات عبثة وعابرة من الدمع من أعيننا.

قلت لأخي فيما كان يساعدني على إغلاق المصراع الخشبي وقد برزت عضلات رقيقة في كتفيه:

- هل أفلح هارنيب في رؤيته؟

قال في أسى:

- كان الأطفال يجازون بالانتهاز إذا ما دنوا من الميدان، هل سيحضرون لأصطحابه من المدينة؟

قلت:

- لا أدري.

أقبل أبي والسيدة العاملة بالمتجر العام من أسفل الدرج وهما يتحدثان بأصوات عالية. كانت تصر على القول بأنها لا تستطيع حمل الطعام إلى الجندي الزنجي داخل القبو. ليست تلك مهمة امرأة، وينبغي أن يقدم ابنك العون في هذا الشأن! كنت قد انتهيت من نزع حذائي واستقمت بجذعي وراحة أخي الرقيقة ملتصقة بظهري. عضضت شفتي، انتظرت تردد صوت أبي.

- انزل إلى هنا!

عندما سمعت صياح أبي ألقيت بحذائي تحت المرقد، اندفعت أهبط الدرج عدواً.

أشار أبي بمؤخرة بندقية صيده إلى سلة الطعام التي تركتها المرأة على الأرض

الترابية. أومأت برأسي، ورفعت السلة بعناية، وغادرنا المخزن في صمت، وسرنا عبر الضباب البارد. كانت أحجار الطريق تحت قدمي محتفظة بدفء النهار. ولم يكن أحد الكبار يحتل مركز الحراسة عند جانب المخزن. لمحت الضوء الشاحب المتسرب من كوة القبو الضيقة. وشعرت بالإعياء ينتشر في جسدي كله، ومع ذلك كانت أسناني تصطك لفرط الانفعال لهذه الفرصة الأولى لرؤية الزنجي عن كثب.

كان القفل الضخم الموضوع على باب القبو ينضح رطوبة. فتحه أبي، وأطل إلى الداخل، ثم هبط وحده في حذر وبندقيته مشرعة. أقعيت على الأرض عند المدخل منتظراً وقد التصق هواء ندّاه الضباب بقفاي، وأحسست بالخجل من الرعدة التي سرت في ساقي البنيتين الثابتتين أمام العيون التي لا حصر لها التي تجول خلفي وتحدق فيّ.

ـ تعال!

تردد الأمر بصوت أبي المكتوم.

هبطت الدرج المحدود الامتداد محتضناً سلة الطعام. كان «الطريدة» مقعياً في الضوء المعتم للمصباح العاري المستدير. ودنت السلسلة الغليظة الخاصة بشرك والتي تربط ساقه السوداء بأحد أعمدة القبو واستحوذت على نظرتي.

تطلع «الطريدة» الذي كان يضم ركبتيه بذراعيه ويريح ذقنه على ساقيه الطويلتين نحوي بعينين محمرتين. عينان دبقتان حتى أنهما التفّتا حولي. واندفع الدم الذي يحويه جسمي كله مسرعاً نحو أذني، فتوهج وجهي بالحرارة. أشحت بناظري، والتفتّ إلى أبي الذي استند إلى الجدار وبندقيته موجهة إلى الزنجي الأسود. أومأ لي أبي بذقنه خطوت بعينين شبه مغمضتين ووضعت سلة الطعام أمام الجندي الزنجي. فيما كنت أتراجع ارتجفت أحشائي بخوف مفاجىء، أضطررت لمكافحة الغثيان الذي داهمني. حدج الجندي الزنجي سلة الطعام بناظريه، رمقها أبي، حدقت فيها بدوري. نبح كلب في البعيد. فيما وراء الكوة الضيقة كان الصمت يلف الميدان المعتم.

فجأة بدأت سلة الطعام تثير اهتمامي، رحت أنظر إلى الطعام بعيني الجندي الزنجي السغبتين. كبيات أرز ضخمة متعددة، سمك مجفف وقد نزع الدهن عنه، خضر مسلوقة، حليب ماعز في زجاجة. ودون أن يتحرك الجندي الزنجي من مجثمه واصل تحديقه في سلة الطعام طويلاً حتى بدأت أخيراً أشعر بآلام الجوع بدوري. خطر لي أنه يمقت الزاد الهزيل الذي قدمناه، يمقتنا، يرفض أن يمس الطعام، فداهمني الشعور بالعار. لئن لم

يبد نية تناول الطعام فسوف ينال الشعور الذي انتابني من أبي، لسوف يدفع شعور الكبار بالعار أبي إلى رحاب اليأس والعنف، لسوف يمزق الكبار الذين كساهم الشحوب جراء العار القرية إرباً. أي فكرة فظيعة كان تقديم الطعام له!

ولكن فجأة مدّ ذراعاً طويلة على نحو يستعصي على التصديق، ورفع الزجاجة المتسعة العنق بأصابع غليظة يكسوها شعر كث، جذبها نحوه، تشممها، ثم أمالها، وفتح شفتيه المطاطيتين، لاحت أسنان بيضاء ضخمة مصطفة كأنها أجزاء داخل آلة. شاهدت الحليب يتدفق منحدراً إلى حلق وردي واسع متألق. أحدث زور الجندي الزنجي صوتاً يحاكي الماء لدى دخوله قناة صرف، من ركني شفتيه المتورمتين كفاكهة أتخمت نضجاً وربطت بخيط تسرب الحليب، تحدر على عنقه المكشوف، بلل قميصه المفتوح وصدره، تجمد كالدهن على جلده الخشن المعتم البريق مترجرجاً هنالك. اكتشفت وقد جفف الانفعال شفتي أن حليب الماعز سائل جميل.

أعاد الجندي الزنجي الزجاجة إلى السلة بقعقعة خشنة، الآن تبدد التردد الذي راوده أول الأمر، بدت كبيبات الأرز فطائر صغيرة وهو يلقي بها في جوفه بيديه العملاقتين، سحقت الأسماك المجففة جميعها برؤوسها وعظامها وكل ما فيها بين شفتيه اللامعتين. وقفت إلى جانب أبي مسنداً ظهري إلى الحائط وقد غمرني الإعجاب، ورحت أرقب مضغه القوي. لما كان عاكفاً على وجبته دون أن يبدي اهتماماً بنا فقد أتيحت لي الفرصة رغم مكافحتي لقرصات الجوع في معدتي الخاوية لأرقب «طريدة» الكبار بتفصيل خانق وأي «طريدة» رائعة كان!

كان شعره المجعد القصير يحكم هنا وهناك ضمه في خصلات صغيرة على جمجمته البعيدة عن القبح، فوق أذنيه اللتين كانتا مستدقتين شأن أذني ذئب. كان الشعر يتحول إلى لون رمادي محترق، أما الجلد الممتد من زوره إلى صدره فقد أناره من الداخل ضوء أرجواني داكن، وفي كل مرة يلتفت فيها وتلوح في عنقه الغليظ الدهني تجاعيد لدنة كنت أشعر بقلبي يثب في موضعه، ثم هناك الرائحة المنبعثة من جسده التي تغزو الأنف بإلحاح الغثيان حين يدهم المرء ماحية كل شيء كأنها سم زعاف، رائحة جعلت خدّيّ يحمران، وراحت تومض أمام عيني كالجنون... فيما رحت أرقبه يتناول طعامه في ضراوة وقد أحمرت عيناي وأخضلتا كأنما أصابهما مرض، تحول الطعام الخشن في السلة إلى وجبة عطرية سخية رائعة. لو أن قضمة واحدة بقيت حينما رفعت السلة إذن لأمسكت بها بأصابع

ترتعد بنشوة خبيثة والتهمتها التهاماً، لكنه أتى على كل لقيمة من الطعام، ثم مسح صحفة الخضر مسحاً بأصابعه.

وكزني أبي في أحد جانبي، فمضيت مرتجفاً بشعور من الخزي والغضب كأنما أوقظت من حلم شهواني من أحلام اليقظة إلى الجندي الزنجي ورفعت السلة. وفي حماية فوهة بندقية أبي استدرت وأسرعت بصعود الدرج، وسمعت سعاله الخفيض الثري الصدى فتعثرت، وشعرت بالخوف يرقش جلد بدني كله.

عند قمة الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني عكست مرآه معتمة مشوهة في تجويف أحد الأعمدة صورتي فيما كنت أتسلق الدرج: صبياً يابانياً تافهاً تماماً بوجنتين مرتجفتين وشفتين شاحبتين خلتا من الدماء، واكتسبتا اللون الوردي إذ عضضتهما في خروجي من العتمة. تهدل ذراعاي إلى جواري، أحسست أني أوشك على الانخراط في البكاء، جالدت شعوراً ثقيلاً دامعاً بينما كنت أفتح مصاريع رد المطر التي أغلقها أحدهم خلال النهار.

كان أخي يقتعد مرقدنا متوهج العينين، وقد بعث فيهما الخوف حرارة وجفافاً. قلت متنخماً لأخفي رعدة شفتي:

ـ أغلقت مصاريع المطر. أليس كذلك؟

أحنى أخي عينيه خجلاً من خوفه:

ـ بلى، كيف حاله؟

ـ رائحته فظيعة.

قلتها متهاوياً من فرط الارهاق. كنت متعباً حقاً، وشعور بالتعاسة يداخلني. الرحلة إلى المدينة، عشاء الجندي الزنجي ـ بعد عمل اليوم الطويل بدا جسمي ثقيلاً مثلما قطعة أسفنج تشبعت بالإعياء، ونزعت قميصي الذي غطته وريقات الشجر الجافة والنباتات الشائكة، انحنيت لأمسح قدمي المتسختين بخرقة في إيماءة لأخي بأن ليست لدي الرغبة في تقبل المزيد من الأسئلة. رمقني أخي قلقاً وقد أغلق شفتيه في إحكام، وزحفت إلى جواره، واختفيت تحت غطائنا برائحة العرق والحيوانات الصغيرة التي تفوح منه. ومضى أخي هنالك يرقبني وقد تضامت ركبتاه وضغطتا كتفي دون أن يطرح المزيد من الأسئلة. كان في الجلسة ذاتها التي جلسها حينما كنت محموماً، تقت بدوري، مثلما حدث حينما مرضت بالحمى، إلى النعاس.

عندما استيقظت ضحى اليوم التالي سمعت ضوضاء جمع مقبل من الميدان على

امتداد المخزن. لم يكن أبي وأخي موجودين. تطلعت إلى الجدار، فلم أجد بندقية الصيد عليه، وفيما كنت أصغي للضجيج وأحدق في حامل البندقية الخاوي بدات دقات قلبي تدوي. وثبت من الفراش وانتزعت قميصي، وعدوت هابطاً الدرج.

تجمع الكبار في الميدان. وسم القلق وجوه الأطفال المتسخة وهم يرقبونهم. بعيداً عن الجميع أقعى أخي وهارليب عند كوة القبو، إنهما يطلان من خلالها! هكذا حدثت نفسي غاضباً. انطلقت عدواً نحوهما، عند ذلك لمحت «الكاتب» يصعد محني الرأس وقد استند إلى عكازه بخفة من مدخل القبو. تحدر فوقي إعياء ضار معتم وشعور جارف بخيبة الأمل فدفناني تحتهما. لكن ما تبع «الكاتب» لم يكن جثة الجندي الزنجي وإنما أبي وقد وضع بندقيته على كتفه وما تزال الخزانة مثبتة بها منهمكاً في الحديث بهدوء مع عمدة القرية، وتنفست الصعداء، وتحدر عرق ساخن كماء مغلي على جانبي، وعلى الجوانب الداخلية لفخذي.

صاح هارليب داعياً إياي فيما وقفت هنالك:

- ألق نظرة، هيا!

ركعت على يدي وركبتي فوق الأحجار الدافئة، تطلعت عبر الكوة الضيقة التي كانت فوق مستوى الأرض مباشرة. في قرار بحيرة الظلمة رقد الجندي الزنجي مسترخياً على الأرض، شأن دابة مستأنسة ضربت حتى فقدت الوعي.

قلت لهارليب وجسمي يرتجف غضباً فيما كنت أنهض:

- هل ضربوه؟

ارتفع صوتي حد الصياح:

- هل ضربوه وقدماه موثقتان وهو عاجز عن الحركة؟

- ماذا؟

صاح بها هارليب وقد أعد نفسه للشجار كي يقمع غضبي، فاكفهر وجهه ونتأت شفتاه في تجهم، وكرر متسائلاً:

- من؟

هتفت:

- الكبار، هل ضربوه؟

قال آسفاً :

- لم تكن بهم حاجة إلى ضربه ، فكل ما فعلوه هو دخول القبو والنظر إليه ، كان النظر إليه هو الذي جعله على هذا الحال!

أنفثأ الغضب، هززت رأسي في غموض ، كان أخي يتطلع إلي ذاهلاً .

قلت لأخي :

- كل شيء على ما يرام .

دنا منا أحد أطفال القرية ، حاول النظر عبر الكوة ، لكن هارليب ركله في جنبه فصرخ . كان هارليب قد احتفظ لنفسه بالفعل بحق تحديد من الذي ينبغي أن يطل على الجندي الزنجي عبر الكوة ، وكان يرقب في عصبية أولئك الذين من شأنهم اغتصاب حقه .

مضيت إلى حيث كان «الكاتب» يحادث الكبار الذين التفوا حوله . تجاهلني تماماً ، كما لو كنت صبياً قروياً سائب الأنف يجفف شفته العليا . ومضى في حديثه ، الأمر الذي مس كبريائي وشعوري بالمودة نحوه ، لكن ثمة أوقاتاً لا يمكنك أن تطلق العنان فيها لكبريائك واعتدادك بنفسك . دسست رأسي وراء مؤخرات الكبار . رحت أصغي إلى حديث «الكاتب» وعمدة القرية .

كان الكاتب يقول إن أياً من مكتب المدينة أو مركز الشرطة ليس بمقدوره تولي مسئولية الأسير الزنجي ، وإنه إلى أن يتم إبلاغ محافظ المقاطعة بالأمر وإلى أن يصل رد يتعين على القرية أن تحتفظ بالجندي الزنجي ، وإنها مرغمة على القيام بذلك . أبدى العمدة اعتراضه مكرراً القول بأن القرية تفتقر إلى القوة التي يمكن أن تقوم على أمر احتجاز الجندي الأسير . فضلاً عن هذا فإن تسليم الأسير الخطر تحت الحراسة عن طريق الدرب الجبلي هو أمر لا يمكن للقرية أن تقوم به دون أن تتلقى عوناً ، فقد جعل الموسم المطير الطويل والفيضانات كل شيء عسيراً ومعقداً .

ولكن عندما اكتسب صوت «الكاتب» الرنين الآمر والنغمة المتشددة التي يتحدث بها بيروقراطي في المراتب الدنيا أذعن الكبار في وهن . حينما تبين أن القرية ستحتفظ بالجندي الزنجي ، إلى أن تقرر المحافظة ما ينبغي عمله . وغادرت الكبار المتحيرين المتذمرين . عدت عدواً إلى أخي وهارليب اللذين وقفا أمام كوة القبو محتكرين النظر عبرها ، وأفعمني ارتياح عميق وتوقع وقلق مما انتقل إلي من الكبار وسرت في أعماقي كديدان وئيدة الزحف .

صاح هارليب في لهجة المنتصر:
ـ قلت لكما إنهم لن يقتلوه! كيف يمكن لزنجي أن يكون عدواً؟
ـ سيكون قتله خسارة.

قالها أخي سعيداً، وأطل ثلاثتنا من خلال الكوة وقد ارتطمت وجناتنا، وحينما رأينا الجندي الزنجي مسترخياً كذي قبل تنهدنا في ارتياح. كان هنالك بعض الأطفال ممن تقدموا حتى أطراف أقدامنا المقلوبة تجف تحت الشمس مدمدمين بعبارات الاستياء منا، ولكن حينما وثب هارليب قائماً وصرخ بهم تفرقوا صارخين.

الآن سئمنا مراقبة الجندي الزنجي الراقد هناك، لكننا لم نتخل عن موقعنا المتميز. سمح هارليب للأطفال واحداً وراء الاخر. وعدوا بتقديم مقابل من البلح والمشمش والتين وثمار البرسيمون وما إلى ذلك بالنظر من خلال الكوة لوقت قصير. وفيما الأطفال يحدقون عبر الكوة كانت حمرة الشعور بالمفاجأة تمتد حتى أقفيتهم، وحينما ينهضون يمسحون التراب عن ذقونهم براحات أيديهم. استندت إلى جدار المخزن، وتطلعت إلى الأطفال المنغمسين في تجربة عمرهم الحقيقية الأولى فيما هارليب يصرخ بهم ليعجلوا ومؤخراتهم الصغيرة تحترق في الشمس، فداخلني شعور غريب بالارتياح والزخم والابتهاج، قلب هارليب على ركبتيه كلب صيد كان قد ابتعد عن حشد الكبار، وشرع ينتزع منه حشرات القراد ويسحقها بين أظافره المصفرة بلون الكهرمان مواصلاً إلقاء أوامره ومضايقته الممزوجة بالصلف للصغار. وحتى بعد أن غادر الكبار المكان مع «الكاتب» ليصحبوه حتى طريق الجبل واصلنا لعبتنا الغريبة تلك. بين الحين والآخر كنا نلقي بأنفسنا نظرات طويلة وأصوات الأطفال المحتجة تدوي خلف ظهورنا. لكن الجندي الزنجي رقد مسترخياً كعهده ولم يبد ما ينم عن تأهبه للحركة كأنما أشبع لطماً وضرباً، كأنما كان مجرد النظر إليه كافياً لإصابته بالجراح!

في تلك الليلة، ومصحوباً من جديد بأبي شاهراً بندقيته، هبطت إلى القبو حاملاً وعاء ثقيلاً مليئاً بالعصيدة. تطلع الجندي الزنجي إلينا بعينين أثقل القذى حوافهما، ثم دس أصابعه المكسوة بالشعر في الوعاء الساخن والتهم الطعام سغباً. استطعت مراقبته بهدوء. استند أبي الذي كف عن شهر بندقيته باتجاهه إلى الجدار وقد بدا عليه الضجر.

فيما رحت أحدق في الجندي الزنجي بجبينه المنكب فوق الوعاء مراقباً رعشة عنقه الغليظ والانقباض والارتخاء المفاجئين لعضلاته بدأت أتفهمه بحسبانه دابة هادئة، حيواناً

مستأنساً. نظرت إلى هارليب وأخي اللذين أنكبا يطلان من الكوة بأنفاس متقطعة، ابتسمت ابتسامة ماكرة أمام أعينهما المتألقة. وكنت قد بدأت أعتاد الجندي الزنجي، غرست هذه الفكرة سعادة فخوراً تفرعت في أعماقي. ولكن حينما تحرك الزنجي على نحو قعقعت معه سلسلة شرك الخنزير انبعث الخوف في بقوة هائلة مندفعاً حتى أبعد الأوعية الدموية في جسدي وباعثاً الخدر في جلدي.

منذ ذلك اليوم فصاعداً غدت مهمة حمل الطعام للجندي الزنجي مرة في الصباح وأخرى في الليل بصحبة أبي الذي لم يعد يكترث برفع البندقية عن كتفه امتيازاً خاصاً لي وحدي يقتصر علي. وحينما كنت أظهر مع أبي عند جانب المخزن في الصباح الباكر أو حينما يدلج الغسق في الليل كانت تنهيدة هائلة تندّ عن الأطفال المنتظرين في الميدان في الحال، ثم تعلو وتنتشر كالسحابة في رحاب السماء. وشأن أخصائيّ فقد كل اهتمام بعمله، وإن احتفظ بدقته في أداء مهمته، كنت أعبر الميدان عاقد الحاجبين دون أن ألقي نظرة على الأطفال، واكتفى هارليب وأخي بالسير على جانبيّ قريبين للغاية مني حتى لتتماسّ أجسادنا حتى مدخل القبو. وعندما أهبط مع أبي إلى القبو يسرعان عدواً ويحدقان من خلل الكوة. وحتى إذا كنت قد شعرت بالضجر تماماً من حمل الطعام للجندي الزنجي فقد كان حرياً بي أن أواصل أداء هذه المهمة لا لشيء إلا للمسرّة المنبعثة من الشعور ورائي بتنهيدة الحسد الحارة تلك وهي تتصاعد حدّ الضيق في صدور الأطفال جميعاً ومن بينهم هارليب.

غير أنني طلبت من أبي إذناً خاصاً لهارليب ليهبط إلى القبو مرة واحدة فقط كل يوم في فترة ما بعد الظهر. كان القصد من ذلك أن ألقي على كاهل هارليب جزءاً من وقر كان أثقل من أن أنهض به وحدي، فقد وضع برميل صغير عتيق إلى جوار أحد الأعمدة في القبو ليستخدمه الجندي الزنجي في التخلص من فضلاته. في الأصيل كنت وهارليب نمضي رافعين فيما بيننا البرميل بالحبل الغليظ الثقيل الذي يتخلله، نرقى الدرج في حذر، ونسير حتى نبلغ كوم الروث لنفرغ الخليط النفاذ الرائحة المتلاطم المؤلف من بول الجندي الزنجي وبرازه. كان هارليب يؤدي عمله بسعارة غامرة، في بعض الأحيان، وقبل أن نفرغ البرميل في الخزان الضخم إلى جوار كوم الروث كان يقلب المحتويات بعصا ويلقي محاضرة عن حالة هضم الجندي الزنجي وبخاصة الإسهال الذي أصابه متوصلاً، ضمن استنتاجات أخرى، إلى أن لب حنطة عصيدته هو الذي سبب هذه المشكلة.

عندما هبطت إلى القبو مع أبي وهارليب لنحمل البرميل الصغير ووجدنا الجندي

الزنجي متفخجاً فوقه وقد تدلت سراويله حول كاحليه ومؤخرته السوداء اللامعة ناتئة في الوضع ذاته الذي يتخذه كلب يتسافد، اضطررنا للانتظار وراءه هنيهة. التمعت عينا هارليب دهشة وذهولاً كأنما في حلم وهو يصغي للقرقعة المكتومة التي صدرت عن السلسلة الملتفة حول كاحليه على جانبي البرميل، فأحكم قبضته على ذراعي.

شغل الجندي الزنجي الأطفال تماماً، ملأ حتى أصغر الأركان جميعاً في حياتنا، انتشر وسط الأطفال كالوباء. لكن الكبار كان لديهم عملهم، فلم يصبهم الوباء الذي أصاب الأطفال، فما كان بوسعهم الانتظار ساكنين إلى أن تصل التعليمات الوئيدة التحرك من مكتب المدينة. عندما بدأ أبي الذي تولى الإشراف على أمر الأسير في مغادرة القرية للصيد من جديد بدا وكأن الجندي الزنجي ما وجد إلا ليملأ فراغ الحياة اليومية للأطفال.

درجت مع أخي وهارليب على قضاء سحابة نهارنا حيث اقتعد الجندي الزنجي الأرض وصدورنا تجيش انفعالاً في أول الأمر لمخالفتنا قاعدة فرضها الكبار. لكننا سرعان ما اعتدنا القيام بذلك في عفوية تامة حينما ألفنا ذلك، كأنما القيام على شأنه خلال النهار أثناء وجود الكبار في التلال أو الوادي هو واجب عهد به إلينا وينبغي ألا نهمل الاضطلاع به. أما الكوة التي تركها أخي وهارليب فقد تداول الإطلال من خلالها أطفال القرية، إذ يستلقون على بطونهم فوق الأرض الحارة المتربة، فتلتهب حلوقهم وتجف من فرط الغيرة وهم يتتابعون في النظر إلينا نحن الثلاثة وقد اقتعدنا الأرض المتربة متحلقين الجندي الزنجي. وبين الحين والآخر، إذ يجرؤ طفل في غمار حمى الغيرة على نسيان نفسه ويحاول أن يتبعنا إلى القبو، كانت لكمة من هارليب تنتظره جزاء وفاقاً على سلوكه المشاكس فينهار على الأرض بأنف دام.

لم يكن علينا إلا أن نحمل في وقت قصير للغاية «برميل» الجندي الزنجي إلى أعلى درج القبو، أما نقله إلى كوم الروث تحت الشمس اللاهبة مع التعرض لرائحته التي تزكم الأنوف فقد كانت مهمة يضطلع بها أطفال رصدناهم بمزيد من التعالي لها، وكان الأطفال الموكلون بهذا يحملون البرميل بوجنات تتألق سروراً حريصين الحرص كله على ألا يسكبوا قطرة من السائل الموحل الأصفر الذي بدا لهم ثميناً للغاية. كل صباح كان الأطفال ونحن بينهم يتطلعون إلى الدرب الضيق الهابط عبر الغابات من المرتفع الجبلي وألسنتهم توشك أن تلهج بدعاء ألا يلوح «الكاتب» حاملاً تعليمات نخشاها.

مزقت سلسلة شرك الجنزير حقوي الزنجي، والتهبت مواضع التمزق، وتقاطر الدم

على قدميه، وجف وذوى ملتصقاً هناك كأنه أطراف نجيل جفت. ساورنا القلق دائباً إزاء الالتهاب المورد في قروحه. حين يتفخج معتلياً البرميل كان الألم يطغى حتى ليكشف أسنانه كطفل يضحك. حدقنا عميقاً بعضنا في عيون البعض وقتاً طويلاً، تحدثنا معاً، قررنا أن نحرره من وثاق شرك الخنزير البري. كان يقتعد أرض القبو في صمت شأن حيوان أسود كئيب وسائل غليظ يبلل عينيه دوماً، ربما كان دمعاً أو قذى - أي أذى يمكن أن يلحقه بنا حين نحرره من الشرك؟ إن هو إلا رأس واحد من قطيع أسود!

حينما أمسك هارليب المفتاح الذي جلبته من حقيبة أدوات أبي بإحكام وانحنى حتى مس كتفه ركبتي الجندي الزنجي وفتح الشرك، انبعث الأخير فجأة واقفاً وقد ندت عنه أنة مفعمة ألماً ولطم الأرض بقدميه. ألقى هارليب باكياً من فرط الخوف بالشرك، فارتطم بالحائط، وانطلق عدواً يرقى الدرج. أما أنا وأخي فقد تشبث أحدنا بالآخر وقد عجزنا حتى عن النهوض. قطع الخوف الذي دبت فيه الحياة مجدداً من الجندي الزنجي أنفاسنا لكنه بدلاً من الانقضاض علينا كالباشق عاد فاقتعد الأرض حيث كان، احتضن ركبتيه وراح يحدق بعينين غائمتين نديتين في الشرك الملقى بإزاء الحائط. عندما عاد هارليب مطأطأ الرأس خجلاً حييته وأخي بابتسامات رقيقة. كان الجندي الزنجي هادئاً كدابة مستأنسة . . .

أقبل أبي في وقت متأخر تلك الليلة ليحكم إغلاق القفل الضخم الموضوع على باب القبو، فرأى حقوي الجندي الزنجي وقد تحررا من غلهما لكنه لم يعنفنا. إنه وديع كالحمل . . . زحفت الفكرة، كالهواء ذاته إلى رئات الجميع في القرية، الأطفال والكبار على السواء.

حملت مع هارليب وأخي في صباح اليوم التالي طعام الإفطار للجندي الزنجي، فألفيناه يعبث بشرك الخنزير. كانت الآلية التي تغلقه قد تحطمت حينما قذفه هارليب إلى الحائط، وقد عكف الجندي الزنجي على فحص الجزء المكسور بمهارة الخبير المحنك ذاتها التي يعالجه بها مصلح الشراك الذي يأتي إلى القرية كل ربيع، ثم رفع جبينه القاتم البريق، وأومأ بالإشارات إلى ما يريد. نظرت إلى هارليب عاجزاً عن السيطرة على جماح فرحتي التي بدت وكأنها ترخي وجنتي، لقد اتصل بنا الجندي الزنجي، تماماً على نحو ما تفعل ماشيتنا، اتصل بنا الجندي الزنجي!

انطلقنا عدواً إلى دار عمدة القرية، حملنا على كاهلنا صندوق أدوات الإصلاح

الذي كان جزءاً من الملكية المشتركة للقرية، وعدنا به إلى القبو. كان يضم أشياء يمكن أن تستخدم كأسلحة، لكننا لم نتردد في أن نعهد بها إليه، فما كان بمقدورنا أن نصدق أن هذا الزنجي الذي يشبه دابة مستأنسة كان يوماً جندياً يخوض غمار الحرب، تطلع إلى صندوق الأدوات، ثم حدق في عيوننا، فنظرنا إليه بفرحة جعلتنا نحمر ونرتعش.

- إنه يشبه واحداً منا!

قالها هارليب برقة، فيما لكزت أخي في مؤخرته، واستبد بي فخار وسرور بالغان حتى أني أحسست بجسمي يتلوى من فرط الضحك، وندت تنهدات الدهشة صادرة عن الأطفال عبر الكوة كالضباب.

حملنا سلة طعام الإفطار عائدين بها، حينما فرغنا من تناول طعام إفطارنا وعدنا إلى القبو. كان قد التقط مفتاحاً وشاكوشاً من صندوق الأدوات ووضعهما في تأنق على جوال فوق الأرض. جلسنا إلى جواره، فتطلع إلينا، افترعن أسنانه الضخمة المصفرة وتراخت وجنتاه، وفوجئنا باكتشاف أن بمقدوره بدوره أن يبتسم. عندئذ فهمنا أننا قد ضمتنا وإياه رابطة مفاجئة، عميقة، متوهجة انفعالاً توشك أن تكون وشيجة «إنسانية».

طال بنا الأصيل، فأقبلت زوجة الحداد، وجرت هارليب بعيداً وهي تصب سيلاً من الصيحات الغاضبة. بدأت مؤخراتنا تؤلمنا جراء الجلوس على الأرض المتربة مباشرة، مع ذلك كان لا يزال عاكفاً على العمل في الشرك، وقد تلوثت أصابعه بشحم عتيق مترب، والنابض يحدث قرقعة خافتة معدنية فيما هو يرفعه ويجربه مراراً وتكراراً.

رحت، دون أن يداخلني الضجر، أرقب راحته الوردية وقد تسلخت حيث ضغطت أسنان الشرك عليها، ومضيت أحدق في السخام الدهني يتدلى خطوطاً على عنقه الغليظة المغللة بالعرق. أثارت هذه الأشياء فيّ غثياناً لا يمكن وصفه بأنه كريه، نفوراً واهناً متصل العرى بالرغبة. وفي دأب راح يعمل نافخاً خديه كأنه يصفر بأغنية بصوت خافت. ومضى أخي يرقب، وقد استند إلى ركبتي، أصابعه تتحرك بعينين تتألقان إعجاباً. دومت أسراب من الذباب حولنا، اختلط طنينها بالحرّ، تردد صداه مختلطاً به عميقاً في أذني.

عندما أنقض الشرك عاضاً الحبل المجدول في انغلاق أقوى وأعظم حدة بصورة ملحوظة، وضعه الجندي الزنجي بعناية على الأرض، ابتسم لي ولأخي عبر السائل الكثيب الكثيف في عينيه، وارتعشت حبات العرق على جبينه الأسود اللامع. مضينا لوقت طويل حقاً نتطلع ولا زلنا على ابتسامنا تماماً مثلما نفعل مع الماعز وكلاب الصيد إلى عينيه

الوادعتين. كانتا دافئتين. غرسنا نفسينا في الدفء كأنما هو بهجة نتقاسمها تربطنا به، وواصلنا تبادل الابتسام.

ذات صباح حُمل «الكاتب» إلى القرية وقد غطته الأوحال وذقنه تنزف دماً. كان قد تعثر في الغابات، فهوى من فوق صخرة خفيضة، وعثر عليه رجل من القرية كان في طريقه للعمل في التلال وقد غدا عاجزاً عن الحركة. وفيما كان يتلقى علاجاً في دار عمدة القرية، نظر مستاء إلى ساقه الصناعية التي انثنت حيث دعم الجلد الغليظ المتصلب بشريط معدني، وما كان من الممكن تثبيته من جديد على الوجه السليم. لم يبذل جهداً لنقل التعليمات من المدينة، فضاق الكبار به ذرعاً. أما نحن فوددنا لو أنه رقد عند قرار الصخرة دون أن يعثر عليه أحد حتى يلقى حتفه جوعاً؛ إذ افترضنا أنه أقبل ليمضي بالجندي الزنجي. لكنه كان قد جاء ليوضح أن التعليمات لم تصل بعد من المحافظة. استرجعنا سعادتنا، طاقتنا، وتعاطفنا معه، فحملنا الساق الصناعية وصندوق الأدوات إلى القبو.

كان الجندي الزنجي يغني مسترخياً على أرض القبو الراشحة بالماء وبصوت خافت غليظ أغنية خلبت لبّنا بقوتها الفجة، أغنية تخفي الأسى والصرخات التي تهدد بإغراقنا. أريناه الساق الصناعية المهشمة، فانبعث واقفاً، تطلع إليها للحظة، ثم عكف على العمل سريعاً. وانبعثت صرخات الابتهاج من الأطفال المحدقين عبر الكوة، وغرقت بدوري مع هارليب وأخي في الضحك من أعماقنا.

عندما أقبل «الكاتب» إلى القبو عند الغسق كانت الساق الصناعية قد أصلحت تماماً. شدها إلى فخذه المبتورة الساق ووقف منتصباً في موضعه فندّت عنّا صيحة ابتهاج عالية من جديد. قرقع بساقه صاعداً الدرج، ومضى إلى الميدان ليختبر صلاحيتها. وجذبنا الجندي الزنجي من ذراعيه كلتيهما فأوقفناه، دون أدنى تردّد كما لو كان ذلك أمراً طال اعتياده بالفعل، ومضينا به إلى الميدان معنا.

ملأ طاقتي أنفه العريضتين بنسيم صدر المساء الصيفي الطلق المنعش، أول نسيم يشمه ويستنشقه فوق الأرض منذ وقع في الأسر، وراح يرقب «الكاتب» عن كثب، ومضى كل شيء على ما يرام. وأقبل الكاتب عدواً نحونا، فالتقط من جيبه سيجارة صنعت من أوراق شجر ضمّت معاً، سيجارة يعوز قوامها الانسجام، وتحاكي رائحتها حريقاً شب في أجمة، وتلذع بوحشية إذا تسرب دخانها إلى عينيك. أشعلها، ودفع بها إلى الجندي الزنجي الطويل القامة، فاستافها الأخير، وانحنى ساعلاً في عنف ممسكاً لزوره. وابتسم «الكاتب» وقد غمره الحرج ابتسامة

حزينة، لكننا نحن الأطفال أغربنا في الضحك بصوت عال. ووقف الجندي الزنجي منتصباً، جفف دموعه براحته العملاقة، والتقط من جيب سراويله الكتانية التي تضم إليتيه العفيتين غليوناً قاتماً لامعاً، وقدمه لـ «الكاتب».

تقبل هذا الهدية، فأومأ الجندي الزنجي مغتبطاً. غمرتهما الشمس الغاربة بضياء في لون النبيذ، وهتفنا حتى بحت أصواتنا وقد تكأكأنا حولهما مغربين في الضحك كأنما مسّنا شطط الجنون.

شرعنا معظم الوقت نصطحب الجندي الزنجي خارج القبو في جولات على امتداد الطريق الحجري، فلم يقل الكبار شيئاً، وحينما يصادفوننا متحلقين حوله كانوا يكتفون بالنظر بعيداً والدوران حوله مثلما يخطون إلى النجيل ليتجنبوا ثور العمدة حينما يمضي على الطريق.

حتى عندما كان الأطفال جميعاً ينشغلون بالعمل في الدور فلا يعود بمقدورهم زيارة الجندي الزنجي في مقره تحت الأرض، لم يكن أحد من الكبار أو الأطفال يدهش إذا لمحه غافياً في قيلولته في ظل الشجرة في الميدان أو سائراً على مهل جيئة وذهاباً على امتداد الطريق. كان يتحول الآن شأن كلاب الصيد والأطفال والأشجار إلى أحد مكونات حياة القرية.

في الأيام التي يعود فيها أبي عند الفجر حاملاً إلى جانبه فخاً ضيقاً طويلاً مصنوعاً من شرائح خشبية مطروقة وابن عرس بدين طويل الجسم على نحو يستعصي علي التصديق يضطرب مترنحاً داخله، كان يتعين علي أن أقضي الصباح كاملاً مع أخي على أرض المخزن المتسعة لتقديم المساعدة في سلخه. في تلك الأيام كنا نرجو من أعماق قلوبنا أن يأتي الجندي الزنجي ليرانا عاكفين على العمل. حينما يقبل سننحني على كل من جنبي أبي فيما هو يمسك بسكين السلخ الملوثة بالدم ولطخ من الدهن ملتصقة بالمقبض، ونتمنى بأنفاس لاهثة لابن عرس الرشيق المتمرد هلاكاً متكاملاً وبالطريقة السليمة وسلخاً ماهراً لإرضاء ضيفنا. وفي لحظة انتقام أخيرة، وفيما ابن عرس يعاني آلام الاحتضار يضرط ريحاً مخيفة فظيعة تزكم الأنوف... حينما أنتزع الجلد إلى الخلف بصوت واهن يحاكي صوت التمزق على الحد الكثيب البريق بسكين أبي لم يبق إلا عضلة لؤلؤية البريق تلف الجسد الصغير الذي كان معرّى على نحو هائل حتى غدا مثيراً للغلمة. وقد حملته مع أخي حريصين على ألا تتسرب الأحشاء خارجه منه إلى كوم الروث لنتخلص منه. حينما عدنا، مسحنا أصابعنا

الملوثة في وريقات أشجار عريضة. كان الجلد قد قلب بالفعل وثبتته المسامير إلى أغشية غليظة دهنية وشعيرات رفيعة تأتلق في الشمس. وكان الجندي الزنجي يرقب، مطلقاً بشفتيه المضمومتين أصواتاً تحاكي نداءات الطير، طيات الجلد وهي تنظف من الدهن بين أصابع أبي الغليظة لتجف بقدر أكبر من السهولة. عندما جف الفراء وتصلب كالمخالب على الغشاء وتخللته لطخ في لون الدم كخطوط السكك الحديدية عبر خريطة ورآه الجندي الزنجي وأعجب به تهنأ فخراً واعتداداً بأسلوب أبي الفني. وفي مرات كان أبي يلتفت إلى الجندي الزنجي فيما هو ينثر الماء على الفراء بنظرات ودود. في مثل هذه الأوقات كنت وأخي والجندي الزنجي وأبي نتوحد كما لو كنا أسرة واحدة تلتف حول أسلوب أبي الفني في معالجة الفراء.

أحب الجندي الزنجي كذلك النظر إلى الحداد وهو عاكف على العمل، خاصة حينما يساعده هارليب في تشكيل شيء ما من الحديد مثل فأس، وقد تألق جذعه العاري بوهج النار. وكنا نتحلق الجندي الزنجي ونمضي إلى سقيفة الحداد، وعندما يرفع الحداد بكفين غطاهما غبار الفحم قطعة من الصلب متوهجة الحمرة ويغمسها في الماء كان الجندي الزنجي يطلق صيحة كالصرخة، فيشير نحوه الأطفال ويغربون في الضحك، وبمزيد من الفخار يكرر الحداد هذا العرض الخطر لمهارته مراراً.

وكفت النسوة عن التخوف منه، وفي بعض الأحيان كان يتلقى الطعام من أيديهن مباشرة.

بلغ الصيف أوجه، رغم ذلك لم تصل تعليمات من مكتب المحافظة. وسرت شائعة تقول إن عاصمة المحافظة قصفت بالقنابل، لكنها لم تؤثر في قريتنا، كان هواء أشد سخونة من ألسنة اللهب التي التهمت مدينة يلف قريتنا سحابة النهار. بدأ المجال المحيط بالجندي الزنجي يفوح برائحة مقيتة تصيب رؤوسنا بالدوار حينما نجلس معه في القبو الذي لا تمر به نسمة، رائحة نفاذة دبقة كنتن لحم ابن عرس المتعفن فوق كوم الروث. وجعلناها موضعاً للفكاهة دوماً، ضحكنا حتى سالت الدموع على وجناتنا، ولكن حينما يغلله العرق كانت رائحة فظيعة تنبعث منه حتى ما يعود بوسعنا أن نطيق البقاء إلى جواره.

ذات أصيل حار اقترح هارليب أن نصحبه إلى نبع القرية، فلمنا أنفسنا إذ لم نفكر في ذلك من قبل، صعدنا درج القبو جاذبين يديه القاتمتين، وتجمع الأطفال في الميدان المحيط بنا مطلقين صيحات يغمرها الانفعال، فيما نحن منطلقون عدواً عبر الدرب

الحجري الذي أصلته الشمس ناراً.

عندما غدونا عراة كالطيور وجردناه من ثيابه ألقينا بأنفسنا إلى النبع معاً، ناثرين الماء بعضنا على البعض الآخر، ومتبادلين الصيحات. وملأتنا فكرتنا الجديدة بهجة، وكان الجندي الزنجي العاري من الضخامة حتى أن الماء ما كان ليصل بالكاد إلا إلى إليتيه حتى حين يدلف إلى أعمق جزء في النبع. حينما كنا ننثر الماء عليه كان يطلق صرخة تشبه قوقأة دجاجة يلوى عنقها، يدفع برأسه تحت سطح الماء، يظل مغموراً تحته إلى أن ينبعث واقفاً صارخاً ومطلقاً نثار ماء من فمه. تألق عريه مغموراً بالماء وعاكساً أشعة الشمس القوية مثلما جسد جواد أسحم وافر البدن بديع المنظر. وتكأكأنا حوله صائحين وناثرين الماء، وشيئاً فشيئاً تركت البنات ظل أشجار السنديان حيث كن غارقات في ترددهن، وأقبلن مسرعات إلى النبع، غمرن متلهفات عريهن الهزيل في الماء. وأمسك هارليب بإحدى البنات، شرع في أداء طقسه الشهواني، فدنونا بالجندي الزنجي، ومن أفضل موقع أطلعناه على مشهد هارليب منغمساً في مسرته. أغرقت الشمس بفيضها أجسادنا الصلبة جميعاً فيما راح الماء يضطرب ويتألق. وراح هارليب يطلق صيحة عالية وقد توهج حمرة وأغرب في الضحك في كل مرة يلطم فيها المؤخرة اللامعة المبللة بالرذاذ للبنت براحته. جأرنا بالضحك، فصاحت البنت خجلة.

فجأة أكتشفنا أن للجندي الزنجي ذكراً رائعاً، بطولياً، بديعاً على نحو يستعصي على التصديق. تجمعنا حوله لاطمين الأوراك العارية مشيرين نحوه وباعثين الضيق في نفسه. أمسك ذكره بقوة، تفخج في جبروت كذكر ماعز يوشك على التسافد، وجأر بصوته عالياً، ضحكنا حتى بكينا، ونثرنا الماء على ذكره. ثم اندفع هارليب عارياً على نحو ما هو عليه مبتعداً، حينما عاد ساحباً معزاة ضخمة جلبها من فناء المتجر العام. صفقنا معجبين بفكرته. فغر الجندي الزنجي فاه الوردي، وأطلق صيحة عالية، ثم رقص خارجاً من الماء وانحط على المعزاة الخائفة التي راحت تثغو. ضحكنا كأنما مسّنا الجنون. جالد هارليب ليحول بين المعزاة ورفع رأسها، فيما راح الجندي الزنجي يسافدها بقوة وذكره الأسود القوي يلتمع تحت الشمس، لكن الأمر لم يأخذ مجراه مثلما يحدث مع ذكر الماعز.

أغربنا في الضحك حتى لم يعد بمقدور سيقاننا أن تحملنا، أغربنا فيه حتى أننا حينما هوينا على الأرض في النهاية منهكين. وانسل الحزن إلى رؤوسنا الهشة. كان الجندي الزنجي بالنسبة لنا حيواناً مستأنساً عجيباً ونادراً، حيواناً عبقرياً. ترى، كيف أستطيع وصف

مدى حبنا له أو الشمس الوهاجة فوق جلدنا الغليظ المبتل في ذلك الأصيل الصيفي النائي الرائع.. الظلال العميقة المرتمية على الأحجار، رائحة الأطفال والجندي الزنجي، والأصوات التي حشرجها الفرح. كيف يمكنني أن أنقل زخم وإيقاع الأمر كله؟

بدا لنا أن الصيف الذي انحسر عن تلك العضلات المتألقة، الصيف الذي انبجس فجأة ودونما توقع شأن بئر نفط متمخضاً عن السعادة ومغرقاً إيانا في نفط أسود ثقيل، سيستمر للأبد ولن ينتهي قط.

في وقت متأخر من يوم حمامنا العتيق في النبع انحط مساء غليظ لف الوادي في الضباب، واستمر المطر في الهطول حتى وقت متأخر من الليل. وصباح اليوم التالي حرصت مع أخي وهارليب على أن نكون قريبين من جدار المخزن حاملين طعام الجندي الزنجي لتجنب المطر الذي كان لا يزال ينهمر. وعقب الإفطار احتضن ركبتيه، وراح يغني برقة أغنية في القبو المعتم. أخذنا في تبريد أصابعنا الممتدة في الرذاذ الذي كانت السماء تنثه، ولفتنا آماد صوته والشجن المتموج في أغنيته. وعندما انتهت الأغنية كانت السماء قد أقلعت، اقتدناه من ذراعه، ومضينا به باسمين إلى الميدان. انجاب الضباب سريعاً عن الوادي امتصت الأشجار فيضاً من الماء فانتفخت أوراقها وتضخمت حتى غدت كالصيصان. وحين هبت الريح ارتجفت الأشجار ناثرة وريقات مبللة وقطرات صانعة أقواس قزح مؤقتة اندفعت منها الزيزان. جلسنا على الحجر العريض عند مدخل القبو في الحر الذي بدأ يتصاعد وعاصفة الزيزان الحادة الصوت، ولوقت طويل رحنا نتنسم الهواء الذي يضوع بالأصوات الندية.

دونما حراك جلسنا هناك حتى الأصيل، وأقبل «الكاتب» حاملاً الرداء الواقي من المطر، هابطاً الطريق من الغابات، ومضى إلى دار العمدة. عندئذ انبعثنا واقفين، استندنا إلى جذع شجرة المشمش العتيقة المتقاطرة ماء، انتظرنا خروج «الكاتب» من ظلمة الدار لنحيط بالأمر علماً. لكنه لم يلح للعيون، وإنما شرع رنين جرس الإنذار يدوي منبعثاً من فوق مخزن حبوب العمدة داعياً الكبار العاكفين على العمل في الوادي والغابات. أطل الأطفال والنسوة من الدور التي ندّاها المطر إلى الدرب الحجري، تطلعت إلى الجندي الزنجي. فرأيت البسمة وقد أنجابت عن محياه. أطبق القلق الذي ولد في أعماقي فجأة على صدري محكماً قبضته. تركته، واندفعت مع أخي وهارليب عدواً نحو دار العمدة.

وقف «الكاتب» صامتاً على الأرض المتسخة عند المدخل، أما في الداخل فقد اقتعد

العمدة الأرض الخشبية متربعاً وقد استغرقته الأفكار. فيما انتظرنا تجمع الكبار بصبر نافد جالدنا لكي نبقي على جذوة الحياة في توقع بدأ اليأس يختلط به على نحو ما، عاد الكبار تدريجياً من الحقول في الوادي ومن الغابات مرتدين ملابس عملهم، وهم ينفخون سخطاً، وبينهم أبي الذي دب على الدرب المؤدي إلى مدخل الدار حاملاً العديد من الطيور الصغيرة وقد ربطت إلى ماسورة بندقيته.

في اللحظة التي بدأ فيها الاجتماع طرح «الكاتب» على الأطفال إيضاحاً ألقاه بلهجة أبناء المدينة قوامه أن السلطات قررت أن يسلم الجندي الزنجي للمحافظة. وكان من المقرر أصلاً أن يرسل الجيش من يتسلمه، ولكن فيما قال «الكاتب» كنتيجة لما يبدو أنه سوء فهم واضطراب عام في صفوف الجيش نفسه فقد صدر الأمر للقرية بأن يرافقه بعض رجالها إلى المدينة. ولن يتعين على الكبار إلا تجشم عناء محدود هو جلبه للمدينة، لكننا غرقنا في الدهشة وخيبة الأمل: نسلم الجندي الزنجي، وما الذي سيبقى في القرية إذن؟ سيصبح الصيف قشرة جوفاء، جلداً مطروحاً!

كان علي أن أحذره. وقد تسللت متجاوزاً الكبار، وعدت عدواً إلى حيث كان يجلس في الميدان أمام المخزن. وئيداً رفع بؤبؤيه المكتئبين نحوي، ونظر إليّ وقد وقفت أمامه لاهثاً. لم يكن بمقدوري أن أنقل إليه شيئاً، وما كان بوسعي إلا أن أحدق فيه والحزن والضيق يهزانني هزاً، وكان لا يزال يحتضن ركبتيه، وحاول النظر إلى عيني، وفي بطء انفتحت شفتاه الممتلئتان مثل بطن سمكة نهرية توشك على وضع بيضها، لاح لعاب أشهب كاسياً لثته. والتفتّ ورائي، فرأيت الكبار يغادرون مدخل دار العمدة المعتم وعلى رأسهم «الكاتب» ويدنون من المخزن.

هززت كتفه فيما هو جالس هنالك وصحت به مهتاجاً. كان الانفعال قد أخذ مني كل مأخذ، وأحسست بأني سأفقد الوعي. ماذا كان بوسعي أن أصنع، إذ استسلم لذراعي وهو يهزه صامتاً، التفت حوله هاطعاً بعنقه الغليظة، أرسلت كتفه، ونكست رأسي.

فجأة انبعث واقفاً شامخاً أمامي مثلما شجرة. أمسك بعضدي، جذبني إليه بإحكام، انطلق عدواً يهبط درج القبو. في القبو أحسست مصعوقاً كما لو اعتراني فالج من خلال انثناء فخذيه المشدودين وتقبض إليتيه وهو يتحرك في أرجاء المكان سريعاً. وجذب الباب المسحور، وأحكم إغلاقه بتمرير سلسلة شرك الخنزير الذي أصلحه خلال الحلقة الموجودة بالباب وتثبيتها حول الدعامة المعدنية الناتئة من الجدار. ثم عاد هابطاً الدرج ويداه

متشابكاتان ورأسه منحن، فنظرت إلى عينيه الغليظتين الحمراوين كالدم اللتين بدتا كما لو ملئتا وحلاً، عيناه المجردتان من التعبير، وأدركت على حين غرة أنه عاد مجدداً مثلما كان حينما أسره الكبار حيواناً أسود يرفض الفهم، مادة سامة على نحو خطر. وتطلعت إلى الجندي الزنجي العملاق، نظرت إلى السلسلة الملتفة حول الباب المسحور، وخفضت ناظري إلى قدمي الصغيرتين الحافيتين. اندلعت في أحشائي موجة من الخوف والدهشة ودومت حولها. نأيت عنه مسرعاً، ألصقت ظهري بالحائط. ووقف حيث كان وقد نكس رأسه. عضضت شفتي وحاولت مقاومة ارتعاش ساقي.

تجمع الكبار فوق الباب المسحور، وشرعوا يجذبونه برفق في أول الأمر، ثم فجأة بجلبة شديدة، كما لو كانت صادرة عن دجاجات تتعرض للمطاردة. لكن الباب الغليظ المصنوع من خشب السنديان الذي كان مفيداً للغاية في حجز الجندي الزنجي بصورة مضمونة في القبو أصبح الآن يحتجز في الخارج الكبار، والأطفال، والأشجار، والوادي.

أطلت قلة من الكبار في اهتياج شديد عبر الكوة، وفي التو أعقبهم آخرون لاطمين رؤوسهم في غمار التزاحم. وطرأ تغير مفاجىء على سلوكهم، ففي البداية كانوا يتصايحون، ثم غرقوا في الصمت، وضعت ماسورة بندقية عبر الكوة. وثب عليّ الجندي الزنجي، وضمني إليه في إحكام مستخدماً إياي كدرع في مواجهة البندقية، فيما ندّ عني أنين مبعثه الألم ورحت أتخبط بين ذراعيه، مدركاً الحقيقة القاسية. كنت أسيراً ورهينة! لقد تحول الجندي الزنجي إلى «العدو» وكان جانبي يحدث ضجة فيما وراء الباب. اندلع الغضب والشعور بالهوان والحزن الذي يبعث الضيق والمنبعث من التعرض للخيانة كألسنة اللهب عبر جسدي فأحرقتني حرقاً. وأطبق الخوف في المقام الأول متضخماً ومدوماً في أعماقي على زوري فجعلني أختنق بالدمع. سفحت الدموع بين ذراعي الجندي الزنجي الغليظتين ملتهباً بالغضب. كان قد أسرني. . .

سحبت ماسورة البندقية، تصاعد التصخاب، ثم بدأ نقاش طويل على الجانب الآخر من الكوة. ومضى الجندي الزنجي دون أن يخفف إحكام قبضته المؤلمة عن ذراعي إلى ركن لا يحلق فيه خطر الإصابة برصاصة قناص، واقتعد الأرض صامتاً، وجذبني قريباً منه. مثلما كنت أفعل حين كنا صديقين جلست على ركبتي العاريتين داخل دائرة الرائحة المنبعثة من جسمه. بين الفينة والأخرى كان أبي يحدق عبر الكوة، ويومىء لابنه الذي احتجز رهينة، وفي كل مرة كنت أبكي. ارتفع الغسق مثلما المد، في القبو ثم في الميدان

وراء الكوة، وعندما ساد الظلام بدأ الكبار يمضون إلى دورهم جماعة إثر أخرى صائحين ببضع كلمات تشجيعاً لي وهو ينصرفون. وعقب ذلك ولوقت طويل أصغيت لوقع أقدام أبي وهو يسير جيئة وذهاباً فيما وراء الكوة، ثم فجأة انصرف. لم يعد ثمة مؤشر للحياة فوق الأرض، فتكدس الليل في القبو.

أطلق الجندي الزنجي ذراعي، حدق فيّ كأنما آلمه التفكير في الألفة اليومية الدافئة التي تدفقت فيما بيننا حتى ذلك الصباح. وأشحت بناظري مرتجفاً من فرط الغضب وأبقيت عيني منكستين وكتفيّ مقوستين في عناد، حتى أدار لي ظهره، وتهالك رأسه بين ركبتيه. وحيداً كنت، مثلما ابن عرس وقع في شرك، تخلى عني الجميع، غدوت بلا حول، فغصت إلى قرار اليأس. وفي الظلمة لم تندّ حركة عن الجندي الزنجي.

أنتصبت واقفاً، ومضيت إلى الدرج. مسست شرك الخنزير البري، لكنه كان بارداً صلباً، رد أصابعي، سحق نبتة الأمل الذي لم يتشكل بعد. لم أدر ماذا عساي أصنع. ولم يكن بمقدوري تصديق الشرك الذي أطبق علي. كنت أرينباً برياً يضعف ويحتضر، فيما هو يحدق غير مصدق في المخالب المعدنية التي تنهش قائمة الجريح. كانت حقيقة أني وثقت بالجندي الزنجي بحسبانه صديقاً، حماقتي تلك التي لا تصدق، مصدر عذاب لي، ولكن كيف كان يسعني أن أشك في ذلك العملاق الزنجي النفاذ الرائحة الذي لم يأت شيئاً غير الابتسام! بل الآن ليس بمقدوري أن أصدق أن الرجل الذي تصطك أسنانه في الظلام أمامي هو ذلك الزنجي الأعجم ذو القضيب الضخم.

ارتجفت من البرد، اصطكت أسناني، بدأت معدتي تؤلمني. أقعيت على الأرض ضاغطاً على معدتي. صدمتني محنة أخرى مفاجئة، كنت على شك معاناة حالة حادة من الإسهال مصدرها الأعصاب المتوترة في بدني كله. لكني ما كنت لأستطيع إفراغ أحشائي أمام الجندي الزنجي. ضغطت على أسناني، وتحملت الألم فتألقت حبات العرق البارد على جبيني. تحملت محنتي وقتاً طويلاً حتى أن الجهد الذي بذلته في التحمل ملأ الفراغ الذي كان الخوف قد احتله.

لكني أخيراً وطنت نفسي على الاستسلام، سرت نحو البرميل الذي طالما ضحكنا وصحنا هازئين ونحن نرى الجندي الزنجي يعتليه، أرخيت سراويلي. أحسست بردفي العاريين الأبيضين واهنين مجردين من الدفاع، وبدا لي أن بمقدوري تلمس الهوان يجلل زوري ومريئي بل وحتى جدران معدتي بسواد حالك. حينما فرغت انبعثت واقفاً، وعدت

إلى الركن. كنت قد هزمت، فغصت غارقاً إلى قرار اليأس. بكيت طويلاً قامعاً صوت بكائي بقدر ما استطعت مسنداً جبيني المكفهر للجدار اللدائني. كان الليل ممتداً، والكلاب الجبلية تنبح في الغابات، وازداد الهواء برودة، وتملكني التعب ثقيلاً، فتراخيت على الأرض، وغبت في رحاب النوم.

عندما استيقظت كان الجندي الزنجي يحكم قبضته التي تكاد تصيبني بالشلل على ذراعي. تدفق الضباب وأصوات الكبار عبر الكوة، واستطعت كذلك سماع قرقعة ساق «الكاتب» الصناعية وهو يذرع الأرض قرب الكوة جيئة وذهاباً. لم ينقض وقت طويل قبل أن يختلط وقع ارتطام مطرقة ثقيلة بالباب المسحور مع الضوضاء الأخرى، وتردد صدى الطرقات الثقيلة في معدتي الخاوية، وأفعم صدري ألماً.

فجأة أخذ الجندي الزنجي يصيح، ثم أمسكني من كتفي، جرني منتزعاً إياي من الأرض حتى منتصف القبو، حيث يراني الكبار على الجانب الآخر من الكوة بوضوح كامل، واستطعت أن أفهم السر في ذلك. وحدقت العيون عند الكوة إلى عضوي المتدلي هنالك من أذنيه مثل أرنب صريع... لو أن عيني أخي النديتين كانتا هناك وسطها لكنت قد عضضت لساني خجلاً، لكن الكبار وحدهم تجمعوا حول الكوة محدقين فيّ.

تصاعدت ضجة وإيقاع المطرقة، فصرخ الجندي الزنجي، وأمسك بزوري من الخلف بيده الضخمة. غاصت أظافره في الجلد الرقيق، وجعل الضغط على تفاحة آدم التنفس مستحيلاً، ورحت أضرب الهواء بيدي وقدمي، ملقياً برأسي إلى الخلف، مصدراً أنيناً حاداً. كم كان إذلالي أمام الكبار مريراً! ثنيت جذعي محاولاً الإفلات من الجندي الزنجي الملتصق بظهري، لطمت ذقنه، لكن ذراعيه الغليظتين المشعرتين، كانتا صلبتين ثقيلتين، وعلت صرخاته الحادة على أنّاتي. انسحبت وجوه الكبار، تصورت أنه أكرههم على الإسراع لوقف تحطيم الباب المسحور. كف عن الصراخ، توقف الضغط الذي يحاكي صخرة انحطّت على عنقي، وعادت الحياة إلى حبي للكبار وشعوري بالقرب منهم.

لكن صوت المطرقة على الباب المسحور ازداد ارتفاعاً. عاودت وجوه الكبار الظهور عند الكوة، فأحكم الزنجي صارخاً لف أصابعه حول عنقي. جذبت رأسي للخلف، أفلتت شفتاي المفتوحتان صوتاً حاداً واهناً لم أستطع قمعه، كأنه صرخة حيوان صغير. حتى الكبار تخلوا عني. لم يتأثروا بمرآي وهو يخنقني حتى الموت، فواصلوا تحطيم الباب. حينما يندفعون عبر الباب المكسور سيجدونني وقد التوى عنقي مثلما عنق

ابن عرس وتصلبت يداي وقدماي. ورحت أتلوى مشتعلاً بالمقت واليأس، وبكيت، وأصغيت لصوت المطرقة الهائلة ورأسي مشدود للخلف مصدراً الأنين بلا خجل.

دوى في أذني صوت دواليب لا حصر لها تدور، أنسال الدم من أنفي مخضباً خدي ثم تناثر الباب المسحور أشلاء، وتراكمت أقدام موحلة عارية ذات شعر خشن يغطي حتى ظهر أصابعها مندفعة، وامتلأ القبو بكبار قبيحي الهيئة وقد ألهبهم الجنون. تشبث بي الجندي الزنجي صارخاً، وغاص وئيداً هابطاً على الحائط نحو الأرض، شعرت وقد التصق ظهري وردفاي في إحكام بجسمه العارق الدبق بتيار ساخن كالغضب يتدفق بيننا. وشأن قط فوجيء في غمار التسافد وعلى الرغم من خجلي فقد كشفت النقاب عن عدائي. كان عداء للكبار الذين تكأكأوا عند أسفل الدرج يرقبون هواني، عداء للجندي الزنجي الذي يعتصر زوري في هذه اليد الغليظة دافعاً أظافره في الجلد الرقيق، جاعلاً الدم يشخب منه، عداء لكل الأشياء التي اختلطت معاً وهي تتلوى صاعدة في أعماقي. كان الجندي الزنجي ينبح، وخدّر الضجيج طبلتي أذني، هنالك في القبو في أوج الصيف كنت أنزلق نحو غياب أي شعور متخماً كأني أفعمت نشوة. غطى لهاث الجندي الزنجي قفاي.

برز أبي من جمع الكبار وقد تدلت من يده بلطة. ورأيت عينيه محمومتين تتقدان غضباً كأنهما عينا كلب. نهشت أظافر الجندي الزنجي عنقي فند عني أنين، واندفع أبي نحونا، عندما رأيت البلطة ترفع أغمضت عيني، أمسك الجندي الزنجي بمعصمي، رفعه ليحمي به جمجمته، تفجر القبو كله في صرخة، سمعت صوت تهشم ذراعي الأيمن وجمجمة الجندي الزنجي. وعلى جلد ذراعه النفطي اللامع تحت فكي تجلط دم غليظ في قطرات مترجرجة. طار الكبار نحونا طيراناً، شعرت بذراعه تتراخى وبالألم يسفع بدني.

داخل جوال أسود دبق شرع جفناي الساخنان وزوري المحترق ويدي المسفوعة في لملمتي ومنحي شكلاً، لكني لم أستطع اختراق الغشاء الدبق والانطلاق متحرراً من الجوال شأن حمل ولد قبل أوانه. كنت ملفوفاً في جوال التصق بأصابعي. ولم أتمكن من تحريك جسدي. كان الوقت ليلاً والكبار يتحدثون قربي. ثم كان الصباح، فأحسست بوجود الضياء وراء جفني المغمضين. وبين الفينة والأخرى كانت يد ثقيلة تتلمس جبيني، فيندّ عني أنين، أحاول التخلص منها، لكن رأسي ما كان ليحير حراكاً.

في المرة الأولى التي أفلحت فيها في فتح عيني كان الصباح منسدل الضياء من جديد. كنت ممدداً على مرقدي في المخزن. وأمام مصراع المطر كان أخي وهارليب

يرقبانني. واصلت فتح عيني حتى حلق بصري إليهما، وحركت شفتي، وتسابقا يهبطان الدرج صائحين. وأقبل أبي والسيدة العاملة في المتجر العام. كانت معدتي تصرخ طالبة الطعام، ولكن حينما قرب أبي إبريق حليب ماعز من شفتي هزني الغثيان فأغلقت فمي، وصرخت بصوت عال، فتناثرت قطرات الحليب على زوري وصدري. لم أعد أطيق الكبار ومن بينهم أبي، الكبار الذي اندفعوا نحوي مكشرين عن نواجذهم ملوحين ببلطة، كانوا ماكرين لا يطالهم إدراكي، يثيرون الغثيان. وواصلت الصراخ حتى غادر أبي والآخرون الغرفة.

بعد قليل مس ذراع أخي في هدوء جسمي. أصغيت في صمت مغمض العينين لصوته الرقيق وهو يحدثني كيف أنه والآخرون ساعدوا في جمع الحطب لحرق جثة الجندي الزنجي وكيف أن «الكاتب» حمل أمراً بحظر الحرق، كيف أن الكبار ليؤخروا عملية التحلل حملوا الجثة إلى المنجم المهجور في الوادي وانهمكوا في إقامة سياج لإبعاد الكلاب البرية عنها.

حدثني بصوت تغشاه الرهبة مراراً كيف أنه ظن أني لقيت حتفي، فقد رقدت يومين هنا دون أن أطعم شيئاً، لذا ظن أني مت. دلفت إلى رحاب النوم الذي اجتذبني على نحو لا يقاوم كأنه الموت ويد أخي فوقي.

استيقظت في الأصيل، ورأيت للمرة الأولى أن يدي المهشمة ملفوفة في قماش. رقدت طويلاً على ما أنا عليه دونما حراك. تطلعت إلى الذراع الساكنة فوق صدري وقد تورمت للغاية حتى لم يعد بمقدوري أن أصدق أنها ذراعي. لم يكن هناك أحد في الغرفة، تسللت رائحة تزكم الأنوف عبر النافذة، أدركت مغزاها، لكني لم أشعر بالحزن.

أعتمت الغرفة، تحول الهواء إلى البرودة في الوقت الذي اقتعدت فيه المرقد. بعد تردد طويل أحكمت طرفي الضمادة معاً، توشحتها عبر رأسي كالمعلاق، ثم أطللت من النافذة المفتوحة، متطلعاً من أعلى القرية. كانت الرائحة النفاذة المتدفقة بلا هوادة من جثة الجندي الزنجي الثقيلة تلف الطريق الحجري والمباني والوادي الذي يدعمها كصرخة غير مسموعة صادرة من الجثة تلفنا وتمتد بلا حدود فوق الرؤوس كأنما في كابوس. وضرب الغسق أطنابه. وحومت السماء الرمادية الدامعة التي تضم لمسة من اللون البرتقالي فوق الوادي مباشرة، فجعلته أكثر ضيقاً.

بين الفينة والأخرى كان الكبار يسرعون هابطين الوادي في صمت، بارزي الصدور، في كل مرة يظهرون فيها كنت أحس بهم دافعين الغثيان في حلقي والخوف في أعماقي

فانكمش منسحباً داخل النافذة. وبدا الأمر كما لو كانوا قد تحولوا خلال رقادي إلى وحوش غير إنسانية. كان جسمي مكتئباً وثقيلاً كأنما ملىء بالرمال الرطبة.

ارتعدت من فرط الشعور بالبرد، وعضضت شفتي المحترقتين، وراقبت أحجار الطريق غارقة في ظل ذهبي شاحب أولاً، ينداح متدفقاً، ثم يتحول إلى لون نبيذي باهر، وتواصل الخطوط الخارجية تضخمها إلى أن تنغمس في الأخير مختفية في نور أرجواني واهن كامد. بين الحين والآخر كانت الدموع الملحية تبلل شفتي المشققتين وتجعلهما تؤلمانني ألماً لاذعاً.

تناهت إليّ صيحات الأطفال بين الفينة والأخرى من وراء المخزن متخللة رائحة جثة الجندي الزنجي. خطوت هابطاً الدرج المعتم متوخياً الحذر في كل خطوة راعشة أخطوها، وسرت على امتداد الدرب الحجري المهجور نحو مصدر الصياح.

كان الأطفال متجمعين على المنحدر النامي العشب الهابط نحو النهير عند قرار الوادي وكلابهم تعدو حولهم وتنبح. وفي وسط النباتات الكثيفة على امتداد النهر وراءهم كان الكبار لا يزالون عاكفين على إقامة سياج ضخم لإبعاد الكلاب البرية عن المنجم المهجور. وتردد صدى صوت كتل الخشب وهي تغرس في الأرض مقبلاً من الوادي، وكانوا يعملون صامتين، أما الأطفال فقد راحوا يجرون في جنون في دوائر على المنحدر صارخين في مرح.

استندت إلى جذع شجرة بولفينية عتيقة، ورحت أنظر إلى الأطفال في لهوهم. كانوا يتزلجون على المنحدر المعشب مستخدمين ذيل طائرة الجندي الزنجي المحطمة كمزلجة، ويمضون منحدرين على التل مثل حيوانات صغيرة وقد امتطوا المزلجة الحادة الحافة البهيجة على نحو بديع. وحين كانت المزلجة تبدو وكأنما حاق بها خطر الارتطام بإحدى الصخور الناتئة من العشب هنا وهناك كان راكبها يلطم الأرض بقدمه الحافية ويغير الاتجاه. وعندما يكون أحدهم قد جر المزلجة متسلقاً التل يكون العشب الذي انحنى تحت وقرها خلال الهبوط قد استقام وئيداً عائداً سيرته الأولى، مخفياً مسار الرحالة الجريء. كان الأطفال والمزلجة من الخفة بحيث يسمحون بذلك، مضوا يتزلجون منحدرين صارخين والكلاب تتبعهم نابحة ثم يجرون المزلجة عائدين. كانت روح حركة لا تقمع كالغبار الناري الذي يسبق مقدم ساحر تقرقع وتعدو وسطهم.

ترك هارليب جميع الأطفال، أقبل يعدو متسلقاً المنحدر نحوي. واستند إلى جذع

شجرة سنديان دائمة الخضرة تشبه قائم غزال وبين أسنانه سويقة نبتة منزوعة. حدق في وجهي، فأشحت بناظريّ بعيداً متظاهراً بالاستغراق في تأمل التزلج، ونظر عن كثب إلى ذراعي في المعلاق، قال مصدراً شخيراً:

ـ رائحة تصدر عنها، يدك المهشمة تفوح برائحة كريهة.

كانت عيناه تتوهجان بشهوة الشجار وقدماه منغرستين متباعدتين استعداداً للهجوم. حدجته بنظرة متألقة، لكني لم أثب على عنقه.

قلت بصوت واهن متهدج:

ـ لست مصدرها، إنها رائحة الزنجي.

وقف هنالك مصعوقاً يرقبني، أشحت بناظري عاضاً شفتي، وتطلعت إلى تألق العشب القصير البديع الذي دفن كاحليه الحافيتين. هز كتفيه باحتقار جلي، وبصق بقوة، ثم انطلق عدواً صائحاً في عودته إلى أصدقائه اللاهين بالمزلجة.

لم أعد طفلاً ـ أفعمتني الفكرة مثلما الإلهام، المشاجرات الدموية مع هارليب، صيد العصافير في ضوء القمر، التزلج، الجراء البرية، تلك أمور تخص الأطفال، لم يعد لي شأن بذلك النوع من الارتباط بالعالم.

مجهداً ومرتعشاً من البرد، اقتعدت الأرض التي احتفظت بدفء الظهيرة، وحينما نظرت منحنيا حجب عشب الصيف الوافر عمل الكبار الصامت عند قرار الوادي عني، ولكن الأطفال اللاهين بالمزلجة لاحوا أمامي فجأة مثلما آلهة غابات تكتنف العتمة أشكالهم السحماء عند المغيب. وسط آلهة الرعاة الصغار أولئك المدومين في دوائر مع كلابهم مثل ضحايا تلوذ بالهرب من الفيضان، عمق هواء الليل تدريجياً في لونه، لملم ذاته، وأصبح شفيفاً.

ـ إيه، يا «ضفدع»، هل تشعر بتحسن؟

ضغطت يد جافة ساخنة رأسي من الخلف، لكني لم ألتفت أو أحاول الوقوف، رمقت بمقلتي فحسب ودون أن أتحول بعيداً عن الأطفال اللاهين على المنحدر الطرف الصناعي لـ «الكاتب» وقد انغرس بثبات إلى جوار ساقي العاريتين، حتى «الكاتب» جعل حلقي يجف بوقوفه إلى جواري.

ـ ألن تقوم بدورة بالمزلجة يا «ضفدع»؟ حسبت أنها فكرتك.

التزمت الصمت في عناد، وعندما اقتعد الأرض مقرقعاً بساقه الصناعية، انتـزع من جيب سترته الغليون الذي أهداه إياه الجندي الزنجي، وحشاه بطباقه، فلفتني رائحة قوية داعبت الأغشية الرقيقة في أنفي وهيجت مشاعر حيوانية. عبق الأجمة المحترقة، لفتني معه في الغمام الأزرق الشاحب ذاته.

قال:

ـ عندما تبدأ حربٌ ما في تهشيم أصابع الصبية فإنها تكون قد مضت أبعد مما يطاق.

تنفست بعمق، ملتزماً الصمت. لا بد أن الحرب، تلك المعركة الطويلة الدموية الهائلة النطاق، لا تزال دائرة الرحى، الحرب التي تشبه فيضانـاً يكتسـح أمامـه قطعـان الأغنام ويلحق الدمار بالعشب في بلاد نائية لم يكن يفترض قط أنها ستصل قريتنا لكنها أقبلت لتهشم أصابعي وتحولها إلى كتلة دائرية، لتجعـل أبي يلوح ببلطته وقد سكر بدنه بدم الحرب، فجأة لملمت قريتنا في طياتها، وفي العجاج ما عاد بمقدوري التنفس.

قال «الكاتب» جاداً كما لو كان يحادث واحداً من الكبار:

ـ لكنها لا يمكن أن تمضي أبعد من ذلك، فقد بلغ الحال بالجيش أنك لا تستطيع تمرير رسالة، وما من أحد يعرف ماذا يصنع.

تواصل دوي المطارق. الآن جثمت رائحة الجندي الزنجي على القرية بأسرها، مثلما الفروع الدنيا الوافرة النماء لشجرة خفية عملاقة.

قال مصغياً لدوي المطارق:

ـ لا يزالون عاكفين على العمل، أبوك والآخرون بدورهم لا يعرفون ماذا يفعلون؛ من ثم يقضون وقتهم في غرس أخشاب ذلك السياج!

أصغينا في صمت للدوي الثقيل الذي ترامى إلى مسامعنا متقاطعاً مع صياح الأطفال وضحكهم. وشرع في الحال وبأصابع محنكة يفصل ساقه الصناعية، راقبته فيما كان عاكفاً على هذا

صاح بالأطفال:

ـ إيه أحضروا تلك المزلجة هنا!

جر الأطفال ضاحكين صارخين المزلجة صاعدين بها المنحدر. وتقافز علـى ساق

واحدة، شاقاً طريقه وسط الأطفال المتحلقين المزلجة. والتقطت ساقه الصناعية وجريت هابطاً المنحدر. كانت ثقيلة و إمساكها بيد واحدة عسيراً يبعث الضيق.

بلل الندى الذي شرع يتكون في العشب الوافر ساقي العاريتين، فالتصقت بهما وريقات الشجر الجافة، فأثارت ضيقي. وقفت في قرار المنحدر منتظراً، ممسكاً بالساق الصناعية. كان الليل قد أرخى سدوله بالفعل، وحدها أصوات الأطفال عند قمة المنحدر كانت تهز الغشاء الغليظ للهواء المعتم الكامد على وجه التقريب.

ترامت إليّ هبة من الصيحات والضحكات أكثر ارتفاعاً وصوت تزلج رقيق عبر العشب لكن المزلجة لم تشق الهواء الدبق لتبدو أمامي. ظننت أني سمعت الوقع الكئيب لارتطام، وقفت حيث كنت محدقاً في الهواء المعتم. بعد صمت طويل رأيت أخيراً ذيل الطائرة يتحدر نحوي عبر المنحدر بلا راكب. ألقيت بالساق الصناعية على العشب وانطلقت عدواً أرقى المنحدر المظلم. وإلى جوار صخرة ناتئة السواد من العشب بللها الندى رقد «الكاتب» بذراعيه مفتوحتين متهالكتين على ظهره، مكشراً من فرط الألم. وانحنيت فوقه، رأيت الدم الغليظ القاتم يسيل من أنفه وأدنى وجهه الذي كسته تكشيرة الألم. ارتفعت الضجة التي أثارها الأطفال وهم يقبلون عدواً هابطين المنحدر، فعلت على زفيف الريح التي تهب من الوادي.

تركت جثة «الكاتب» لأتجنب التفاف الأطفال حولي. وقفت على عشب المنحدر. كنت قد ألفت سريعاً الموت المفاجىء والتعبيرات التي ترتسم على وجوه الموتى حزينة في بعض الأحيان مكشرة في أحيان أخرى على نحو ما ألفها الكبار. سيحرق «الكاتب» بالحطب الذي جمع لحرق الجندي الزنجي. ونظرت دامع العينين إلى السماء التي أخذت العتمة بخناقها وما تزال شهباء بنور الشفق. هبطت المنحدر المعشب لأبحث عن اخي.

أجوي المسخ السماوي

وحيداً في غرفتي، أضع على عيني قطعة قماش كتلك التي كان القراصنة يضعونها، لربما تبدو العين على ما يرام، لكنها في الحقيقة تفتقر تقريباً إلى أي إبصار. أقول تقريباً لأنها ليست مصابة بالعمى تماماً؛ من ثم فإنني عندما أتطلع إلى هذا العالم بعيني كلتيهما فإنني أرى عالمين رُكّب أحدهما فوق الآخر تماماً، عالم غامض غارق في الظلال يعلو عالماً مشرقاً متوهجاً بالحيوية. بوسعي أن أمضي في شارع ممهد فيوقفني شعور بالخطر وعدم التوازن شأن جرذ ينطلق مسرعاً خارجاً من مجرور مستميتاً في تعقبي أو أكتشف غشاء من التعاسة والإرهاق على محيا صديق مرح وأوقف انسياب حديث سلس بفأفأتي. أعتقد أني سأعتاد هذا. فإن لم أعتده فإنني أعتزم أن أضع نظارتي القماشية على عيني لا في غرفتي فحسب وحينما أنفرد بنفسي، وإنما في الطريق ومع أصدقائي، فربما يمر غرباء بي وقد ارتسمت على شفاههم ابتسامات عريضة ـ يا لها من مزحة عتيقة! ـ لكني بلغت من العمر ما لا أشعر معه بالضيق جراء ماهان شأنه من الأمور.

تدور القصة التي اعتزم روايتها حول تجربتي الأولى في كسب المال. وقد بدأت بالحديث عن عيني اليمنى لأن ذكرى تلك التجربة التي وقعت قبل عقد من الزمان انبعثت متدفقة بالحياة فجأة، ودونما مناسبة لذلك، عندما تعرضت عيني لوطأة العنف في الربيع الماضي. يتعين عليّ أن أضيف أنني في غمار استعادتي للذكرى كنت متحرراً من المقت الجاثم في قلبي والذي شرع يكبلني، وفي النهاية ذاتها سوف أتناول بالحديث الحادثة ذاتها.

قبل عقد من الزمان كانت لي حدة البصر التي يرمز لها بالكسر الاعتيادي ستة على

ستة. أما الآن فقد أصاب التلف إحدى عيني. لقد انطلق الزمن رافعاً ذاته من فوق لوحة محجر عين لطمها حجر. عندما التقيت لأول مرة بذلك المجنون العاطفي النزعة لم يكن فهمي للزمن إلا فهم طفل صغير. كان علي أن أحقق الوعي الضاري بالزمن وهو يحفر عينيه في ظهري والزمن وهو راقد منتظراً أمامي.

ومنذ عشر سنوات كنت في الثامنة عشرة من العمر، يصل طولي إلى خمسة أقدام وست بوصات، يبلغ وزني مائة وعشرة أرطال. وقد التحقت لتوي بالدراسة في الجامعة، وكنت أبحث عن عمل بعض الوقت. ورغماً عن أنني كنت لا أزال أجد صعوبة في القراءة بالفرنسية فقد أردت الحصول على نسخة مقواة الغلاف من «الصديق المرح» بمجلديه. كانت طبعة صادرة عن موسكو، وليست مزودة بمقدمة فحسب وإنما بشروح في الهوامش بل وشارة دار النشر بالروسية وفي سطور رفيعة. كجزئيات خيط يربط حروف النص الفرنسي. طبعة بديعة على وجه اليقين، لكنها أكثر متانة وأناقة من الطبعة الفرنسية وأرخص كثيراً. اكتشفتها في ذلك الوقت في مكتبة متخصصة في إصدارات شرقي أوروبا.

لم أكن أكترث برومان رولان، ورغماً عن ذلك فقد شرعت تواً في التحرك بغية امتلاك المجلدين. غالباً ما كنت في تلك الأيام الخوالي أذعن لانفعال غير عادي. لم أكترث قط لذلك؛ إذ كنت أشعر بأنه ليس هناك ما يثير القلق طالما أن الانفعال يتملك ناصيتي بقدر كاف من الاستحواذ.

لما كنت قد التحقت بالجامعة لتوي ولم أدرج بعد بمركز التشغيل فقد رحت أبحث عن العمل بالاتصال بمعارفي. أخيراً قدمني عمي إلى أحد كبار المتمولين كان قد تقدم بعرض لتشغيلي. سألني: «هل تصادف أن شاهدت فيلماً بعنوان هارفي؟» قلت: «نعم» حاولت أن أرسم ابتسامة توحي بالاعتدال ولكن بالاجتهاد كذلك تناسب شخصاً يوشك أن يلحق بعمل للمرة الأولى. كان «هارفي» هو ذلك الفيلم الذي أبدعه جيمي ستيوارت عن رجل يحيا مع أرنب خيالي ضخم في حجم دب، وقد جعلني أغرب في الضحك حتى خيِّل إلي أني سألقى حتفي. لم يردّ رجل الأعمال ابتسامتي، بل مضى في حديثه:

ـ لقد ساورت الأوهام ذاتها ولدي مؤخراً، فتوقف عن العمل واعتكف في غرفته، وأود أن يخرج من الدار بين الحين والاخر، لكنه بالطبع سيحتاج إلى مرافق، هل يثير الأمر اهتمامك؟ـ

كنت أعرف القليل عن ابن رجل الأعمال، كان مؤلفاً موسيقياً شاباً حظيت موسيقاه

الطليعية بالجوائز في فرنسا وإيطاليا، وكان بصفة عامة مدرجاً في الدوائر المخملية التي تنشر صورها في المجلات الأسبوعية، في إطار نوعية المقالات التي تسمى دائماً: «فنانو الغد في اليابان» لم يقدر لي قط الاستماع لأعماله الكبرى لكني رأيت العديد من الأفلام التي وضع موسيقاها. كان هناك فيلم عن مغامرات مراهق جانح يضم موضوعة موسيقية تعزف على الهارمونيكا. كان بديعاً. أذكر أني لدى مشاهدة الفيلم ساورني شعور غامض بالاضطراب إزاء فكرة أن أحد الكبار في الثلاثين من عمره على وجه التقريب (ألحق أن الموسيقي كان حينما التحقت بالعمل لديه في الثامنة والعشرين من عمره وهو عمري الحالي) يؤلف قطعة موسيقية تعزف على الهارمونيكا. وأعتقد أن ذلك يرجع إلى أن الهارمونيكا الخاصة بي أصبحت ملكاً لأخي الصغير حينما التحقت بالمدرسة الابتدائية، وربما لأني أعرف عن الموسيقي واسمه د. أكثر من الحقائق التي يلم بها الجمهور؛ إذ كنت أعلم أنه قد أثار فضيحة. وبصفة عامة فإنني لا أكن للفضائح إلا الازدراء، لكنني علمت أن ولد الموسيقي الصغير قد مات وأنه كنتيجة لذلك طلق زوجته، وقد دارت شائعات حول علاقة ربطته بإحدى ممثلات السينما، ولم أكن أدري أنه قد سقط في قبضة شيء من نوعية الأرنب في فيلم جيمي ستيوارت أو أنه توقف عن العمل واعتكف في غرفته. تساءلت عن مدى خطورة حالته. أتراها حالة انهيار عصبي أم إنه مصاب بالسوداء على نحو جلي؟

قلت ساحباً ابتسامتي:

- لست على يقين من أني أعرف ما تعنيه بالمرافق، من الطبيعي أني أود أن أكون مفيداً إذا كان ذلك بمقدوري.

حاولت هذه المرة، مخفياً فضولي وتخوفي، أن أضفي على صوتي وملامحي قدر ما أستطيع من تعاطف دون أن أبدو مندفعاً. لم يكن ذلك إلا عملاً لبعض الوقت، لكنها كانت الفرصة الأولى التي أتيحت أمامي للعمل، وقد عقدت العزم على انتهازها لاداء أفضل ما يمكنني القيام به.

- عندما يقرر ابني الذهاب إلى مكان ما في طوكيو فعليك بالذهاب معه - هذا كل ما هنالك. ثمة ممرضة بالدار، وهي لا تعاني من صعوبة في التعامل معه، من ثم فلا يساورنك القلق حول التعرض لعنف.

جعلني رجل الأعمال أشعر بشعور جندي اكتشف جبنه، فتضرج وجهي بحمرة الخجل، وقلت محاولاً استعادة الأرض التي خسرتها:

- إنني مولع بالموسيقى، واحترم مؤلفيها أكثر من الجميع، لذا فإنني أتطلع إلى مرافقة د. وإلى تبادل الحديث معه.

- إن كل ما يفكر فيه هذه الأيام هو ذلك الشيء في رأسه، وهذا فيما يبدو هو كل ما يتحدث عنه.

جعلت فظاظة رجل الأعمال وجهي يزداد احمراراً، وأضاف:

- يمكنك الذهاب لرؤيته غداً.

- في دارك؟

- تماماً. أتظن أنه في بيمارستان؟

ما كان بمقدوري من نغمة صوته إلا أن اعتقد أنه في أعماقه رجل كريه.

قلت وعيناي منكستان:

- إذا حصلت على العمل فسأمر بك من جديد لتقديم الشكر لك.

كان بمقدوري أن أصيح بها في يسر.

- كلا، سيلحقك بالعمل (ليكن إذن، حسمت الأمر متحدياً، سأدعو د. صاحب عملي) من ثم لن يكون هذا ضرورياً. كل ما يهمني ألا يتورط في أي لون من المتاعب خارج الدار مما يمكن أن يتحول إلى فضيحة . . . فلا بد من الاهتمام بحياته العملية، ومن الطبيعي أن ما يفعله ينعكس عليّ.

هكذا كان، حدثت نفسي بأني قد عهد لي بأن أكون الحارس الأخلاقي الذي يرعى أسرة رجل الأعمال مخافة الوقوع في تلوث ثان بسموم الفضيحة. بالطبع لم أقل شيئاً، وإنما أومأت برأسي على نحو يوحي بإمكانية الوثوق بموقفي حريصاً على بعث الدفء في قلب رجل الأعمال البارد بحرارة إمكانية الاعتماد عليّ. بل لم أطرح عليه سؤالاً شديد الإلحاح، وهو شيء تصعب الإجابة عليه حقاً: هذا المسخ الذي يعاود ابنك، سيدي، أهو أرنب يشبه ذلك الذي قدمه هارفي يبلغ طوله ستة أقدام تقريباً؟ أهو مخلوق يغطيه شعر كث كرجل جليد مقيت المظهر؟ أي نوع من المسخ هو؟ التزمت الصمت في النهاية وعزيت نفسي بالتفكير في أنى قد يكون بمقدوري انتزاع السر من الممرضة إذا ما أفلحت في مصادقتها.

غادرت مكتب رجل الأعمال. وفيما كنت أمضي عبر البهو صاراً على أسناني من جراء الشعور بالمهانة، كما لو كنت جوليان سوريل عقب مقابلته لأحدى الشخصيات المهمة، تملكني الشعور بالذات حتى أطراف أصابعي، وحاولت تقدير موقفي وفعاليته. عندما تخرجت من الجامعة اخترت ألا أسعى وراء وظيفة يمتد العمل فيها من التاسعة صباحاً إلى الخامسة بعد الظهر، وإني لأؤمن بأن ذكرى حواري مع رجل الأعمال الكريه ذاك قامت بدور كبير في اتخاذي لقراري.

رغماً عن ذلك فحينما انتهت المحاضرات في اليوم التالي ركبت القطار إلى الضاحية السكنية التي يقيم بها المؤلف الموسيقي. وفيما كنت أمر عبر بوابة تلك الدار التي تشبه القلعة أذكر أن زئير حيوانات رهيبة قد علا كأنما في حديقة حيوانات عند منتصف الليل. أحسست بالضيق، شعرت برعدة لدى التساؤل: ما الذي يمكنني أن أفعله إذا كانت تلك صيحات صاحب العمل؟ كان أمراً طيباً أنه لم يخطر ببالي عندئذٍ أن هذه الصرخات الوحشية كان يمكن أن تكون صادرة عن المسخ الذي يطارد د. شأن أرنب جيمي ستوارت. وأياً ما كانت تلك الأصوات فقد بلغ جلاؤها الحد الذي جعلني أرتعد حتى أن الخادم التي أرشدتني كانت من البعد عن اللياقة بحيث ندت عنها ضحكة. ثم اكتشفت شخصاً آخر يضحك دون أن يند عنه صوت في العتمة وراء نافذة في ملحق بالحديقة. كان هو الرجل الذي يفترض أنه سيلحقني بالعمل لديه، وكان يضحك شأن وجه في فيلم غير مصحوب بشريط الصوت، وحوله راحت تغلي أصوات عواء وزئير الحيوانات المفترسة تلك. أصغيت عن كثب، فأدركت أن حيوانات عديدة من النوع نفسه كانت تصرخ في جوقة واحدة، وبأصوات أشد حدة من أن تنتمي إلى دنيانا هذه. تركتني الخادم عند مدخل الملحق، وأدركت أن الصراخ هو على وجه القطع جزء من مجموعة تسجيلات الموسيقار، فاستعدت شجاعتي، شمخت بقامتي، وفتحت الباب.

ذكّرني داخل الملحق بروضة أطفال، فلم تكن هناك حواجز في الحجرة الرحيبة، وإنما آلتان للبيان وأرغن كهربائي، والعديد من التسجيلات، وحاكٍ - شيء كنا نسميه «بجهاز الخلط» حينما كنت في نادي الإذاعة بالمدرسة الثانوية - لم يكن هناك موضع لقدم على وجه التقريب. على سبيل المثال تبين أن كلباً غافياً على الأرض لا يعدو أن يكون بوقاً من النحاس المحمر. كان المكان تماماً كما تصورت قاعة موسيقار، بل لقد ساورني وهم مشاهدة هذا المكان من قبل. وكان والد د. قد ذكر أنه توقف عن العمل واعتكف في حجرته، أتراه قد جانبه الصواب؟

كان الموسيقار يوشك على إيقاف المسجل. وبداغارقاً في فوضى لم تكن مجردة من نظامها الخاص. حرك يديه سريعاً، في لحظة امتصت حفرة مظلمة من الصمت تلك الصرخات الوحشية. ثم اعتدل واقفاً، والتفت إلي بابتسامة هادئة حقاً.

بعد أن ألقيت نظرة خاطفة على الغرفة ورأيت أن الممرضة لم تكن موجودة تملكني قسط من القلق، لكن الموسيقار لم يبد عليه قط ما يشير إلى أنه قد يلجأ إلى العنف.

قال بصوت خفيض رنان:

- حدثني أبي عنك، تعال! ثمة فراغ هناك.

انتزعت نعلي، خطوت على السجادة، دون أن انتعل خفين. ثم بحثت عن مكان أجلس فيه، غير أنه باستثناء مقعد عال مستدير أمام آلة البيان والأرغن لم تكن هناك قطعة أثاث في الغرفة، لم يكن هناك حتى وسادة، لذا ضممت قدمي معاً بين زوجين من طبول البونجو وبعض صناديق الشرائط الفارغة. هناك وقفت على نحو غير مريح. وقف الموسيقار هنالك بدوره وذراعاه متدليتان إلى جواره. تساءلت عما إذا كان يجلس قط. لم يطلب مني الجلوس كذلك، وإنما وقف هناك صامتاً، مبتسماً.

- أيمكن أن تكون تلك أصوات قردة؟

قلتها محاولاً تحطيم جدار الصمت الذي يهدد بالتصلب بأسرع من أي نوع من الإسمنت.

- إنها وحيدة القرن - يرن صوتها على هذا النحو لأنني زدت سرعة الدوران ورفعت درجة حدة الصوت أيضاً، على الأقل أعتقد أنها وحيدة القرن، وحيدة القرن هو ما طلبته حينما أمرت بإعداد هذا الشريط، ليس بوسعي بالطبع أن أكون على يقين حقاً، ولكن الآن وقد حضرت فسيكون بمقدوري الذهاب إلى حديقة الحيوانات بنفسي.

- هل لي أن أفهم هذا باعتباره يعني أنني قد عُيِّنت؟

- بالطبع! فلم أحضرك إلى هنا لأختبرك. كيف يمكن لمجنون أن يختبر شخصاً عادياً؟

قال الرجل الذي سيغدو صاحب العمل هذا بموضوعية وكما لو كان قد مسه الشعور بالحرج، الأمر الذي جعلني أشعر بالتقزز لما فيما قلته من خنوع: هل لي أن أفهم هذا باعتباره يعني أنني قد عُينت؟ لقد بدا كما لو كان قول بائع في حانوت! كان الموسيقار

مختلفاً عن أبيه وكان يتعين أن أكون أكثر مباشرة معه.

ـ أود ألا تصف نفسك بالجنون، ذلك يحرجني.

شيء طيب أن تحاول أن تكون صريحاً ولكن يا لها من ملاحظة! لكن الموسيقار قابلني في منتصف الطريق بقوله:

ـ ليكن. إذا كان هذا هو شعورك، أعتقد أن ذلك يجعل العمل أكثر سهولة.

العمل كلمة غامضة، لكن على الأقل خلال هذه الشهور القلائل التي دأبت فيها على زيارة الموسيقار مرة كل أسبوع لم يقترب من العمل حتى بقدر الذهاب إلى حديقة الحيوان لتسجيل صوت وحيد القرن لنفسه. وكان كل ما يفعله هو أن يضرب على غير هدى في أرجاء طوكيو في سبل المواصلات العديدة أو على الأقدام ويزور العديد من الأماكن المختلفة.

من المحقق أنه عندما ذكر العمل كان يعني عملي، وقد عملت كثيراً، بل وذهبت في مهمة له قاطعاً الطريق حتى كيوتو.

قلت:

ـ إذن متى ينبغي أن أبدأ.

ـ تواً إذا كان ذلك يناسبك. الآن.

ـ هذا يناسبني تماماً.

ـ سيتعين علي أن أتأهب. هل لك أن تنتظر بالخارج؟

شق مخدومي طريقه بحذر إلى الغرفة الخلفية وقد أحنى رأسه، كأنما كان يخطو في مستنقع، عابراً الآلات الموسيقية والأجهزة الصوتية ورزم المخطوطات. واتجه إلى باب خشبي أسود، فتحه، ثم أغلقه وراءه. ألقيت نظرة سريعة على امرأة ترتدي زي ممرضة، امرأة في أوائل الأربعينات من عمرها ذات وجه يميل إلى الاستطالة وظلال ثقيلة على خديها ربما كانت تجاعيد أو ندوباً. بدت وقد أحاطت الموسيقار بذراعها اليمنى وهي تدخله الحجرة فيما أغلقت الباب بيدها اليسرى. لو أن هذا كان جزءاً من المسار المعتاد للحياة فلن تتاح لي فرصة الحديث معها قبل أن أخرج مع مخدومي. وانتعلت حذائي واقفاً أمام الباب الموصد في الجزء الأكثر عتمة من الحجرة. شعرت بقلقي إزاء عملي هذا يتفاقم. كان الموسيقار قد ظل على ابتسامه طوال الوقت، وحينما سألته سؤالاً متمهلاً رد عليّ، لكنه لم يتطوع بالكثير من المبادرات. ترى أكان ينبغي عليّ أن أكون أكثر تحفظاً؟

وبما آن كلمة «الخارج» كان يمكن أن تعني أمرين وبما أنني عقدت العزم على أن كل شيء ينبغي أن يكون كاملاً في عملي الأول فقد قررت الانتظار داخل البوابة مباشرة من موضع يمكنني منه أن أرى الملحق الكائن في الحديقة.

كان د. رجلاً ضئيل البنية، ناحلها، لكن رأسه كان يبدو أكبر من المألوف، ولجعل جبينه الذي يشبه صخرة من عظام أقل بروزاً كان يمشط شعره الشاحب الذي يجيد تنظيفه والذي يشبه الزغب فيميله على جبينه. أما فمه وفكه فكانا صغيرين وأسنانه غير منتظمة على نحو مفزع. رغماً عن ذلك، وربما بسبب لون عينيه العميقتي الغور، فقد كان وجهه يبدو سليم الملامح على نحو ساكن ومتماش مع ابتسامة هادئة. أما عن الانطباع العام فقد كان ثمة شيء شبيه بالكلاب فيما يتعلق بالرجل. كان يرتدي سراويل من قماش خفيف وسترة ذات خطوط كالبراغيث. كانت كتفاه متهدلتين قليلاً وذراعاه طويلتين على نحو غير مألوف.

عندما خرج من الباب الخلفي للملحق كان يرتدي سترة زرقاء من صوف محبوك النسيج فوق صداره الآخر وينتعل حذاء تنس أبيض اللون. ذكرني مرآه بمدرس الموسيقى في مدرسة ابتدائية. وقد أمسك في إحدى يديه بلفاع أسود. وكما لو كان متحيراً حول ما إذا كان عليه أن يلف عنقه به وشت بسمته لي بالاضطراب فيما كنت منتظراً عند البوابة. وعلى امتداد معرفتي بـ د.، اللهم إلا عند النهاية ذاتها حينما كان راقداً في الفراش بالمستشفى، كان دوماً يرتدي هذا الزي. أذكر رداءه جيداً لأنني كنت أشعر دوماً بشيء هزلي في ارتداء أحد الكبار لسترة محبوكة حول كتفيه كأنما هو امرأة متنكرة في زي رجل. وقد جعل انعدام الشكل واللون العصي الوصف ذلك الصدار مناسباً تماماً له. وفيما كان يسير متقافزاً كوثبات الحمام على الأرض نحوي عبر النباتات النامية، لوح شاراً نحوي بيده التي تمسك اللفاع. ثم لف اللفاع بجسم حول رقبته. وكانت الساعة قد بلغت بالفعل بعد الظهر والجو بارد إلى حد ما خارج الدار.

عبر د. البوابة. فيما كنت أتبعه (حيث كانت علاقتنا هي علاقة المخدوم بموظف لديه) ساورني شعور بأن ثمة من يراقبني فالتفتّ. وفي النافذة ذاتها التي اكتشفت بها مخدومي كانت ترقبني تلك الممرضة الأربعينية ذات الخدين المرقشين بالندوب ـ أم تراها تجاعيد؟ مثلما ينظر جندي بقي في الخندق إلى جندي هارب، وشفتاها مطبقتان مثل شفتي سلحفاة. فعزمت على الانفراد بها في أقرب وقت لأسائلها عن حالة د. ولكن ما الذي دهاها على أية حال؟ إنها هنا لتعنى بشاب مصاب بحالة عصبية، ربما كان مجنوناً، لكنها

إذ يخرج من هي مكلفة برعايته لا تجد ما تقول لمن يرافقه! أليس هذا إهمالاً مهنياً؟ ألم تكن ملزمة علىٰ الأقل بإطلاع الموظف الجديد على طبيعة عمله؟ أم أنّ مخدومي مريض هادىء وغير مؤذ إلى الحد الذي لا يتعين معه أن يقال شيء؟

عندما بلغ د. الطريق الجانبي أغمض عينيه الغائرتين في محجريهما وفتحهما، نظر سريعاً على امتداد الشارع المهجور الذي تحيطه بنايات السكني. ولم أدر ما إذا كان ذلك عرضاً من أعراض الجنون أم ماذا ـ بدا لي إتيان الحركات المفاجئة دونما تواصل إحدى عاداته. تطلع إلى سماء نهاية الخريف الصافية، وأغمض عينيه سريعاً. ورغماً عن أن عينيه كانتا غائرتين إلا أنه كان هناك شيء على نحو متميز فيهما بلونهما البني العميق. ثم توقف عن إغماض عينيه، فبدتا وكأنهما تتركزان كأنما يبحث في السماء. وقفت مشوشاً أرقبه. كان ما أثر فيّ بأقصى قدر من الحيوية هو حركة تفاحة آدم عنده التي كانت ضخمة كأي قبضة يد. تساءلت عما إذا كان مقدراً له أن يكون رجلاً ضخم البنية ثم عاق شيء تموَّه في الطفولة وما عاد يتحدث عن العملاق الذي أريد له أن يكونه إلا رأسه من عند العنق فما فوق.

خفض مخدومي نظرته فعثر على عيني المتحجرتين وأمسك بهما بعينيه، وقال كأنما عرضاً وإن يكن بجدية تجعل الاعتراض مستحيلاً:

ـ في يوم صحو بمقدورك أن ترى بوضوح بالغ أشياء طافية هناك، وهو معهم هناك في الأعالي وغالباً ما يهبط عندي حينما أمضي خارج الدار.

أحسست تواً بالخطر يتهددني. أشحت بناظريّ عن مخدومي. تساءلت كيف يمكنني اجتياز هذه المحنة الأولى التي واجهتني سريعاً على هذا النحو. أينبغي التظاهر بتصديقه أم ستكون تلك غلطة؟ أتراني أتعامل مع مجنون يهذي أم أنه لا يعدو أن يكون مهزاراً له وجه مقامر يحاول أن يهزأ بي؟ مد إليّ يد المساعدة فيما وقفت هنالك في أسى، وقال:

ـ أعرف أنه ليس بمقدورك أن ترى أجساماً طافية في السماء، وأعلم أنك لن تشعر به حتى وإن كان هنا إلى جانبك، وكل ما أطلبه هو ألا تسلك سلوكاً يوحي بالدهشة حينما يهبط إلى الأرض، حتى إذا كنت أتجاذب معه أطراف الحديث، لأنك ستضايقه إذا ما انفجرت ضاحكاً على عين غرة أو حاولت إسكاتي. وإذا ما حدث أن لاحظت خلال حديثنا أنني أريد بعض المساندة منك فسوف أقدر لك مقاطعتك للحديث، قولك لشيء ما، كما تعلم، يفيد التأكيد والموافقة، فكما ترى أحاول أن اطلعه على طوكيو كما لو كانت جنة

قد تبدو لك جنة مجنونة، ولكن ربما يمكنك النظر إلى الأمر باعتباره ملهاة وأن تؤكد ما أقول على أي حال، على الأقل حينما يكون معنا هنا.

أصغيت بانتباه، وحسبت أن بمقدوري على الأقل تبين الخطوط الرئيسية لما يتوقعه مخدومي مني. إذن أتراه في النهاية أرنب في حجم رجل يتخذ من السماء مقراً له؟ لكن ذلك لم يكن السؤال الذي طرحته، فقد سمحت لنفسي فحسب بالتساؤل: كيف سأعرف ما إذا كان قد هبط هنا ليكون معك؟

- بمجرد مراقبتي. إنه لا يهبط إلا حينما أكون خارج الدار!
- وماذا عن الفترات التي تكون فيها مستقلاً سيارة؟
- في سيارة أو قطار طالما أني إلى جانب نافذة مفتوحة فمن المحتمل أن يأتي. في مرات ظهر حينما كنت بالدار واقفاً إلى جوار نافذة مفتوحة.

وتساءلت في غير ارتياح:

- وماذا عن . . . الآن؟

من المحقق أنني قد بدوت كالتلميذ الأبله في الصف الذي لا يستطيع استيعاب جدول الضرب.

قال مخدومي متسامحاً:

- الآن ليس هناك إلاي وأنت، لم لا نستقل قطاراً إلى شينجوكو اليوم. لم أستقل قطاراً منذ زمن طويل.

سرنا إلى محطة القطار، وعلى امتداد الطريق حرصت على رصد إشارة إلى أن شيئاً قد ظهر إلى جوار مخدومي. ولكن قبل أن أتبين جلية الأمر كنا في القطار. وبقدر علمي لم يظهر شيء. لاحظت شيئاً واحداً، فقد كان الموسيقار يتجاهل الناس الذين يمرون بنا في الشارع حتى حينما يحيونه. كما لو لم يكن له وجود هو ذاته. كما لو كان الناس الذي يدنون منه محيين إنما يسجلون وهماً حسبوه إياه. وتجاهل مخدومي تماماً كل محاولات التواصل معه.

عند نافذة بطاقات القطار حدث الشيء نفسه، فقد رفض د. التعامل مع الآخرين. أعطاني ورقة نقدية فئة ألف ين، وطلب مني شراء بطاقتين، ثم رفض أخذ بطاقته حتى حينما أمسكت بها أمامه. واضطررت إلى الوقوف أمام البوابة ودفع بطاقتينا

معاً فيما كان يمضي عبر الباب الدوار إلى الرصيف بحرية الرجل الخفي. وحتى في القطار كان يتصرف كما لو كان الآخرون لا يشعرون به تماماً كما لا يشعرون بحالة الطقس متكوماً في مقعد في الطرف القصي من عربة القطار. وظل على صمته مغمض العينين. وقفت أمامه، وراقبت في انزعاج أياً ما كان ذلك الذي ينتظر أن يطفو سابحاً من خلال النافذة المفتوحة ويستقر إلى جانبه. من الطبيعي أني لم أصدق وجود المسخ. كل ما في الأمر أنني صممت على ألا تفوتني اللحظة التي تسيطر أوهام د. عليه فيها. وأحسست بأني مدين له بذلك لقاء النقود التي يدفعها لي. ولكنه جلس مثل حيوان صغير متظاهر بالموت طوال الطريق حتى محطة شينجوكو، هكذا فليس بوسعي إلا الخروج بأنه لم يتلق زيارة من السماء. بالطبع كان الأمر كله افتراضاً، فطالما كان الناس حولنا ظل مخدومي محارة مطبقة صمتاً، لكني سرعان ما علمت أن تخميني كان في محله، لأنه حينما حل الموعد كان الأمر أكثر من ظاهر (أعني من خلال رد فعل د.) وإن شيئاً ما كان يقوم بزيارته.

كنا قد تركنا محطة القطار وسرنا على امتداد الطريق. وكنا في ذلك الوقت من النهار الذي يسبق بقليل حلول المساء حينما لا يكون هناك كثيرون خارج دورهم، ومع ذلك فقد صادفنا جمعاً من الناس في أحد الأركان. توقفنا لنلقي نظرة. كان الجمع يتحلق رجلاً كهلاً يدور حول نفسه ويدور دون أن يلقي نظرة على أحد. كان كهلاً متعاظم الهيئة، يدور في هياج متشبثاً بحقيبة صغيرة ومظلة يضمهما إلى صدره محولاً إلى كتلة مهوشة شعره الأشيب المدهون بزيت عطري، وهو يلطم الأرض بقدميه، ويصيح في صوت يحاكي الفقمة. وكانت وجوه الجمع العاكف على المراقبة تفتقر إلى البريق، وتتميز بالجفاف، في برودة المساء التي تسربت إلى الهواء. وحده وجه الكهل كان متضرجاً بالحمرة، عارقاً، بدا كما لو كان البخار سيعلو منه.

فجأة لاحظت أن د. الذي كان ينبغي أن يكون إلى جواري قد خطا عدة خطوات متراجعاً، ألقى احدى ذراعيه على كتفي شيء خفي في ارتفاعه تقريباً. وراح يحدق بود شديد في الفراغ الذي يعلو قليلاً الدائرة التي صنعتها ذراعه. كان الحشد أكثر انكباباً على مشاهدة الكهل من أن يلقي بالاً لما يأتيه، لكنني شعرت بالفزع. التفت الموسيقار نحوي ببطء كما لو كان يريد أن يقدمني لصديق. لم أدر كيف أتصرف، فكل ما كان بوسعي فعله هو الشعور بالذعر وبوجهي يتضرج بالحمرة. كان الأمر يشبه نسيان سطور دورك السخيفة في مسرحية للصغار بمدرسة ثانوية. وواصل الموسيقار التحديق فيّ وقد بدا

الضيق الآن في عينيه. كان يسعى للحصول على تفسير يقنع زائره القادم من السماء لسلوك الكهل العاكف على الدوران حول نفسه في الشارع غائب الذهن عن كل ما حوله، تفسير يناسب الجنة المزعومة! لكن كل ما وسعني القيام به هو التساؤل في غباء عما إذا كان الكهل متأثراً برقصة القديس فيتاس.

عندما هززت رأسي في حزن انطفأ بريق الاستفهام في عيني مخدومي، وكما لو كان يستأذن في مغادرة صديق خفض ذراعه. ثم حول في تؤدة نظرته نحو السماء حتى دار رأسه دورة كاملة وبرزت تفاحة آدم عنده على نحو جسور. وحلق الشبح عائداً إلى السماء، غمرني الخجل، فلم أكن على مستوى عملي. فيما وقفت هناك خافض الرأس تقدم الموسيقار نحوي وأشار إلى أن يومي الأول في العمل قد بلغ نهايته:

- بمقدورنا الذهاب للدار الآن، فقد هبط اليوم بالفعل، ولا بد أنك متعب تماماً.

أحسست بالارهاق فعلاً بعد كل هذا التوتر.

عدنا إلى الدار في سيارة أجرة مغلقة النوافذ،وبمجرد استلامي لأجري عن عمل اليوم بارحت المكان، لكني لم أمض مباشرة إلى محطة القطار. انتظرت خلف كشك للهاتف على الجانب الآخر من الشارع مع شيء من الانحراف جانباً. وازداد الغسق عمقاً، وتحولت السماء إلى لون الورد. وفيما الوعد بالليل يوشك أن يتحقق لاحت الممرضة مرتدية رداء قصير الذيل من قطعة واحدة في لون الدم أتبينه في العتمة، مجتازة البوابة، دافعة أمامها دراجة جديدة تماماً. وقبل أن تتمكن من الركوب أقبلت نحوها مسرعاً. لاحت دون زي الممرضة الذي كانت ترتديه امرأة عادية ضئيلة البنية في الأربعينيات من عمرها وقد تبدد من وجهها ذلك الإلغاز الذي اكتشفته عبر نافذة الملحق. أثار قدومي قلقها، ولم تستطع ركوب دراجتها والانطلاق بعيداً، لكنها لم تقف ساكنة كذلك، بل شرعت في المسير ودفع الدراجة إلى جوارها. حينما طلبت منها إيضاح حالة مخدومنا المشترك، قاومت متذمرة، لكني كنت قد تشبثت بمقعد الدراجة، هكذا استسلمت في نهاية الأمر. وعندما شرعت في الحديث كان فكها الأسفل القويّ يغلق بقوة عند كل انقطاع في مجرى جملتها، بدت كسلحفاة تتحدث.

- يقول إنه طفل بدين يرتدي منامة بيضاء من القطن، ضخم مثل الكانجارو، هكذا يقول. يفترض أنه يخاف الكلاب ورجال الشرطة ويهبط من السماء، يقول إن اسمه أجوي! دعني أقل لك شيئاً، إذا تصادف أن كنت قريباً حينما يسيطر عليه ذلك الشبح

فمن الخير لك أن تتظاهر بالبلاهة، فليس بمقدورك التورط في هذا الأمر، لا تنس أنك تتعامل مع مجنون! وثمة شيء آخر: لا تأخذه إلى أي مكان من أماكن اللهو وإن أراد ذلك، فليس بوسعنا أن نضيف الإصابة بالسيلان إلى ما نعاني منه هنا!

تضرج وجهي بالحمرة، وتركت مقعد الدراجة، فمضت الممرضة مقرقعة بأجراس دراجتها بعيداً إلى رحاب الظلمة بأقصى ما تستطيع من سرعة، دافعة إياها بسيقان مستديرة رفيعة كأنابيب المقود. آه، طفل بدين في منامة ليلية من القطن، ضخم مثل الكانجارو!

عندما قدمت إلى الدار في الأسبوع التالي حدجني الموسيقار بعينيه البنيتين الصافيتين هاتين وقرقع قائلاً وإن لم يشب صوته رنين اللوم:

- سمعت أنك انتظرت الممرضة وسألتها عن زائري القادم من السماء، حقاً إنك تأخذ عملك مأخذ الجد.

في ذلك الأصيل ركبنا القطار ذاته في الاتجاه المضاد إلى الريف لمدة نصف ساعة قاصدين حديقة الملاهي على ضفتي نهر تاما. جربنا جميع أنواع مركبات اللهو والتسلية، ولحسن الحظ بالنسبة لي لم يهبط الطفل الضخم مثل الكانجارو من السماء ليزور د. حينما كان منفرداً بنفسه عالياً في المركب الشراعي الطائر المؤلف من صناديق خشبية صنعت على شكل مراكب كانت تدفع ببطء في الهواء على أنصال نوع من طاحونة الهواء، وجلست على مقعد فوق الأرض أرقبه وهو يحدث راكباً وهمياً إلى جواره، رفض أن يهبط إلا بعد أن عاد زائره إلى السماء، ومراراً وتكراراً أشار لي كي أنطلق عدواً لأبتاع بطاقة أخرى له.

وقعت حادثة أخرى أثرت فيّ كثيراً ذلك اليوم. فيما كنا نعبر حديقة الملاهي متهجين نحو المخرج حينما خطا د. بطريق الخطأ في بلاط مبلل. رأى أن قدمه قد تركت أثراً في الملاط فامتلكه الضيق ورفض بعناد أن يتزحزح من حيث كنا إلا بعد أن تفاهمت مع العمال ودفعت لهم مقابل ما يتكبدونه وأزلت أثر القدم من الملاط. تلك كانت المرة الوحيدة التي كشف فيها عن أدنى عنف في طبيعته. وفي الطريق إلى الدار بالقطار، وفيما أعتقد بسبب ندمه على صياحه الغاضب لي، اعتذر على هذا النحو:

- لم أعد أحيا في الحاضر، على الأقل ليس بصورة واعية. أتعلم القاعدة التي تحكم الرحلات إلى رحاب الماضي في آلة للزمن؟ على سبيل المثال فإن الرجل الذي يرحل في الزمن عشرة آلاف عام إلى الوراء لا يجرؤ على القيام بشيء في هذا العالم.

قد يبقى من بعده، لأنه ليس موجوداً في الزمن قبل عشرة آلاف عام، وإذا ترك وراءه أي شيء هناك فستكون النتيجة تشويهاً غير متناه في ضآلته ربما، لكنه تشويه مع ذلك في التاريخ كله منذ عشرة آلاف عام وحتى الآن. على هذا النحو تمضي القاعدة، ولما كنت لا أحيا في الحاضر فلا ينبغي أن أفعل شيئاً في هذا العالم قد يبقى أو يترك أثراً.

- ولكن لم كففت عن الحياة في الحاضر؟

طرحت السؤال على مخدومي، لكنه انغلق على ذاته مثل كرة جولف وتجاهلني، ساورني الندم على إطلاقي العنان للساني، فقد تجاوزت أخيراً الحدود المسموح بها لي، لأني كنت معنياً تماماً بمشكلة د. ربما كانت الممرضة على حق والتظاهر بالبلاهة هو الأسلوب الوحيد المتاح، ولم يكن بمقدوري التورط في الأمر، فعقدت العزم على ألا يحدث ذلك.

ضربنا في الآفاق على امتداد طوكيو عدة مرات عقب ذلك. وتكلّلت سياستي الجديدة بالنجاح. لكن اليوم الذي شرعت فيه مشكلات الموسيقار تستدرجني فيه قد حل رغم مشيئتي. ذات أصيل ركبنا سيارة أجرة معاً للمرة الأولى منذ قيامي بعملي. وذكر د. جهة محددة، بناية أنيقة تضمّ شققاً للسكنى صُمِّمت على غرار فندق في دايكان ياما. عندما بلغنا مقصدنا انتظر د. في المقهى بالطابق الأرضي فيما صعدت وحدي بالمصعد لأتسلم لفافة تنتظرني. كانت زوجة د. السابقة التي تقطن الشقة وحدها الآن هي التي ستعطيني اللفافة.

طرقت الباب الذي حمل تفكيري إلى زنزانة في سجن سينج سينج (كنت أرتاد دور السينما بانتظام في تلك الأيام وأشعر بأن خمسة وتسعين بالمائة مما أعرف مستمد مباشرة من الأفلام) فتحته امرأة قصيرة ذات وجه بدري مشرب بالحمرة رُكِّب فوق عنق قصير وسمين، وجه يشبه الأسطوانة. وأمرتني بنزع حذائي والدخول، وأشارت إلى أريكة قرب النافذة لأقتعدها. من المحتم أن تلك هي الطريقة التي يستقبل بها أبناء الوسط المخملي الغرباء، وأذكر أني رحت أحدث نفسي على هذا النحو. كان رفض دعوتها والمطالبة باللفافة عند الباب يقتضي مني، أنا ابن الفلاح الفقير، شجاعة تحدي المجتمع الياباني الراقي، شجاعة الجزار الذي هدد لويس الرابع عشر. وامتثلت لما أمرت به. دلفت للمرة الأولى في حياتي إلى شقة رحبة على الطراز الأمريكي.

صبت زوجة الموسيقار السابقة بعض الجعة، وبدت لي بشكل ما أكبر سناً من د.،

ورغماً من أنها كانت تأتي بإيماءات متعاظمة وتتحدث بصوت طنان إلا أنها كانت أكثر استدارة وثقلاً من أن تحظى بالجلال. كانت ترتدي رداء من قماش ثقيل وحاشية تنورتها مفككة شأن أردية نساء الهنود الحمر، وبدت قلادتها الماسية التي يضم الذهب جزئياتها كما لو كانت من صياغة أحد صاغة الأنكا (الآن فيما أمعن التفكير في الأمر تبدو هذه الملاحظة بدورها وقد فاحت فيها رائحة تأثير الأفلام) كانت نافذتها تطل على شوارع شيبويا، لكن الضوء الذي كان ينهل منها بدا وكأنه يثير ضيقها على نحو مفزع. راحت تتقلقل دونما توقف في مقعدها حاسرة عن ساق في استدارة وحمرة عنقها فيما كانت تسائلني بلهجة المحقق. أحسب أني كنت المصدر الوحيد للمعلومات عن زوجها المتاح أمامها. مرتشفاً جعتي السوداء المرة كما لو كانت قهوة رددت على أسئلتها بأفضل ما وسعني، لكن معرفتي بـ د. كانت محدودة وغير دقيقة فلم أستطع إرواء غلتها. ثم شرعت في سؤالي عن الممثلة التي كان د. على علاقة بها وعما إذا كانت تأتي لزيارته وما إلى ذلك، لم يكن هناك ما يسعني قوله. تملكني الضيق، فحدثت نفسي: ترى أي شأن لها بهذا أليست لديها ذرة من كبرياء المرأة؟

- ألا يزال الشبح يتراءى أمام د.؟

- بلى، إنه طفل في حجم الكانجارو. يرتدي منامة قطنية بيضاء، يقول إن اسمه أجوي، لقد حدثتني الممرضة عنه.

قلتها بحماس سعيداً بأن طرح على سؤال بمقدوري أن أفيه حقه من الردّ. وأضفت.

- إنه يحلق عادة في السماء لكنه في بعض الأحيان يهبط إلى جوار د..

- أجوي تقول! إذن من المحقق أنه شبح وليدنا الراحل. أتعلم لم يسميه أجوي؟ تلك طريقة مفرطة في العاطفية والتهافت لتسمية شبح يعاود الظهور أمامك. ألا تظن ذلك؟

كانت تتحدث على نحو يثير السخرية، وتناهت إليّ رائحة كريهة منفرة تفوح من فمها، وأضافت:

- لقد ولد طفلنا بتضخم في مؤخرة رأسه يجعله يبدو كما لو كان ذا رأسين، شخّصه الطبيب باعتباره فتقاً في المخ. وعندما بلغ النبأ د. عقد العزم على أن يحمي نفسه

ويحميني من كارثة، وهكذا تفاهم مع الطبيب وقتل الطفل. أعتقد أنهما لم يقدما له إلا الماء المحلى بالسكر بدلاً من اللبن مهما علا صراخه. لقد قتل زوجي الطفل لأنه لم يرد أن يثقل كاهلنا طفل لن يكون إلا بليداً أبله، وهو الأمر الذي تنبأ به الطبيب. هكذا كان دافعه النزعة الذاتية الخيالية أكثر من أي شيء آخر، لكن تشريحاً أجري، فتبيّن أن التضخم كان ورماً حميداً. حدث ذلك في الوقت الذي بدأت فيه الأشباح تتراءى لـ د.، وكما ترى فإنه فقد الشجاعة الضرورية لمواصلة الاحتفاظ بنزعته الذاتية، ومن ثم رفض أن يعيش حياته تماماً على نحو ما أبى أن يدع الطفل يواصل الحياة. لم ينتحر، وإنما هرب من الواقع إلى عالم الأشباح، ولكن ما إن تتلطخ يداك بجريمة قتل طفل وليد حتى تعجز عن تطهيرهما بمجرد الهرب من الواقع، إن الجميع يعرف هذا. هكذا حاله على ما ترى، يداه ملطختان كعهدهما أبداً ويواصل هذيانه حول أجوي.

كان من العسير تحمل قسوة انتقادها إنصافاً لمخدومي. هكذا التفتّ نحوها وقد فاقت حمرة وجهي تلك التي سببها هذيانها ما كانت عليه في أي وقت، ووجهت إليها ضربة لصالح مخدومي:

- أين كنت فيما هذا كله يجري؟ لقد كنت الأم. أليس كذلك؟

- لقد أجريت لي عملية ولادة قيصرية، وظللت في حالة غيبوبة عقب ذلك مصابة بحمى شديدة، وقد انتهى الأمر قبل أن أفيق.

قالتها زوجة د. السابقة، فطرحت قفازي أرضاً. ثم انتصبت واقفة، وتحركت باتجاه المطبخ قائلة:

- أحسبك بحاجة إلى المزيد من الجعة؟

- كلا، شكراً، لقد احتسيت ما فيه الكفاية، هل لك في إعطائي اللفافة التي يفترض أن أحملها إلى د.؟

- بالطبع، دعني أتغرغر فحسب؛ إذ علي أن أتغرغر كل عشر دقائق لعلاج البيوريا - لا بد أنك لاحظت الرائحة؟

وضعت مفتاحاً نحاسياً في مظروف من مظاريف العمل وسلمته لي. ووقفت خلفي فيما كنت أعقد رباط حذائي، وسألتني عن الكلية التي أدرس بها، ثم قالت بفخار:

- سمعت أنه ليس هناك مشترك واحد بصحيفة ت... تايمز في المساكن الجامعية هناك.

قد يهمك أن تعلم أن أبي سيمتلك تلك الصحيفة قريباً.

تركت الصمت يعبر عن احتقاري.

كنت على وشك دخول المصعد حينما أحسست بالشك يصيبني بطعنة نجلاء، كأن صدري زبد مرت به سكين، كان علي أن أفكر في الأمر ملياً، تركت المصعد ينطلق في مساره وقررت استخدام الدرج. لو أن وصف زوجة د. السابقة لحالته كان صحيحاً فكيف يمكنني الوثوق من أنه لن ينتحر بحفنة من سم السيانيد أو شيء يتناوله من صندوق يفتحه هذا المفتاح؟ طوال هبوطي الدرج رحت أتساءل عما أفعل، ثم وقفت أمام مائدة د. دون أن أصل إلى قرار. كان يجلس هناك وقد أحكم إغماض عينيه وقدح شايه على المائدة لم يمس. وأحسب أن ليس مما يلائمه أن يرى محتسياً مواد من هذا الزمن بعد أن كف عن الحياة فيه وأصبح مسافراً قادماً من زمن آخر.

شرعت في الحديث، وقد عقدت العزم فجأة على الكذب:

ـ لقد قابلتها وتجاذبنا أطراف الحديث طوال الوقت، لكنها أبت إعطائي أي شيء.

نظر مخدومي إليّ رابط الجأش، لم يقل شيئاً رغم أن الشك ألقى بظلاله على عينيه اللتين تشبهان عيني جرو في محجريهما الغائرين. والتزمت الصمت إلى جواره طوال طريق عودتنا في سيارة أجرة وإن سادني القلق في أعماقي. ولم أكن على يقين مما إذا كان قد كشف النقاب عن كذبتي، كان المفتاح ثقيلاً في جيب قميصي.

لكني لم أحتفظ به إلا أسبوعاً واحداً، فمن ناحية بدأت فكرة انتحار الموسيقار تبدو لي شيئاً سخيفاً، ومن ناحية أخرى خشيت أن يسأل زوجته عن المفتاح. لذا وضعته في مظروف آخر وأرسلته بالبريد الموصى عليه إليه. في اليوم التالي مضيت إلى الدار يساورني قليل من التخوف، فألفيته في الأرض الفضاء أمام الملحق يحرق كومة من المخطوطات لا بد أنها كانت مؤلفاته. لقد كان ذلك المفتاح يغلق مكتباً على موسيقى مخدومي.

لم نخرج في ذلك اليوم، وإنما ساعدت الموسيقار في إحراق كل مقطوعاته. أحرقنا كل شيء، حفرنا حفرة، وكنت عاكفاً على دفن الرماد فيها حينما بدأ د. يهمس، لقد هبط الشبح من السماء، وإلى أن ترك المكان واصلت العمل وئيداً في دفن الرماد. في ذلك الأصيل ظل أجوي (ولم يكن ثمة سبيل إلى إنكار أنه اسم عاطفي حد التهافت) ذلك

المسخ القادم من السماء إلى جانب مخدومي طوال عشرين دقيقة.

منذ ذلك اليوم فصاعداً، ولما كنت إما أن أخطو جانباً أو أتراجع إلى الخلف لدى ظهور شبح الطفل، فمن المحقق أن الموسيقار قد أدرك أنني لا أذعن إلا للجزء الأول من تعليماته الأصلية، أي ألا أظهر ما ينم عن الدهشة، فيما يلقى طلبه بأن أدعمه بما يفيد التأكيد تجاهلاً مستمراً، ورغم ذلك فقد بدا راضياً، الأمر الذي يسر لي أداء عملي. ولم يكن بمقدوري أن أصدق بأن د. من نوعية الأشخاص الذين يمكن أن يثيروا الاضطراب في الشارع. وفي الحقيقة بدأ تحذير أبيه يبدو لي مثيراً للسخرية، فقد استمرت جولاتنا في طوكيو دون أن تتخللها الحوادث. كنت قد اشتريت بالفعل طبعة موسكو من كتاب «الصديق المرح» التي أردت اقتناءها، لكنني لم أعد أعتزم التخلي عن مثل هذا العمل الرائع. كنت ومخدومي نتجول في كل مكان معاً. وأراد زيارة كل قاعات الموسيقى حيث عزفت أعماله وجميع المدارس التي درس بها. كنا نقوم برحلات خاصة إلى أماكن سبق له أن أستمتع بزيارتها ـ مشارب ودور سينما ومسابح مغطاة ـ ثم نعود دون دخولها. وكانت تتملكه رغبة في ركوب مواصلات طوكيو العامة بأشكالها كافة. وإني لعلى يقين من أننا قد ركبنا قطارات شبكة مترو العاصمة بأسرها. وبما أن الطفل المسخ لم يكن بمقدوره الهبوط ومن السماء ونحن تحت الأرض فقد كان باستطاعتي الاستمتاع بركوب المترو قرير العين. من الطبيعي أن التوتر كان يسيطر عليّ حين نصادف كلاباً أو ضابط شرطة لتذكري ما حدثتني به الممرضة. لكن تلك المصادفات لم تتطابق قط مع ظهور أجوى. واكتشفت أني متعلق بعملي، لا أعني أني أحببت مخدومي وشبح طفله الضخم مثل الكانجارو، وإنما ببساطة أحببت عملي.

ذات يوم طلب مني الموسيقار القيام برحلة لأداء مهمة له، وسيدفع نفقات السفر وسيضاعف أجري اليومي. وحيث أني سأقضي الليل في أحد الفنادق ولن أعود إلا في اليوم التالي فإن ذلك يعني أن أحصل على أربعة أضعاف ما اعتدت الحصول عليه ـ لم يقتصر الأمر على هذا، وإنما كان الغرض من الرحلة هو مقابلة الممثلة صديقة د. السابقة. قبلت ذلك بشغف وسرور، وعلى هذا النحو بدأت تلك الرحلة المضحكة المؤسفة.

أعطاني د. اسم الفندق الذي ذكرته الممثلة في خطاب أخير واليوم الذي تتوقع وصوله فيه، ثم دفعني إلى حفظ رسالة عن ظهر قلب. لم يعد مخدومي يحيا في الحاضر وإنما هو مثل جواب آفاق وصل إلى هنا في آلة للزمن من عالم ينتمي إلى المستقبل تفصله عن الحاضر عشرة آلاف سنة. وبناء على هذا فإنه لم يستطع السماح لنفسه بخلق وجود

جديد يحمل توقيعه من خلال أعمال كتدبيج الرسائل.

أودعت الرسالة رحاب ذاكرتي. كان الليل قد أوغل في مسيرته حينما ألفيت نفسي جالساً في مواجهة الممثلة السينمائية في مشرب الطابق الأرضي بأحد الفنادق في كيوتو، وقد أتيحت لي الفرصة لأوضح لها أولاً سر عدم مجيء د. بنفسه ثم لأقنعها بعد ذلك بقبول مفهومه للزمن وأخيراً لأبلغها رسالته. اختتمت حديثي قائلاً:

- يود د. أن تحرصي على عدم الخلط بين طلاقه الأخير وطلاق آخر كان قد وعدك بتحقيقه، وحيث أنه لا يعيش في الحاضر فإنه يقول إن من الطبيعي ألا يراك مرة أخرى.

أحسست بوجهي يتضرج احمراراً، وللمرة الأولى راودني الشعور بأني أضطلع بعمل صعب حقاً.

- أهذا ما يقوله د.؟ ماذا تقول أنت؟ ما هو شعورك نحو هذا الذي تجشمت عناء قطع الطريق حتى كيوتو لإبلاغه؟

- أعتقد صراحة أن د. مغرق في الانفعال العاطفي.

- هكذا هو - أقول إنه يفرط في الانفعال العاطفي إلى حد التهافت إذ يطلب منك أن تسدي إليه هذا الجميل.

- إنني أعمل لديه، وأحصل على أجر يومي مقابل ما أقوم به.

- ما الذي تحتسيه؟ اشرب بعض البراندي!

تجرعت البراندي. كنت حتى ذلك الوقت أحتسي الجعة السوداء ذاتها التي قدمتها لي زوجة د. السابقة، وقد وضعت بها بيضة لكسر حدتها، وبضربة مرتدة غريبة في لعبة بلياردو نفسية كنت قد تأثرت بذكرى تعود إلى شقة زوجة د. السابقة فيما كنت أنتظر مقابلة خليلته. كانت الممثلة تشرب البراندي طوال الوقت، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أحتسيت فيها البراندي المستورد.

- وما كل هذا الذي يدور حول رؤية الولد د. لشبح، طفل ضخم مثل الكانجارو؟ ماذا تسميه، راجبي؟

- أجوي! لقد تحدث الطفل مرة واحدة قبل موته وكان هذا ما قاله.

- وقد ظن د. أنه كان يخبره باسمه؟ أليس هذا شيئاً بديعاً!

لقد كان أمراً مفروغاً منه، لو أن ذلك الطفل كان طبيعياً، أن يطلق د. زوجته ويتزوجني. في اليوم الذي ولد فيه الطفل كنا في الفراش معاً في غرفة بأحد الفنادق، وتلقينا اتصالاً هاتفياً، عندئذ علمنا أن شيئاً فظيعاً قد وقع. قفز د. من الفراش، ومضى تواً إلى المستشفى، لم تصلني كلمة منه منذ ذلك الحين.

تجرعت الممثلة قدح البراندي دفعة واحدة، أترعته مجدداً من الزجاجة الموضوعة على المنضدة كما لو كانت تصب عصير فاكهة، وأفرغت قدحها مرة أخرى.

كانت واجهة للعرض تحفل بالسجائر تحجبنا عن المشرب. وتدلى على الجدار فوق كتفي ملصق ضخم ملون تتصدره صورة الممثلة في إعلان عن الجعة، تألق الوجه في الملصق كأنه الذهب. لم يكن تألقه يقل بهاء عن الجعة. لم تكن الفتاة الجالسة بإزائي متألقة إلى هذا الحد، بل كان هناك انخفاض في جبينها. وتحت مفرق الشعر مباشرة، بدا من العمق بحيث يحتوي أصبع أحد الكبار. لكن هذه الهنة هي التي كانت على وجه الدقة تجعلها أكثر جاذبية من صورتها.

لم يكن بمقدورها انتزاع الطفل بعيداً عن مخيلتها.

- تأمل! ألن يكون أمراً مفزعاً أن تموت دون ذكريات أو تجارب لأنك لم تأت قط أي شيء إنساني خلال وجودك على قيد الحياة؟ هكذا يكون الأمر لو أنك متّ طفلاً - ألا يكون ذلك فظيعاً؟

قلت مراعياً مشاعرها:

- ليس بالنسبة للطفل، لا أتصور ذلك.
- ولكن فكِّر في عالم ما بعد الموت!

كان منطقها حافلاً بالوثبات.

- لو أن هناك شيئاً كهذا فمن المحتم أن أرواح الموتى تحيا هناك مع ذكرياتها إلى الأبد. ولكن ماذا عن روح طفل لم يعلم قط شيئاً، ولم يكتسب أي تجربة أبداً؟ أعني أي ذكريات يمكن أن تكون له؟

احتسيت قدح البراندي صامتاً عاجزاً عن الرد

- إنني خائفة من الموت على نحو فظيع؛ لذا أفكر فيه دائماً. ليس عليك أن تشعر بالاستياء من نفسك لأنك لا تملك رداً سريعاً تطرحه على مسامعي. لكن أتعلم ما الذي أفكر فيه؟

أعتقد أنه في اللحظة التي مات فيها هذا الوليد قرر الوالد د. ألا يخلق ذكريات جديدة لنفسه كما لو كان قد لقي حتفه بدوره، وذلك هو السر في أنه كف عن أن يحيا حياته، كما تعلم، على نحو إيجابي في الحاضر، وأراهن أنه يستحضر ذلك الشبح الوليد إلى الأرض على امتداد طوكيو لعله يستطيع خلق ذاكرة جديدة للطفل!

في ذلك الوقت حدثت نفسي بأنها على حق بالتأكيد، فهذه الممثلة السينمائية القلقة ذات الانبعاج في جبينها الذي يكفي ليسع إصبعاً هي محنلة نفسية أصيلة، بهذا حدثت نفسي. وأضفت مواصلاً حواري مع نفسي أنها أكثر ملاءمة لذوق د. من ابنة مالك الصحف البدينة القصيرة ذات الوجه الذي يحاكي البندورة. وعلى حين غرة أدركت أنه حتى في كيوتو وعلى بعد مئات الأميال من مخدومي فإنني أنا النموذج المثالي للموظف المخلص. كنت أفكر في د. وحده دون أحد سواه، لا، بل هناك أمر آخر كذلك، هناك الشبح الذي يعاوده، وأدركت أن الوليد الذي كنت أنتظر ظهوره بعصبية في كل مرة أخرج مع مخدومي لم يبرح ذهني لحظة واحدة.

حل وقت إغلاق المشرب ولم تكن لدي غرفة بالفندق، وكنت قد بلغت هذه المرحلة من العمر دون أن يقدر لي قط النزول بفندق ولم أكن أدري شيئاً عن عمليات الحجز، ومن حسن الطالع أن الممثلة كانت معروفة في الفندق، وبكلمة منها حجزت لي غرفة. صعدنا في المصعد معاً، وشرعت في التحرك لمغادرته عند الطابق الذي توجد به غرفتي، فاقترحت أن نتناول مشروباً أخيراً ودعتني إلى غرفتها. ابتداء من هذه النقطة شرعت الذكريات تكتسي لمسة فكاهية ومؤسفة. وعندما أجلستني في أحد المقاعد عادت إلى الباب، وتطلعت عبر القاعة، ثم قامت بمجموعات كاملة من الحركات العصبية، تقافزت على الفراش كأنها تختبر النوابض، أوقدت الأنوار وأطفأتها، أطلقت العنان لبعض الماء في حوض الاستحمام، ثم صبت لي قدح البراندي الذي وعدت به. وراحت ترتشف الكوكاكولا، حدثتني عن رجل آخر خطب ودها خلال علاقتها مع د.، فضاجعته في النهاية، أشبعها د. ضرباً حتى اصطكت أسنانها. ثم سألت عما إذا كنت أعتقد أن طلاب الجامعات هذه الأيام يمضون لممارسة «تحقيق العاطفة حتى درجة الإشباع» قلت إن الأمر يعتمد على الطالب نفسه ـ فجأة أصبحت الممثلة أماً تلوم طفلاً لبقائه مستيقظاً حتى وقت متأخر، راحت تحدثني بأن عليّ أن أشق طريقي إلى غرفتي وأن أخلد للنوم، وحييتها تحية المساء، هبطت إلى غرفتي حيث استسلمت للنعاس تواً. واستيقظت عند الفجر وحريق يتقد في حلقي.

كان الجزء الأكثر هزلاً والأشد للأسف لا يزال في انتظاري. أدركت في اللحظة التي فتحت فيها عيني أن الممثلة قد دعتني إلى غرفتها معتزمة إغواء طالب جامعي يجن شوقاً لتحقيق العاطفة حتى درجة الإشباع، وبصحبة هذا الفهم أقبل حنق ورغبة مذلة. لم أكن قد ضاجعت امرأة حتى ذلك الوقت. لكن تلك المهانة كانت تلح عليّ مطالبة بالانتقام. كنت قد سكرت من جراء أول براندي هينسي أحتسيه. فأفقدتني السيطرة على وعيي رغبة سامة تتفق مع كون المرء في الثامنة عشرة من عمره. لم تكن الساعة قد تجاوزت الخامسة صباحاً، ولم يبد مؤشر للحياة في الأبهاء. أسرعت مثل فهد أخذه الجنون من فرط الحنق إلى بابها بخطى خافتة الوقع، كان مواربا. دلفت إلى الداخل، فألفيتها جالسة إلى مرآة الزينة وظهرها نحوي. تسللت مباشرة خلفها (لازلت أتساءل حتى اليوم عما كنت أحاول القيام به) اندفعت نحو عنقها بكلتا يدي. دارت مفترة عن ابتسامة عريضة ناهضة في التفاتتها. ثم أمسكت بيدي في راحتيها وراحت تهزهما في سعادة علواً وخفضاً كأنما ترحب بضيف وتهتف مرنمة «صباح الخير! صباح الخير! صباح الخير!» وقبل أن أدري من الأمر شيئاً كانت قد أجلستني في مقعد ورحنا نتشارك خبزها المقمّر وقهوتها ونطالع الصحيفة معاً. بعد فترة قالت وصوتها يحمل النغمة التي يمكن أن تناقش بها أحوال الطقس:

- كنت تحاول لتوّك اغتصابي. أليس كذلك!

عادت إلى تزينها. وخرجت، لائذاً بالفرار عبر الدرج إلى غرفتي، فدلفت إلى فراشي مرتعداً كمن أصابته الحمى الراجعة. وخشيت أن يبلغ أمر هذا الحادث سمع د. لكن موضوع ممثلة السينما لم يقدر له أن يطرح ثانية قط. فواصلت الاستمتاع بعملي.

كان الشتاء قد أقبل. اعتزمنا في ذلك الأصيل أن نمضي بالدراجة عبر الحي السكني الذي يقطنه د. والحقول المحيطة به. اعتليت دراجة عتيقة صدئة، أما مخدومي فقد اقترض دراجة الممرضة الجديدة المتألقة. تدريجياً قمنا بتوسيع الدائرة التي نرسمها حول دار د. ماضيين إلى منطقة سكنية جديدة يجري إعمارها ومتاخمين تلالاً باتجاه الحقول. غمرنا العرق، عمنا شعور بالتحرر، فتزايد ابتهاجنا. أستخدم (نا) الجماعة وأدرج د. في حديثي لأنه كان جلياً أن معنوياته مرتفعة بدوره. بل راح يصفر لحناً من مقطوعة لباخ أعدت للفلوت والبيان القيثاري تدعى «الصقلية» كنت أعزف ذلك على الفلوت حينما كنت طالباً في المدرسة الثانوية. ولم يقدر لي قط أن أتعلم العزف جيداً. لكني اعتدت دفع شفتي العليا على نحو ما يفعل التابير. ومن الطبيعي أنه كان لي من الأصدقاء من يصرون على أن

أسناني الناتئة هي السبب في ذلك، لكن الحقيقة أن عازفي الناي يبدون عادة كالتابير[1].

فيما كنا نمضي بالدراجة على امتداد الشارع التقطت النغمة، وشرعت في الصفير مع د. و «الصقلية» موضوعة موسيقية رائعة لكن أنفاسي تقطعت من الاندفاع بالدراجة فظل مترنمي يتقطع صفيراً هوائياً لاهثاً، لكن أداء د. كان متكاملاً مطلق الانسجام. ثم توقفت عن الصفير خجلاً من الاستمرار، فالتفت الموسيقار نحوي وشفتاه لاتزالان على صفيرهما متضامتين مثل سمكة شبوط تتجعد لتتنفس، أفتر عن ابتسامته الهادئة. مع التسليم بأن هناك فارقاً في الدراجتين فثمة ما هو غير طبيعي ومؤسف في أن طالباً في الثامنة عشرة من عمره، ربما كان هضيماً، لكنه طويل القامة، يشرع في التهافت وتتقطع أنفاسه قبل موسيقار في الثامنة والعشرين من العمر ضئيل البنية ويعاني من المرض إلى جانب ذلك. كان الأمر مجافياً للعدل، وداعياً للحنق. وفي التو اعتكرت حالتي المزاجية، وشعرت بالاشمئزاز من العمل كله. من ثم وقفت فجأة على الدراجة، أسرعت مغيظاً مثل لاعب مشارك في سباق للدراجات. بل انعطفت في الطريق الضيق الذي تحفه الحصباء بين حقلين للخضر عن عمد. عندما نظرت إلى الخلف بعد لحظة كان مخدومي يشب فوق مقود الدراجة ورأسه الضخم المستدير يومىء فوق كتفيه الهزيلتين قادحاً الشرر في الحصباء بعجلات دراجته في مطاردة حامية الوطيس. جنحت للوقوف سانداً إحدى قدمي على سور من السلك الشائك على حافة الحقل، انتظرت مقدم د. كان الخجل قد غمرني بالفعل لسلوكي الصبياني.

دنا مسرعاً ورأسه لا يزال يهتز، عندئذ عرفت أن الشبح بصحبته. كان ينطلق مسرعاً عند أقصى الجانب الأيسر من الدرب المكسو بالحصباء ووجهه ملتفت نحو اليمين بحيث كان على وجه التقريب يتطلع إلى ما وراء كتفه اليسرى. كان السر في أن رأسه يبدو مهتزاً هو أنه كان يهمس بالتشجيع لشيء ما منطلق عدواً أو ربما محلق إلى جوار الدراجة. كان يبدو مثل مدرب العدو لمسافات طويلة وهو يستحث أحد عدائيه. حدثت نفسي قائلاً: آه، إنه يفعل هذا مسلماً بأن أجوي ينطلق قاب قوسين أو أدنى في سباق مع دراجته. كان المسخ الضخم مثل الكانجارو، الوليد البدين المضحك في منامته القطنية البيضاء يتقافز، شأن الكانجارو! ـ على امتداد الطريق المغطى بالحصباء. وأخذتني رعدة، ثم دفعت سور السلك الشائك، وانطلقت في بطء منتظراً لحاق مخدومي والمسخ الذي يحيا في رحاب توهمه بي.

---

(١) التابير حيوان أميركي استوائي شبيه بالخنزير يتميز بغرابة شكل خطمه (هـ. م.).

لا يساورنك الظن بأني قد تركت نفسي تشرع في الاعتقاد بوجود أجوي، فقد عملت بنصيحة الممرضة، عاهدت نفسي بألا يغيب عن ناظري مرفأ الأمان على نحو ما يحدث في تلك الأفلام الضاحكة التي يحدث فيها على سبيل المثال أن يجن حارس مستشفى الأمراض النفسية. كنت أحدث نفسي، واعياً بسخريتي، بأن الموسيقار العصابي كان يقدم عرضاً بدراجته ليتابع مسيرة كذبة حدثني بها ذات مرة، ويا لها من متاعب كان عليه أن يجتاز تخومها! بتعبير آخر كنت أحتفظ بمسافة علاجية بيني وبين مسخ د. ورغماً عن ذلك فقد حدث تحول غريب في حالتي الذهنية.

بدأ الأمر على هذا النحو: لحق بي د. وكان ينطلق على بعد عدة أقدام خلفي، حينما غرقنا فجأة، مثلما تندفع السحب وعلى نحو لا نجاة منه، في فيض من نباح زمرة من الكلاب. تطلعت فرأيتها تسابق الريح نحوي على امتداد الطريق المغطى بالحصباء، كلاب فتية من فصيلة الدوبرمان تضج بالفحولة تسمق إلى ارتفاع قدمين عن الأرض وثمة عشرة منها، خلفها إنطلق يعدو لاهثاً رجل يرتدي زياً من قطعة واحدة تضم سراويل وسترة والرسن الرفيع من الجلد الأسود متدل في إحدى يديه. ربما كان يطارد الكلاب، وربما كانت تجره معها. كلاب من فصيلة الدوبرمان سمحاء ملساء كفقمات بللها الماء مع ذرات فحسب. في لون الشوكولا الجافة على صدورها وأخطامها وبطونها المتواثبة. وقد نبحت ضارية في اندفاعها نحونا، فسدت الدرب المغطى بالحصباء متوثبة للهجوم باندفاع بدت معه كما لو كانت ستسقط فوق أخطامها المزبدة. كان هناك مرج على الجانب الآخر من الحقل، ومن المحقق أن الرجل ذا الرداء السابغ كان يدرب تلك الوحوش هناك وكان في طريق عودته بها إلى الدار.

ترجلت من فوق دراجتي وقد أخذتني رعشة الخوف. تفحصت الحقل إلى جوار السور عاجزاً. حجز السور الشائك صدري. ربما أتيحت لي فرصة النجاة بنفسي، لكني لن أستطيع قط أن أصحب الموسيقار على الجانب الآخر إلى رحاب الأمان. وشرعت سموم الذعر تخدر رأسي. ولكن للحظة واحدة مترعة بصفاء الفكر استطعت رؤية الكارثة التي كان من المقدر لها أن تقع خلال ثوان معدودات. ومع اقتراب كلاب الدوبرمان سيحس د. أن أجوي يتعرض لهجوم زمرة من الحيوانات التي يرهبها أكثر من غيرها، ربما يسمع صياح الطفل المذعور، ويقيناً سيتصدى للكلاب وجهاً لوجه دفاعاً عن الطفل، عندئذ ستحوله الكلاب الدوبرمان إلى أشلاء، أو سيحاول الهرب بالطفل، فيقفز دونما تورع ليزيح السور ويتمزق بالضراوة ذاتها. لطمني الإشفاق مما علمت أنه واقع لا محالة. فيما وقفت

هنالك في بلاهة دونما خطة للحركة. كانت تلك الشياطين التي تجمع بين السواد ولون الشوكولا تطبق علينا لاطمة الهواء بأخطام رهيبة دانية الآن حتى كان بوسعي سماع مخالبها المرمرية ترتطم بالحصباء. وفجأة أدركت أن ليس ثمة ما بوسعي أن آتيه لجماية د. وطفله. وفي ضوء هذا الإدراك تخاذلت دونما مقاومة مثل منحرف ضبط متلبساً في زحمة قطار الانفاق، وابتلعتني ظلمة خوفي، فتراجعت عن الدرب المغطى بالحصباء إلى أن غدا السلك الشائك ناراً تتقد في ظهري، جذبت دراجتي كما لو كانت جداراً، وأحكمت إغماض عينيّ. دهمتني رائحة حيوانية مصحوبة بنباح الكلاب ووقع أقدامها. استطعت الإحساس بالدموع تنهل منسابة عبر أجفاني. وأسلمت نفسي لموجة من الخوف، فاكتسحتني بعيداً . . .

على كتفي سكنت يد دقيقة مثل جوهر كل رقة الدنيا. كان ملمسها كأنه ملمس كف أجوي. لكني عرفت أنها يد مخدومي. لقد ترك تلك الكلاب الشيطانة تمضي في سبيلها، ولم تنته كارثة الخوف. غير أني واصلت النحيب على أي حال وقد أغمضت عيني وارتعش كتفاي. كنت أكثر تقدماً في السن من أن أنخرط في البكاء أمام الآخرين، وأحسب أن صدمة الخوف قد دفعت في أعماقي موجة من الانكفاء إلى عهد الطفولة. عندما كففت عن البكاء سرنا دافعين الدراجات أمامنا على امتداد ذلك السور الشائك مثل أسيرين في معتقل صامتين وقد انحنت منا الرؤوس متجهين إلى المرج وراء الحقل حيث كان غرباء يلعبون الكرة ويتريّضون مع كلابهم (لم يعد د. مشغولاً بأجوى، من المحقق أن الطفل قد انصرف فيما كنت منخرطاً في البكاء) نحينا دراجتينا جانباً، تمددنا على العشب. كانت دموعي قد اكتسحت محاولاتي الادعاء وتمردي والتشكك المنعكس في قلبي، ولم يعد د. يلتزم الحذر إزائي. رقدت على النجيل، شبكت يدي تحت رأسي الذي بدا صافياً وجافاً على نحو مذهل عقب كل ذلك البكاء، ثم أغمضت عيني، ورحت أصغي في هدوء بينما كان د. يتطلع نحوي وقد دفن ذقنه في يده ومضى يتحدث عن عالم أجوي.

- أتعرف قصيدة بعنوان «الخجل» للشاعر شويا ناكاهارا؟ أصغ للمقطع الثاني منها!

السماء الملتفة بالحداد
سامقة حيث تتشابك الغصون
تعج بأرواح الأطفال الموتى

أغمضت عيني ورأيت
فوق الحقول النائية
جزة تنسح فتستحيل حلما
من المستودون[1]

ذلك هو أحد جوانب عالم الطفل الميت الذي أراه. هناك بعض منحوتات بليك أيضاً، خاصة منحوتة تدعى «المسيح يرفض باقة الزهر التي قدمها الشيطان» هل حدث أن شاهدتها؟ وهناك منحوتة أخرى «نجوم الصبح تصدح معاً» في المنحوتتين كلتيهما هناك شخوص في السماء تكسوها الواقعية ذاتها التي تلف الناس على الأرض، وحينما أنظر إليهما يداخلني اليقين بأن بليك كان يلمح من طرف خفي إلى جانب من هذا العالم الآخر. شاهدت ذات مرة لوحة لدالي كانت قريبة من ذلك أيضاً مليئة بالكائنات المبهمة الطافية في السماء على ارتفاع حوالى مائة ياردة من الأرض ملتحفة بضوء عاجي أشهب. هذا هو على وجه الدقة العالم الذي أراه. أتعلم ما هي هذه الأشياء الملتمعة التي تملأ السماء؟ إنها كائنات فقدناها من حيواتنا ها هنا على الأرض، وهي الآن تطفو هناك في السماء على ارتفاع حوالي مائة ياردة فوق الأرض، تتألق في هدوء مثلما الكائنات الدقيقة تحت المجهر. في بعض الأحيان تهبط على نحو ما يصنع أجوي (قالها مخدومي، ولم أبد أعتراضاً، الأمر الذي لا يعني أني أوافق على ما يقول) لكن الأمر يقتضي تضحية هم بها جديرون لكي تكون للمرء القدرة على أن يراهم سابحين هنالك وعلى أن يرصدهم لدى هبوطهم إلى الأرض، ورغماً عن ذلك فهناك لحظات نوهب فيها فجأة تلك القدرة دون أن نقدم أي تضحية أو نبذل جهداً من جانبنا. أعتقد أن ذلك هو ما حدث لك قبل لحظات قلائل.

بدا أن ما أراد مخدومي قوله هو دون أي تضحية أو حتى جهد من جانبي، مجرد قطرات قلائل من دموع التكفير لا غير. كانت الحقيقة أنني سفحت الدمع خوفاً وعجزاً ومن جراء ضرب من الفزع الغامض إزاء مستقبلي (كان عملي الأول وهو تجربة في نوع من الحياة المصغرة يتمثل في حماية هذا الموسيقار المعتوه، ولما كنت قد أخفقت في القيام بذلك على نحو مناسب، كان مما يمكن التنبؤ به أن مواقف لا قبل لي بمعالجتها ستتكرر كأحد نماذج حياتي) ولكن بدلاً من مقاطعته لإبداء الاحتجاج واصلت الإصغاء في انقياد سلس.

(١) المستودون: حيوان بائد شبيه بالفيل (هـ. م.).

- لا زلت في مقتبل العمر، ربما لم يغب عن ناظريك في هذا العالم ما لا يمكن أن تنساه أبداً، ما هو غال عندك تعي غيابه طوال الوقت. ربما كانت السماء على ارتفاع مئة ياردة أو نحو ذلك فوق رأسك، لا تزال هي السماء فحسب بالنسبة لك. لكن كل ما يعنيه ذلك هو أن المخزن خاوٍ في الوقت الراهن. أم تراك فقدت شيئاً كان حقاً مهماً بالنسبة لك؟

التزم الموسيقار الصمت في انتظار رد مني. ألفيت نفسي أتذكر خليلته السابقة، ممثلة السينما تلك ذات التجويف الجبهي الذي يسع أصبع أحد الكبار. من الطبيعي ألا يكون لأي شعور جوهري بالفقدان لديّ أي علاقة بها، لقد جعل كل ذلك النحيب رأسي يذوب وراح شعور حلو كجني الشهد ينسرب في صدوعه.

- طيب، أتراك فقدت شيئاً؟

للمرة الأولى منذ التقيت مخدومي بدا ملحاً في سؤاله، وأضاف:

- هل فقدت شيئاً كان حقاً مهماً بالنسبة لك؟

فجأة تعين عليّ أن أقول شيئاً سخيفاً لأغطي شعوري بالحرج.

حاولت ذلك، فقلت:

- لقد فقد مني قطّ.
- قطاً سيامي أم من أي نوع؟
- مجرد قط عادي ذي خيوط برتقالية توشي فروته. اختفى منذ أسبوع مضى.

- إن كان ذلك منذ أسبوع فحسب فلعله يرجع. أليس هذا هو الموسم الذي تضرب فيه متجولة في الأنحاء كافة؟

- هذا ما حسبته أيضاً، لكني الآن أعلم أنه لن يرجع.
- لم؟

- لقد كان قطاً خشناً يجيد الدفاع عن الأرض التي يشغلها، وصباح اليوم شاهدت قطاً بادي الضعف يسير جيئة وذهاباً في مجثمه ولم يكن ملتزماً الحذر - لن يعود قطي ثانية.

حينما توقفت عن الحديث أدركت أنني قصصت حكاية أريد بها أن تكون مثاراً للضحك بصوت متهدج لفرط الحزن.

قال مخدومي جاداً:

- إذن فثمة قط يسبح في سمائك طافياً.

خلال عيني المغمضتين صورت قطاً مبهماً في ضخامة منطاد صغير يتألق بلون عاجي أشهب فيما هو يحلق عبر السماء. كان تحليقاً فكاهياً لكنه جعلني كذلك أستشعر الكآبة تحوم حولي.

- تبدأ الشخوص المدومة في سمائك في التزايد بسرعة مضطربة، ذلك هو السر في أنني لم أعش في الحاضر منذ ذلك الحادث الذي وقع للطفل؛ من هنا فقد استطعت أن أوقف ذلك الانتشار. وبما أني لا أحيا في زماننا فليس بمقدوري أن أكتشف أي شيء جديد، لكن شيئاً لا يغيب عن ناظري بالمثل، إن حالة سمائي لا تتغير.

ولكن أكانت سمائي حقاً خاوية اللهم إلا من قط متضخم ترقش فروته خيوط برتقالية؟ فتحت عيني، شرعت أحدق في السماء الصافية التي يلفها الغروب. جعلني الخوف أغمض عيني من جديد. الخوف من نفسي، فماذا لو أني رأيت جمعاً متألقاً لا حصر له من الكائنات التي فقدتها ها هنا على الأرض؟

رقدنا على النجيل في ذلك المرج فترة غير قصيرة، وقد لفنا ذلك التقارب السلبي الذي يستشعره اثنان أحدهما إزاء الآخر عندما يتملك الاكتئاب ذاته ناصيتهما. تدريجياً شرعت في استعادة رؤيتي للأمور. وجهت اللوم لنفسي: كيف تأتّى لي حقاً، في مجافاة لشاب عملي في الثامنة عشرة من العمر، أن أدع نفسي تقع تحت تأثير موسيقي مجنون! لست أشير إلى أنني استرددت توازني تماماً؛ ففي ذلك اليوم الذي أستسلمت فيه لذلك الذعر الغريب اقتربت أكثر من أي وقت مضى من مشاعر مخدومي ومن ذلك الجمع المتألق في السماء فوق الأرض بمئة ياردة، فإلى حد ما ظل يصاحبني ما يمكن أن تدعوه بآثار ما بعد الموقف.

ثم حل اليوم الأخير، كان عشية عيد الميلاد. إنني متيقن من التاريخ لأن د. قدم لي ساعة يد كهدية مع اعتذار قصير من تقديمها قبل موعدها بيوم. أذكر أن السماء نثت رذاذاً ثلجياً كالمسحوق زهاء الساعة عقب موعد الغداء. مضينا إلى جينزا معاً لكن المكان كان قد أخذ في الازدحام بالفعل، لذا قرر التجول على الإقدام إلى مرفأ طوكيو. أراد د. أن يرى ناقلة من شيلي كان من المفروض أن تكون راسية هناك ذلك اليوم. وكنت راغباً في الذهاب كذلك. وتصورت سفينة والثلج يكسو سطحها.

كنا قد تركنا حشود جينزا ومررنا لتونا بمسرح الكابوكي حينما تطلع د. إلى السماء المعتمة التي لا تزال تنث جليداً. هبط أجوي إلى جواره. وكالمعتاد تأخرت خطوات قلائل

وراء الموسيقار وشبحه. أقبلنا على مفترق طرق فسيح. وخطا د. والطفل لتوهما مبتعدين عن الإفريز حينما تغير الضوء. توقف د. وشرع في التحرك أسطول من الشاحنات في ضخامة الفيلة مثقلاً بحمولة أعياد الميلاد. عند ذلك حدث الأمر. فجأة أطلق د. صرخة، ودافعاً ذراعيه كلتيهما أمامه كما لو كان يحاول إنقاذ شيء ما، وثب وسط تلك الشاحنات، فطرح أرضاً. راقبت المشهد في بلاهة من فوق الإفريز.

قال صوت مرتجف إلى جواري:

- كان ذلك انتحاراً، لقد قتل نفسه!

لكن الوقت لم يتح لي للتساؤل عما إذا كان يمكن أن يكون انتحاراً، ففي لحظة غدا مفترق الطرق ذاك ساحة خلفية في سيرك، ازدحم بشاحنات تتحرك في اضطراب كالفيلة. جثوت إلى جوار د. محتضناً جسده المدمى بين ذراعي ومرتعداً كالكلب. لم أدر ماذا عساي أصنع. كان رجل شرطة قد اندفع مخترقاً الجمع ثم اختفى عدواً من جديد.

لم يكن د. قد لقي حتفه، كان الأمر أكثر فظاعة من هذا، فقد راح يحتضر، راقداً هنالك متوسداً البلل الطيني الذي كان ثلجاً رقيقاً، وجسده يشخب دماً وشيئاً كالنسيج. تكثّف عناق العتمة والجليد في السماء، وجعل الضوء المهيب لما يحاكي مشهد المنتحبة الإسبانية دم مخدومي يلتمع كدهن غليظ. في ذلك الوقت كان حشد من الناس قد تجمهر وتجمعت عربات الجنكل دائرة حولنا كسرب من الحمام أصابه الذعر. جثوت إلى جواره مصيخاً السمع لا لشيء بعينه، وتناهت إلى صرخات تردد في البعيد. لكن الجمع وقف لا يحير حراكاً وقد عمه الصمت من البرد كأنما يستشعر اللامبالاة بالصرخات. لم أصخ السمع قط على هذا النحو عند منعطف طريق مرة أخرى، كما لم يقدر لي أن أسمع مجدداً صرخات كهذه.

أخيراً وصلت عربة إسعاف، نُقل إليها مخدومي غائباً عن الوعي. كان ملطخاً بالدم والوحل، بدت الصدمة وقد طغت على بدنه. بدا وقد انتعل حذاء التنس الأبيض الذي يستخدمه عادة كضرير جريح. صعدت إلى عربة الإسعاف مع طبيب وممرض وشاب في مثل عمري بدا متعالياً ومترفعاً عن التواصل مع الآخرين، تبين أنه مساعد السائق في الشاحنة التي صدمت د. تفاقم الاحتقان مع انطلاق العربة شاقة طريقها عبر الجينزا (أوضحت احصاءات أطلعت عليها مؤخراً أن الازدحام هناك عشية عيد الميلاد ذاك كان قياسياً) أولئك الذين سمعوا صفير الإنذار وتوقفوا ليرقبونا في مرورنا، جميعهم على وجه

التقريب لمعت في عيونهم نظرة قلق حاد القيت في حذر، وتأملت في أحد أركان رأسي المصاب بالدوار حقيقة أن ما يسمى بالابتسامة اليابانية الملغز، فيما يبدو أنها موجودة إلا أنها لا وجود لها. في غضون ذلك كان د. يرقد غائباً عن الوعي على تلك النقالة المترجرجة وحياته تتسرب نزيفاً إلى خارج بدنه.

عندما بلغنا المستشفى دفع ممرضان، لم يتوقفا ليغيرا الأحذية إلى أخفاف، بـ د. إلى جزء منعزل من المبنى. ومثلما حدث في السابق ظهر رجل الشرطة عينه من المجهول مجدداً، وبهدوء طرح علي فيضاً من الأسئلة. ثم سمح لي بأن أمضي إلى د. كان مساعد سائق الشاحنة الشاب قد اهتدى إلى الغرفة وجلس على مقعد في الدهليز إلى جوار الباب. جلست إلى جواره. انتظرنا طويلاً. في البداية اكتفى بالغمغمة عن كل عمليات التسليم التي لا يزال يتعين عليه القيام بها. لكنه حينما انقضت ساعتان أخذ يشكو الجوع بصوت بدا على نحو مدهش صوت فتى صغير، فتضاءل عدائي نحوه. انتظرنا مزيداً من الوقت، فأقبل رجل الأعمال مع زوجته وثلاث من بناته، كانوا جميعاً يرتدون ملابس إحدى الحفلات. تجاهلونا، وولجوا الغرفة. كانت أجساد النسوة الأربع جميعاً بدينة، وتجمع بين القصر والترهل، ووجوههن تطفح حمرة. ذكرنني بزوجة د. السابقة. واصلت الانتظار. كانت ساعات قد انقضت في ذلك الوقت، عذبني دوماً الشك ـ ألم يكن مخدومي يعتزم الانتحار منذ البداية؟ قبل أن يلقي بنفسه إلى التهلكة كان قد سوى الأمور مع زوجته السابقة وخليلته، فأحرق مخطوطاته، وجاب أنحاء المدينة مودعاً الأماكن التي سيفتقدها ـ ألم يلحقني بالعمل لأنه بحاجة إلى شخص هادىء الطبع يساعده في هذه المهام؟ ألم يحل بيني وبين إدراك خطته باختراع طفل مسخ يحلق في السماء؟ وبتعبير آخر ألم يتمثل الأمر في أن وظيفتي الوحيدة الحقيقية كانت مساعدة د. في الانتحار؟ غط مساعد السائق في النوم ورأسه على كتفي، وكل لحظة أو أثنتين يتشنج كأنما من فرط الألم. ومن المحقق أنه كان يحلم بدهس رجل والمرور فوقه بشاحنته.

كان الظلام قد ضرب أطنابه في الخارج حينما لاح رجل الأعمال بالباب وناداني. سحبت كتفي من تحت رأس مساعد السائق، وانتصبت واقفاً، نقدني راتب اليوم، ثم أدخلني الغرفة. كان د. يرقد على ظهره وأنابيب مطاطية تمتد إلى طاقة أنفه كما لو كان الأمر دعابة. استوقفني وجهه، كان لحماً أسود مدخناً. لكني لم أستطع الحيلولة دون الإفصاح عن الشك الذي أخافني على هذا النحو:

ـ أو قد ألحقتني بالعمل لكي تتمكن من الانتحار؟ أكان كل هذا الذي حدثتني به عن

أجوي مجرد ستار؟

خنقتني العبرات، أدهشني أن أسمع نفسي أهتف:

- كنت أوشك على الاعتقاد بوجود أجوي؟

في تلك اللحظة، وفيما امتلأت عيناي بالدمع وشرعت الأشياء تكتسي بالعتمة لمحت ابتسامة تلوح على محيا د. المكفهر المتغضن. ربما كانت ابتسامة ساخرة، وربما كانت بسمة عبث ومداعبة ودية. وقادني رجل الأعمال إلى خارج الغرفة، كان مساعد سائق السيارة الشاب يغط في النوم متمدداً على الأريكة الخشبية. وفي طريقي إلى خارج المستشفى دسست الورقة المالية ذات الألف ين التي حصلت عليها أجراً لعمل اليوم في جيب سترته. قرأت في صحف مساء اليوم التالي أن الموسيقار قد لقي حتفه.

ثم حل هذا الربيع. كنت أجتاز الشارع حينما شرعت مجموعة مذعورة من الأطفال فجأة في إلقاء الأحجار. كان الأمر مفاجئاً تماماً وبلا مقدمات إلى حد أني لم أدر ما أتيته تهديداً لهم.

أياً ما كان، فقد حول الخوف هؤلاء الأطفال إلى قتلة، أصاب أحدهم عيني اليمنى بحجر في ضخامة قبضة اليد. انهرت على ركبتي، ضغطت كفي على عيني، أحسست بكتلة من اللحم المهروس. راقبت بعيني السليمة دمي المنساب يشخب وسط القذر في الشارع كأنما على نحو مغناطيسي. عندئذ استشعرت كائناً أعرفه وأفتقده يغادر الأرض ورائي، قافزاً مثل الكانجارو، ويحلق إلى زرقة السماء التي تغشاها الدمع وما تزال محتفظة بهشاشتها الشتائية. وداعاً أجوي، سمعت نفسي أهمس في قرارة فؤادي. عندئذ عرفت أن كراهيتي لهؤلاء الأطفال الخائفين قد تبددت وأن الزمن قد ملأ سمائي خلال هذه السنوات العشر بالشخوص التي تأتلق بنور عاجي أشهب. ولست أظن أنها جميعاً بريئة على نحو خالص. عندما جرحني هؤلاء الأطفال وضحيت بنظر إحدى عيني، وهي تضحية من الجلي ألا مبرر لها، وهبت، ولو للحظة واحدة فحسب، القدرة على رؤية مخلوق هبط من علياء سمائي.

تصميم الغلاف (ناصر عاصي)

روايات يابانية

● **حزن وجمال**

تأليف ياسوناري كاواباتا

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

● **علِّمنا أن نتجاوز جنوننا**

تأليف كينزا بورو أوي

ترجمة كامل يوسف حسين

● **امرأة في الرمال**

تأليف كوبو آبي

ترجمة كامل يوسف حسين

مؤلفات يوكو ميشيما

● **البحّار الذي لفظه البحر**

ترجمة عايدة مطرجي ادريس

● **عطش للحبّ**

ترجمة محمد عيتاني

● **رباعية ميشيما**

ترجمة كامل يوسف حسين

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص. ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت